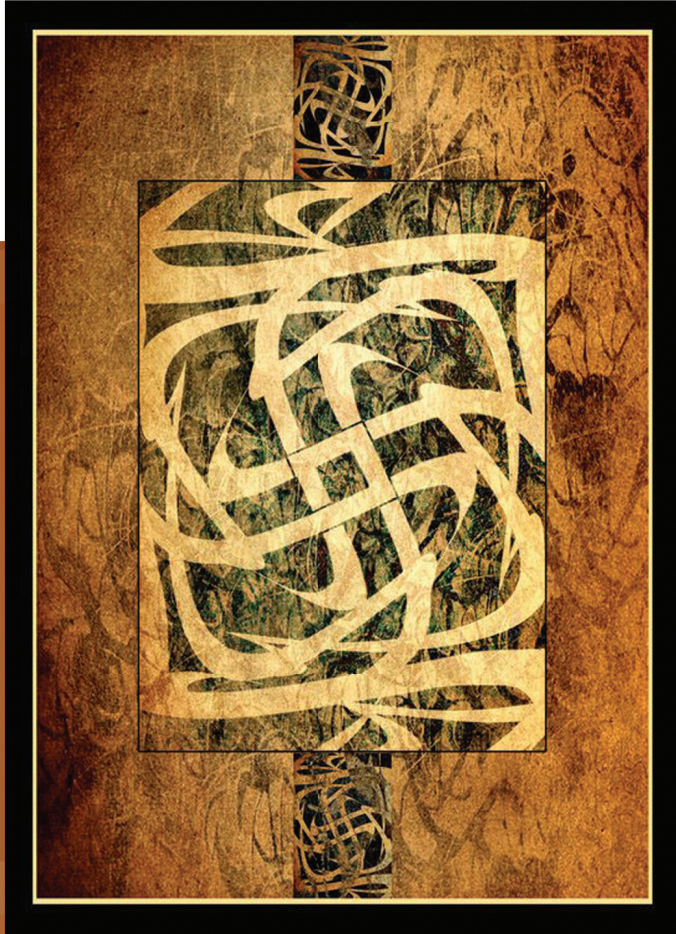


المدخل المعرفي واللغوي
للقرآن الكريم



د. خديجة إيكير

فَأَقْ

يهدي ولا يبيع



المدخل المعرفي واللغوي للقرآن الكريم

د. خديجة إيكير

الإخراج الفني : محمود محمد أبو الفضل

د. خديجة إيكير

من مواليد المغرب، حاصلة على دبلوم الدراسات العليا ودكتوراه الدولة من كلية الآداب بالجديدة. تعمل أستاذة للتعليم العالي بالكلية نفسها، وتدير مختبر الأبحاث والدراسات الحضارية التابع لجامعة شعيب الدكالي .

من مشاريعها العلمية المنجزة: «ألفاظ الحياة الاجتماعية في الحديث النبوي الشريف من خلال صحيح مسلم : دراسة دلالية معجمية»، و «دراسة في غريب الحديث من خلال المعجم المفهرس لألفاظ الحديث».



نهر متعدد... متجدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة - رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: (+965) 22487310 - فاكس: (+965) 22445465

نقال: (+965) 99255322

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed

تم طبع هذا الكتاب في هذه السلسلة للمرة الأولى،
ولا يجوز إعادة طبعه أو طبع أجزاء منه بأية وسيلة إلكترونية أو غير
ذلك إلا بعد الحصول على موافقة خطية من الناشر

الطبعة الأولى - دولة الكويت

أكتوبر 2012 م / ذو القعدة 1433 هـ

الآراء المنشورة في هذه السلسلة لا تعبر بالضرورة عن رأي الوزارة

كافة الحقوق محفوظة للناشر

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: www.islam.gov.kw

رقم الإيداع بمركز المعلومات: 131 / 2012

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: 535 / 2012

ردمك: 978-99966-50-64-2

فهرس المحتويات

٧ تصدير
٩ مقدمة
١٧ مدخل

الفصل الأول

٢٩ المدخل المعرفي للقرآن الكريم
٣٣ المبحث الأول: البعد العقدي
٤٧ المبحث الثاني: البعد التشريعي
٥٥ المبحث الثالث: البعد الأخلاقي
٦٥ المبحث الرابع: البعد العلمي والمنهجي

الفصل الثاني

٧٧ المدخل اللغوي للقرآن الكريم
٧٩ المبحث الأول: مفهوم الخطاب
٩٤ المبحث الثاني: مفهوم النص
١٠٩ المبحث الثالث: القرآن الكريم وإشكالية التلقي
١٣٥ المبحث الرابع: لغة القرآن الكريم
١٥٤ المبحث الخامس: المقاربة اللغوية للقرآن الكريم
١٦٥ المبحث السادس: مظاهر الاتساق و الانسجام في القرآن الكريم
٢١٧ الخاتمة
٢٢٢ المصادر والمراجع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



تصدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

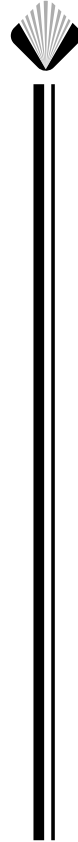
لعل من مظاهر إعجاز القرآن الكريم أن يظل خطابا يهدي إليه أقلام الباحثين والدارسين، يُجلون ما ينقح في أذهانهم وهم يتدبرون آياته وسوره، وكلما اطمأنوا إلى حيك نتائج تأملاتهم وسبكها وصياغتها، ظهرت لهم الحقيقة جلية، وهي أنهم في نهلم من الكتاب الحكيم لاتخرج أحوالهم عن ذاك الذي وضع إبرة في بحر، فلم يخرج إلا بقطرة ماء أو أقل.

وهذا ما يفسر، ثانيا، اشتغال عقول العلماء، منذ القرون الماضية إلى ما شاء الله، بأيات القرآن وسوره وأساليبه وأنماطه التركيبية وأبعاده الدلالية، كل جيل يكشف عن جوانب لم تنتبه إليها الأجيال الخوالي..

ويسر إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت أن تقدم كتاب «المدخل المعرفي واللغوي للقرآن الكريم» للباحثة خديجة إيكرك حلقة في تلك السلسلة الطويلة المباركة من الجهود الخادمة لبيان القرآن وهداياته...، حلقة تجمع بين تناول المعرفي والفكري والتناول اللغوي لبيان خصائص في الخطاب القرآني، مثل الربانية والمنهج العلمي والتناسب والاتساق والانسجام...

والأمل معقود على أن يحقق الكتاب الفائدة المرجوة منه، ويفيد منه الباحثون والمهتمون وعموم القراء، مع الدعاء بأن يجزي الله الكاتبة خير الجزاء... إنه سميع مجيب.

قدرتہ



القرآن الكريم رسالة الله تعالى الخالدة إلى البشرية كافة، هدفها الأساس هداية البشر لما يحقق صلاحهم في الحال وفلاحهم في المآل.

ومعنى هذا أن هذه الرسالة ذات مضمون سعى الإنسان، وما يزال، إلى الوقوف عليه باعتباره هو مراد الله عز وجل، الذي يجب التزامه في كل مجالات الحياة، تحقيقاً لمبدأ العبودية لله جلّ وعلا، وقياماً بواجب العمران.

وقد عمل علماءنا المفسرون على محاولة تحديد مراد الله تعالى من الخطاب القرآني وفق ما كان متاحاً لديهم من علوم ومعارف وتجارب وخبرات، غير أن عملهم ظل ذا طابع تطبيقي، ولم يرق إلى مستوى التنظير إلا في محاولات محدودة وغير شاملة متمثلة في بعض مباحث علوم القرآن وضوابط التأويل، مما يجعل الحاجة قائمة لصياغة نظرية شاملة للتفسير تستفيد من أعمال المفسرين والأصوليين والفقهاء واللغويين والبلاغيين وعلماء الكلام، مع الانفتاح على المناهج الحديثة في دراسة النص والخطاب، وذلك بهدف صياغة نظرية شاملة كاملة للتفسير تراعي خصوصيات القرآن الكريم، ولها كفاية الوصف والتحليل والتنظير والنمذجة والصّورنة حتى تصبح عملية التفسير عملية علمية موضوعية.

ويهدف هذا البحث إلى الإسهام في صياغة نظرية شاملة في التفسير تمكّنا من تحقيق القراءة المقاصدية الراشدة للقرآن الكريم، وتوقف المتلقي على المعنى المراد بطريقة علمية وموضوعية، تساعد على التدبر والعمل بمقتضى هدايات القرآن وتنزيلها على الواقع، بغية تعبيد الحياة، كل الحياة، لله رب العالمين وعمارة الأرض والسعي فيها إصلاحاً لا إفساداً.

ويتبنّى البحث نظرية «نحو النص» كمنهج. حيث استفاد من التراث العربي الإسلامي تفسيراً وقراءات، إذ يتبين من مذاهب القراء وخاصة مذهب حمزة الزيات (ت ١٥٦هـ) - رحمه الله - اعتباره القرآن الكريم

بمثابة جملة واحدة، فكان لا يقف إلا عند الاضطراب^(١). كما استفاد البحث من علوم القرآن خاصة ما يتعلّق بعلم المناسبة ودلالة السياق وتفسير القرآن بالقرآن.

وانتفع البحث أيضاً بالنحو العربي خاصة ما له علاقة بنظرية العامل وعناصر الاتساق حيث العناصر التركيبية الشكلية التي تعمل على تماسك النص، وكذلك الجانب البلاغي وخاصة نظرية النظم والتناسب الصوتي والتركيب والصريف والمعجمي.

والواقع أن البحث أدمج هذه الإبداعات التراثية في إطار نظرية نحو النص أو ما يمكن الاصطلاح عليه بلسانيات النص ونظريات تحليل الخطاب، حيث النظر إلى النص / الخطاب على أنه وحدة لا يمكن فهم بعضها إلا في إطارها الكلي، والتعامل معه بنظرة شمولية تقرأ الجزء في إطار الكل، مع مراعاة خصوصيات القرآن الكريم.

ونحو الجملة التقليدي يقوم أساساً على تحديد معايير الصواب ويرسم المعالم الأساسية لقواعد اللغة، أما «نحو النص» فيشترط اتساع الأفق المعرفي والإلمام بمعارف متداخلة كالنحو والبلاغة والمنطق والأصول والتفسير وعلوم القرآن والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع. كما يعمل على استكشاف البنيات الصغرى والكبرى للخطاب باعتباره رسالة تامة، ومن ثمّ اكتشاف مكامن الاتساق (أي العوامل الشكلية لتماسك النص) ومكامن الانسجام (أي العوامل المعنوية الدلالية لتماسك النص) مما يجعل الرؤية المؤطرة للبحث تعتمد مفهوم القراءة المقاصدية حيث يسعى القارئ إلى اكتشاف المعنى المراد والعمل على تنزيهه على الواقع تحقيقاً للعبودية وقياماً بواجب العمران.

١- الوقف والابتداء في ضوء علم اللسانيات الحديث : أحمد عارف حجازي، ص ٣١١، دار فرحة، مصر، ٨٠٠٢م.

إن البحث يحاول تمثّل منهج نظرية نحوالنص في دراسة الخطاب القرآني
بنية اكتشاف بنياته الصغرى والكبرى، باعتباره يشكل وحدة نسقية لا
يمكن فهم إحدى جزئياته إلا في إطاره الكلي، هذا من جهة. أما من جهة
أخرى فالبحث يحاول الكشف عن الأبعاد التواصلية للخطاب القرآني
باعتباره رسالة من الله تعالى حملها رسوله الكريم ﷺ إلى الناس كافة
بهدف هدايتهم لما يُحقق صلاحهم في الحال وفلاحهم في المآل.

ومن هنا، فإن المنهج المتبع يعتمد هذه الرؤية ويعمل على تصريفها إلى
مشروع علمي يجمع بين الأصالة والمعاصرة، مما يرشحه لأن يكون نواة
إبداع حقيقي وليس تلفيقا بين القديم والجديد .

ولعل مشروعنا هذا يعتبر فاتحة ورش علمي كبير يحتاج إلى تضافر
الجهود للوفاء بمتطلباته.

ويمكنني إجمال الأسباب التي حملتني على إنجاز هذه الدراسة في
العناصر التالية:

١- محاولة البعض جعل القرآن الكريم ورشا لغويا مشرعا على كل القراءات
الممكنة والمحتملة ومن قبل كل القراء، دون مراعاة خصوصيات القرآن
الكريم، ودون النظر في القارئ ومدى أهليته العلمية والأخلاقية للقيام
بمقاربة النص / الخطاب القرآني، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَرْنَا
الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ القمر/١٧.

والواقع أن القرآن الكريم هو كتاب حياة، تعبّدنا الله بمقتضى ما نستخلصه
منه من أحكام عقدية وعملية، ومن ثم فقراءته ليست قراءة حرة بقدر
ما هي قراءة مقيدة باستخلاص مراد الله تعالى من الخطاب / النص
القرآني، أي بالوقوف على مضمون الرسالة الربانية، وتحقيق التواصل بين
الله تعالى والخلق. ليعلم الخلق ما هم مكلفون به من قبل الخالق عز وجل،

فيعبّدوا الحياة لله رب العالمين، وذلك هو مقتضى قوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ
وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

إن عدم استحضار المقصد من قراءة القرآن الكريم يوقعنا في خطأ اعتبار القراءات المقترحة - والتي لا تأخذ بخصوصيات القرآن الكريم، ولا تعدد بقواعد وأصول التفسير- قراءات علمية، والنظر إلى القراءة المقاصدية التي اعتمدها جل المفسرين من أهل السنة والجماعة على أنها قراءة غير علمية وغير موضوعية، مما يعتبر في نظرنا قلبا للحقائق، وتسويغا لمشاريع إيديولوجية بركوب موجة تعدد القراءات.

٢- لقد ورّثت القراءة العجلى للقرآن الكريم، والقراءات الإيديولوجية المتدثرة بالحدثة لدى كثير من الناس الاعتقاد بأن القرآن الكريم لا تنتظمه أي وحدة، وأنه شتات يفتقد إلى خيط ناظم يجمع أجزاءه، مما يعتبر طعنا صريحا في إعجاز القرآن الكريم.

إن القراءة العلمية الرصينة المتبنية لمناهج تحليل الخطاب، والمعتمدة على القراءة المقاصدية، القائمة على احترام خصوصيات القرآن الكريم، واعتماد قواعد التفسير وأصوله، من شأنها أن تبرز تميز القرآن الكريم وفرداته. فهو كلام الله المعجز الخارج عن معهود كتابات البشر، والذي لا يخضع لمعهود الوحدة التي يتعارف عليها البشر في الكتابة والتأليف، ومن ثم فهو يتفرد بوحدة خاصة تتمثل في وحدة الأهداف والمقاصد، من حيث البناء الدلالي والمفاهيمي (الانسجام)، ومن حيث بناؤه التركيبي إذ يتماسك (الاتساق) بدمج الأدوات التركيبية مع الأساليب الفنية بطريقة ألغت ما عُرف في عالم المعرفة اللسانية، ومناهج تحليل الخطاب من تفريق بين المستويات التركيبية والأسلوبية والتداولية. إن النص / الخطاب القرآني يتماسك على غير معهود البشر، وبطريقة

١- سورة الذاريات، الآية ٦٥.

مضمرة لا يمكن الكشف عنها إلا بعد إعمال العقل والنظر، وذلك سيرا على المنهج القرآني في التربية العلمية والفكرية حتى يخرج للعالمين أمة العلم، وأمة الإيمان والصلاح لتكون كما أراد ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^(١).

إن إضمار الحق سبحانه لاتساق النص / الخطاب القرآني وانسجامه حمل الإنسان على إعمال الفكر والنظر لاكتشاف مكنون الاتساق والانسجام. وفي ذلك تأهيل له للوفاء بمستلزمات الاستخلاف، وعمارة الأرض من جهة، والوقوف على النظم، ووحدة المقصد وإدراك والفرادة، ليحصل لذة المعرفة واطمئنان القلب، بعدما تأكد العقل بأن ذلك كلام الله تعالى الذي: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٢) المعجز المتحدي لفصحاء العرب، ومن وراءهم من الإنس والجن أن يأتوا بمثله: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾^(٣). أو بعشر سور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤)، أو بسورة واحدة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٥).

وهذا يعني أن القرآن له نظامه اللغوي الذي يتعين الكشف عنه ودراسته واتخاذة آلية من آليات تدبره واستنباط هداياته.

٣- لقد اتجهت الدراسات القرآنية، شأنها شأن البلاغة العربية، إلى الاهتمام بالنص والقارئ / المتلقي، ومن ثم كان الاهتمام بتفسير وتأويل

١- سورة آل عمران، الآية ١١٠.

٢- سورة فصلت، الآية ٢٤.

٣- سورة الإسراء، الآية ٨٨.

٤- سورة هود، الآية ٣١.

٥- سورة يونس، الآية ٨٣.

النص / الخطاب القرآني. ثم اتجهت الدراسات بعد ذلك إلى دراسات حول هذا التفسير في إطار ما يعرف بمناهج التفسير والمفسرين، وقد كانت هناك محاولات رائدة في إطار البحوث الإعجازية التي تسعى لإبراز مكونات النص القرآني، والعلاقات التي تربط بينها، وتبلور ذلك في إطار ما سمي بنظرية النظم، كما برز في بعض المحاولات التفسيرية الرائدة التي تبنت المناسبة بين سور وآي الذكر الحكيم. غير أن هذه المحاولات ظلت تعالج النص / الخطاب القرآني معالجة جزئية، مما يجعل الحاجة ماسة إلى صياغة نظرية شاملة في التفسير.

٤- إن الرغبة في إنجاز وتحقيق هذه الدراسة المتكاملة التي تستشرف مقارنة النص / الخطاب القرآني في بعده المعرفي واللغوي بأدوات منهجية حديثة مستقاة من اللسانيات ومناهج تحليل الخطاب، مع مراعاة خصوصيات القرآن الكريم، ومحاولة استخلاص نظرية متكاملة في التفسير، هي التي دفعني إلى اختيار هذا الموضوع على الرغم من الصعاب التي حفت هذه الدراسة من جوانب متعددة، منها ما يتعلق باتساع المجال، وبالتالي صعوبة - إن لم نقل استحالة- ادعاء الاستقصاء والاستقراء التامين، مما جعلني أعترف بالقصور البشري أمام الإلمام بالظاهرة القرآنية، وعدم ادعاء الإلمام بكل جوانب الموضوع. وحسبي أنني لم أقصر، ولم أتوان في خدمة القرآن الكريم.

ولعل ما يشفع لي أنني فتحت بابا جديدا أمام الباحثين في الدراسات القرآنية، يمكن أن يعتبر مشروعا قابلا للتطوير، والمضي به قدما بغية تحقيق الهدف المنشود المتمثل في القيام بدراسة شاملة تعتمد الاستقراء التام لكل مجالات الاتساق والانسجام في القرآن الكريم، وتمكننا من أن نخرج للعالمين نظرية في التفسير، تتمتع بالكفاية العلمية والمنهجية، معتمدين في ذلك على تراثنا التفسيري الهائل، والدراسات القرآنية التي أعدها السلف والخلف، ومستأنسين باللسانيات الحديثة ومناهج تحليل الخطاب.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل...

مدخل



القرآن الكريم هو كلام الله الأزلي الذي خاطب به كل الناس دون اختيار أو تمييز أو إقصاء حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١).

وهو خطاب لغوي تحققت فيه شروط النص اللغوي الممتاز، فقد أنزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾^(٢)، أي يصنّف ضمن اللغة الأدبية الممتازة، كالشعر والأمثال والخطب والنثر الفني، ولكنه يمتاز عنها بكون هذه الأخيرة نتاجا بشريا محدودا بالزمان والمكان، بينما الخطاب القرآني هو كلام الله تعالى المتصف بالإطلاق والإعجاز.

فإذا كان الله تعالى مطلقا فإن خطابه بالضرورة مطلق، يتجاوز حدود الزمان والمكان ويناسب من يخاطبه ويحيط به من كل جانب، لأنه - تعالى - خلق الإنسان وأحسن صورته وتركيبه. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾^(٣)، ويقول في موضع آخر: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(٤).

ومن ثم فإنه - سبحانه - أعلم بأشواق هذا الإنسان ورغباته، أعلم بتكوينه المادي والنفسي، لذلك أبدع له خطابا يناسبه ويتفاعل معه تفاعلا وجدانيا بمجرد سماعه وبمقدار معرفته باللسان العربي. وبقدر تحصيله للعلوم المتعلقة بالكون والإنسان واللغة والأدب وفنون القول، يزداد تفاعله العقلاني والوجداني مع الخطاب القرآني.

فإذا كان الإنسان يشكل نسقا بيولوجيا / نفسيا متكاملا مكونا من وحدات وبنيات وعناصر تعمل بشكل مستقل ولكن بانسجام وتناسق مع بعضها البعض - لتكون ذلك النسق البيولوجي / النفسي العجيب، فإنه سبحانه

١- سورة البقرة، الآية ١٢.

٢- سورة الشعراء، الآية ٥٩١.

٣- سورة المؤمنون، الآية ٢١.

٤- سورة الحجر، الآية ٩٢. وسورة ص، الآية ٢٧.

خاطبه بنسق فكري ولغوي مماثل هو النص / الخطاب القرآني الذي يشكل وحدة نسقية تماثل وحدة النسق الإنساني، مما يجعل التفاعل بينهما يحدث من غير حاجة إلى وسائط، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾^(١).

إن هذا النسق اللغوي الفكري الذي نصطلح على تسميته بالخطاب القرآني يتكون من حدين:

١- أحدهما لغوي نصي.

٢- والآخر فكري تصوري ومفاهيمي.

ومن ثم، فإن الخطاب القرآني يتكون من ثنائية أحد طرفيها المضمون والآخر الشكل، بالإضافة إلى البعد الآخر الذي لا ينبغي إغفاله وهو الإنسان الذي يوجه إليه الخطاب، ثم صاحب الخطاب وهو الحق سبحانه، وبذلك يمكننا أن نحدد للخطاب القرآني خمسة أبعاد هي: الشكل والمضمون، وصاحب النص وهو الله تعالى، والمبلغ للخطاب وهو الرسول ﷺ، والمعنى بالخطاب «المتلقي» وهو الإنسان.

إن ما نروم الكشف عنه في هذه الدراسة هو الإسهام في مشروع صياغة نظرية لسانية قرآنية تمكنا من إبراز ذلكم الجهاز المفاهيمي المتمثل في العقيدة والشريعة، والأخلاق والسلوك، والمبادئ والقيم عبر قناة اللغة / النص / الخطاب. فما هي العلاقة القائمة بين هذه المضامين والأشكال اللغوية والتعبيرية التي حملتها إلى العالمين؟ أوبمعنى آخر هل كلما انتقلنا من تصور أو مفهوم إلى تصور آخر تغيرت معه اللغة / الأداة؟ ونقصد باللغة هنا جميع مستوياتها بدءاً بالمستوى الصوتي، ومروراً بالمستوى التركيبي والجمالي / الأسلوبي، وانتهاءً بالمستوى الدلالي والتداولي.

١- سورة القمر، الآية ٧١.

إن هذه التساؤلات كلها تولد سؤالاً مركزياً ألا وهو كيف يتم تحقيق التوازن بين مكونات النص / الخطاب القرآني والمخاطبين به؟ ثم كيف يتماسك النص، وكيف يحدث فيه الانسجام والاتساق؟.

ويطرح تبعا لما ذكرناه إشكالاً يتمثل في أنه لكي تكون الرسالة قد وصلت فعلا إلى المرسل إليهم يجب أن يقفوا على مضمونها، وأن يعرفوا محتواها معرفة تامة. وما لم يتم ذلك فإن المرسل إليهم هم في حكم من لم يتوصل بالرسالة.

وهنا يواجهنا مشكل كون النص / الخطاب القرآني أعلن أنه ميسرٌ مفسرٌ لا يحتاج إلى بيان، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾^(١).

إذن لماذا نجد تراثاً تفسيرياً هائلاً؟ وهل هناك تناقض بين النص / الخطاب القرآني والواقع؟.

إن القرآن ميسر لا يحتاج إلى وسائط بينه وبين متلقيه من حيث التفاعل الوجداني، أما من حيث استنباط الأحكام النظرية والعملية، واستخلاص المفاهيم والتصورات والمبادئ والقيم فإنه يحتاج إلى تدبر وتفكير وتأمل. والتدبر هو الفهم الذي يسهل التواصل بين المرسل والمرسل إليهم، وهو الأداة التي تمكن من استخلاص الجهاز المفاهيمي الذي يكون الذات ويثبت الهوية ويُقيم الحضارة. ولذلك نجد الحق سبحانه في الآية الكريمة يجعل التدبر مشروطاً بالتذكر. أي إن القرآن الكريم ميسر لمن تيسرت له أسباب ذلك وتوفرت فيه شروط أهلية تلقي القرآن الكريم، وهي شروط معرفية وذاتية.

إن التدبر بهذا المعنى تحولٌ دون إشكالات يمكن إيجازها في ما يلي:

١- سورة القمر، الآية ٧١.

إن إشكال التدبر، أو ما يمكن تسميته بموانع التواصل، يكمن في اللغة، لذلك لا بد من التفريق بين فريقين من المتلقين: حديثو العهد بالإسلام من غير العرب، ومتكلمو اللغة العربية سليقةً. والمشكل اللغوي بالنسبة لهذا الفريق الأخير لم يكن حائلًا دون تدبره للخطاب القرآني ثم فهمه فاستخلاص الجهاز المفاهيمي، بل كان بالنسبة لبعضهم مانعًا من موانع التواصل.

فاللغة العربية الفصحى - كما نعلم - هي لغة قريش وهي لغة منتقاة عبارة عن مزيج من اللهجات العربية، ذلك أن مكة كانت عاصمة العرب وكانوا يفدون إليها قصد الحج والتجارة مما جعل اللغة القرشية تتمثل جميع اللهجات العربية لتصوغ منها اللغة العربية التي ضمت خصائص تلك اللهجات المختلفة من حيث التركيب والمعجم. وكان لإدماج اللغة القرشية للهجات الأخرى الفضل الكبير في توحيد العرب على مستوى اللغة ثم على مستوى الأمة الواحدة، حيث كانت النقلة الهائلة من التجمعات القبلية إلى كيان الأمة الموحد. غير أن هذا الإدماج والتمثيل الهائل لم يكن بمقدوره أن يذيب كل الفروق اللغوية من الناحية الصوتية والتركيبية والمعجمية مما شكل عائقًا نسبيًا من عوائق التدبر والفهم.

ولعل الدليل على ذلك ما نلاحظه من أن بعض الصحابة كانوا لا يفقهون معاني بعض الألفاظ القرآنية كتساؤل عمر بن الخطاب (ت ٢٣هـ) عن الأب في قوله تعالى ﴿ وَفَكَهَتْ وَأَبًا ﴾^(١)، وعن الكلاله في قوله ﴿ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَتْ كَلَلَةً أَوْ أَمْرًا ﴾^(٢)، وعن التخوف في قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾^(٣).

كما أن البعض الآخر كانت تصادفه صعوبة على مستوى دلالة النص

١- سورة عبس، الآية ١٣.

٢- سورة النساء، الآية ٢١.

٣- سورة النحل، الآية ٧٤.

مثلما حدث للصحابي عدي بن حاتم رضي الله عنه الذي فهم قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَأَشْرَبُوا حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾^(١) على ظاهره فاتخذ خيطين أبيض وأسود ووضعهما تحت وسادته ولم ينتبه إلى أن الكلام جاء على سبيل التشبيه والكناية لا غير^(٢).

وقد يرجع مانع التواصل إلى السياق أيضا مثل ما نجد في قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْفِرُونَ﴾^(٣) الذي فسر فيه الرسول صلى الله عليه وسلم الرزق بالشكر أخذاً ذلك من سياق السورة كلها التي تعدد النعم التي اختص بها الله عباده، حيث جاءت قبل هذه الآية آيات كثيرة تبين تلك النعم منها قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ أَلْمَاءَ الَّتِي تَسْرُبُونَ﴾^(٥) وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾^(٦). فتفسير الرزق إذن بالشكر يعتبر من المجاز المرسل الذي علاقته السببية.

ويتضح لنا مما سبق أن الرسول صلى الله عليه وسلم اتخذ من السياق دليلاً لتوجيه الخطاب وتفسيره ذلك التفسير^(٧). والسياس في هذه الآية محدود بالسورة إذ وجدت الآية تأويلها في إطار السورة نفسها.

غير أن هناك من السياقات ما يتجاوز ذلك كله ليحقق وحدة الخطاب

١- سورة البقرة، الآية ٧٨١.

٢- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : أبو القاسم جار الله الزمخشري (ت ٨٣٥ هـ)، ج ١، ص ٩٣٣، دار الفكر بيروت، ط ١، ٧٧٩١ م.

مجمع البيان في تفسير القرآن : أبو علي بن الحسن الطبرسي (ت ٢٥٥ هـ) مج ١، ص ٥٠٣/٢٠٢، تحقيق هاشم الرسولي المحلاتي، وفضل الله اليزدي الطباطبائي، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ٦٨٩١٤.

٣- سورة الواقعة، الآية ٢٨.

٤- سورة الواقعة، الآية ٣٦.

٥- سورة الواقعة، الآية ٨٦.

٦- سورة الواقعة، الآية ١٧.

٧- تفسير القرآن العظيم : أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٤٧٧ هـ)، ج ٤، ص ٠٠٣/٩٩٢، دار الفكر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٤ هـ / ٢٠٨٩١ م.

القرآني، مما يقوم دليلا على التماسك المعنوي للنص القرآني. ونضرب مثلا لهذا النوع من السياق بالآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾^(١) فقد شق على المسلمين سماعهم لهذه الآية فقالوا: يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه؟ فقال ﷺ: ليس ذلك وإنما هو الشرك^(٢). ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه: ﴿يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّكَ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٣)، وتفسير الظلم هنا بالشرك هو على سبيل المجاز الذي علاقته المسببية.

إن هذا النص يظهر لنا بجلاء أن التفسير اللغوي بجميع مقوماته بدأ منذ فترة مبكرة جدا، وإن كانت بدايته عملية وليست نظرية، شأنه في ذلك شأن كل العلوم.

إن ما يهمنا هنا هو أن الوعي بوحدة وانسجام الخطاب/ النص القرآني قد تم منذ وقت مبكر من تاريخ الإسلام، ثم تطور إلى أن تبلور في نظرية متكاملة ألا وهي نظرية النظم التي جاء بها عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧٤هـ).

٢- تفاوت القدرات العقلية والعلمية:

إن البشر ليسوا جميعا على قدر واحد من الفهم والعلم، ومن ثم فقدرتهم على التعامل مع النص / الخطاب القرآني فهما وإدراكا واستنباطا ليست أيضا على مستوى واحد، بل تتفاوت بقدر تفاوت الملكات العقلية والعلمية. وهذا الأمر حدث حتى بين الصحابة رضوان الله عليهم الذين شهدوا نزول الوحي، فعندما نراجع طبقات المفسرين نجد أن قليلا من الصحابة فقط

١- سورة الأنعام، الآية ٢٨.

٢- الإتيان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي (ت ١١٩ هـ)، ج ٢، ص ٦٩٢، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ط ٣، ٥٠٤١ هـ / ٥٨٩١ م.

٣- سورة لقمان، جزء من الآية ٣١.

الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ج ٥، ص ٧٠٢، رقم الحديث ٩٨٥٢.

برزوا في مجال التفسير، منهم الخلفاء الأربعة، وأكثر من رُوي عنه منهم الإمام علي (ت ٤٠ هـ)، أما الثلاثة الباقون فلم يُرو عنهم إلا النزر القليل، ومنهم كذلك عبد الله بن مسعود (ت ٣٢ هـ) وابن عباس (ت ٦٨ هـ) وأبي بن كعب (ت ٢٠ هـ) وأبو موسى الأشعري (ت ٤٤ هـ) وعبد الله بن الزبير (ت ٧٣ هـ)^(١) رضي الله عنهم.

٣- غياب السياق غير اللغوي:

ونقصد بالغياب هنا عدم استحضار أسباب النزول الواردة فيها الآية أو السورة، أو ما هو أوسع وهو ما يمكن الاصطلاح عليه بملاسات النزول ونعني بها الظروف النفسية والاجتماعية والسياسية التي واكبت نزول الآية أو السورة، والتي لها دور أساس في تحديد مراد الله عز وجل من خطابه.

إن سبب النزول أو ملاسات النزول إذا غابت لا يمكن للشخص أن يدرك المراد من الخطاب، يقول السيوطي (ت ٩١١ هـ) في الرد على من يزعمون الأفايدة وراء معرفة سبب النزول: «زعم زاعم أنه لا طائل تحت هذا الفن لجريانه مجرى التاريخ، وأخطأ في ذلك، بل له فوائد منها: معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، ومنها تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب، ومنها أن اللفظ قد يكون عاما ويقوم دليل على تخصيصه فإذا عرف السبب قصر التخصيص على ما عدا صورته. فإن دخول صورة السبب قطعي وإخراجه بالاجتهاد ممنوع... ومنها الوقوف على المعنى وإزالة الإشكال. قال الواحدي (ت ٤٦٨ هـ): لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها، وقال ابن دقيق العيد (ت ٦٨٥ هـ): بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن»^(٢).

١- البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، ج ٢، ص ٧٥١، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط ١، ٦٧٣١ هـ / ٧٥٩١ م. ومقدمة في أصول التفسير: تقي الدين أحمد بن تيمية (ت ٨٢٧ هـ) ص ٢٤، المطبعة السلفية، القاهرة، ط ١، ٩٩٣١ هـ - الإتيان في علوم القرآن، ج ١، ص ٢٨/٢٨.

وقد أعقب صاحب الإتيقان كلامه هذا بعدة أمثلة تبين مدى أهمية سبب النزول في تحديد مراد الشارع الحكيم، من ذلك أن مروان بن الحكم أشكل عليه قوله تعالى: «لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْتَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»^(١) فقال فإن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل لنعذبن أجمعين. فبين له ابن عباس أن الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم الرسول عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره، وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه^(٢).

كما أن قوله تعالى: «وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجَّهُ اللَّهُ ابْنَكَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ»^(٣) إذا جرد عن سياقه غير اللغوي فإنه سيفهم منه عكس المراد، إذ يقتضي ظاهر الآية «أن المصلي لا يجب عليه استقبال القبلة سفرا ولا حضرا، وهو خلاف الإجماع. لما عرف سبب نزولها علم أنها في نافذة السفر، أو في من صلى بالاجتهاد وبأن له الخطأ على اختلاف الروايات في ذلك»^(٤).

ومما ينبغي الإشارة إليه أن قواعد التفسير وأصوله كانت مقررة منذ عهد الرسول ﷺ، والدليل على ذلك أن تفسيره للقرآن الكريم قد تضمنها جميعا. ومن ثم فإن كل اتجاهات التفسير تجد أصولها في تفسير القرآن بالسنة، وقد علمها ﷺ للصحابة رضي الله عنهم الذين لقنوها للتابعين رضوان الله عليهم ليتناقلها الخلف عن السلف.

وقد ظلت هذه القواعد والأصول التفسيرية عملية ولم ترق إلى مستوى التنظير مثلما حدث في الفقه حيث أنتج أصول الفقه - وهو المستوى

١- سورة آل عمران، الآية ٨٨١.

٢- الإتيقان ج ١، ص ٣٨.

٣- سورة البقرة، الآية ٥١١.

٤- الإتيقان ج ١، ص ٤٨.

التنظيري لمنهج الفقيه في استنباط الأحكام- ومثلما أنتجت اللغة فقه اللغة، والنحو أصول النحو. إن هذه الأصول والقواعد التفسيرية قد تنازعتها الفروع العملية التطبيقية من جهة لأن المفسرين كانوا يمارسونها عملياً عند تفسيرهم للقرآن الكريم، ثم النظرية من جهة ثانية حينما بدأت الحاجة تدعو إلى إفرادها بالتأليف. فظهرت كتابات في الموضوع نحو: «مقدمة في أصول التفسير»: لابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، ومقدمة الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ)، والمقدمات التي وضعها المفسرون لتفاسيرهم. لكنها لم ترق جميعها للإمام بكل قضايا التفسير وإشكالاته حتى تستطيع صياغة نظرية شاملة في التفسير.

مما يجعلنا اليوم مضطرين للوفاء بهذا المقصد العلمي النبيل الرجوع إلى التراث التفسيري، وعلوم القرآن، وأصول الفقه، وفقه اللغة، وعلم الكلام، وعلم المناظرة والجدل، بغية تجميع مكونات نظرية التفسير التي تقاسمتها فروع الثقافة الإسلامية، لتحقيق الكفاية العلمية والمنهجية لمقاربة النص / الخطاب القرآني، ولعل هذا العمل يحقق شيئاً من ذلك.

الفصل الأول :

المدخل المعرفي

للقرآن الكريم



إن القرآن هو مصدر العقيدة والشريعة، والأخلاق والسلوك، والمنهج والتصور، والعلم والمعرفة. فهو كلام الله عز وجل الذي أحاط بكل شيء علماً: يقول تعالى ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ^(١) ﴾ ويقول سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ^(٢) ﴾ ويقول ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ^(٣) ﴾ ويقول تعالى كذلك: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ^(٤) ﴾، ويقول عز وجل ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَّمْتُ رَبِّي لَفِدَّ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَّ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ^(٥) ﴾.

فالقرآن الكريم هو مصدر الإنسان لمعرفة مكونات الوجود: الله والإنسان والكون، ومعرفة العلاقات التي يتعين أن تقوم بينهم. فعلاقة الإنسان بالله

١- البقرة، الآية ٢٣.

٢- سورة النمل، الآية ٦.

٣- سورة النحل، الآية ٩٨.

«القرآن الكريم ليس كتاب فلسفة إذا قصدنا بالفلسفة مجموعة الأفكار النابعة من العقل، والمتسلسلة وفق منهج معين، غرضها تكوين نسق من المبادئ لتفسير طائفة من الظواهر الكونية، ولا كتاب نظريات في علم المنطق، ولا في المعرفة، وليس كتاب أبحاث ينفصل بعضها عن بعض في قوالب البحث النظري، سواء في مجالات علمية أو عملية في مجالات العلوم، أو الاقتصاد، أو الاجتماع، أو النفس، وبذلك المفهوم التجريدي النظري. ذلك لأنه منهج رباني متكامل شامل، وهونسيج وحده، لا يوفيه حقه وصفه بالنظرية، فهو في حد ذاته ليس نظرية، في فن من الفنون، وهو يتجاوز البحث النظري إلى التطبيق الواقعي، وهو هدى ونور وشفاء للبشرية، كي تستقيم على طاعة الله وعبادته.

﴿ يَتَأَمَّلِ الْكُتُبَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْبُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ سورة المائدة، الآية ٥١/٦١.

عن كتاب: نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة: راجع عبد الحميد الكردي، ص ٨٦، مكتبة المؤيد، الطبعة الأولى، الرياض ٢١٤١هـ/ ٢٩٩١م.

٤- سورة الإسراء، الآية ٩٨.

٥- سورة الكهف، الآية ٩٠١.

علاقة عبودية، وعلاقته بالإنسان علاقة أخوة وتعاون، وعلاقته بالكون علاقة تسخير. ومن ثم فإن القرآن الكريم احتوى المباحث الثلاث التي تركز عليها الفلسفة وهي : مبحث الوجود (الأنطولوجيا) ومبحث القيم (الإكولوجيا) ومبحث المعرفة (الابستمولوجيا).

المبحث الأول: البعد العقدي

يتأسس النظام المعرفي الإسلامي على عقيدة التوحيد التي تعطي للإنسان جملة تصورات عن عالم الغيب وعالم الشهادة. فالأول متعال عن الثاني ومفارق له، فلا الله تعالى هو العالم ولا العالم هو الله تعالى، والعلاقة بينهما علاقة خلق وعبودية، والعلاقة بين الإنسان والطبيعة علاقة تسخير، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان علاقة تعاضد وتعاون، والكل خلق الله. وينقسم التوحيد إلى الأقسام الآتية:

١- توحيد الربوبية:

وهو الاعتقاد بأن الله تعالى متفرد بالخلق: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، وأنه سبحانه بعد أن خلق الخلائق لم يتركها هملاً، وإنما تولاهما بكمال العناية والرعاية فقدر أرزاقها: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٢)، ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾^(٣).

وبذلك يصبح الإنسان مؤمناً بأن لا أحد يملك أن يعطيه أو يمنعه، أو ينفعه أو يضره، أو يحييه أو يميتته، إلا أن يشاء الله. وبذلك يتحرر من جميع مظاهر العبودية بأن يصبح عبداً خالصاً لله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾^(٤)، ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الدِّينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ

١- سورة الفاتحة، الآية ٢.

٢- سورة هود، الآية ٦.

٣- سورة الذاريات، الآية ٢٢.

٤- سورة الزمر، الآية ١١.

الرِّزْقَ وَأَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ^ط إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١﴾.

كما أنه سبحانه - من كمال عنايته بخلقه - أرسل الرسل تنزيهاً، مبشرين ومنذرين، ليهدي الناس لما يحقق صالحهم في الحال، وفلاحهم في المال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ﴾^(٢)، ﴿مَن أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ أِزِيدُهُ وَزُرْ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(٣).

٢- توحيد العبودية:

لما كان الله تعالى متفرداً بالخلق، فإنه منطقياً يتعين أن يكون متفرداً بالعبودية، فمن حق الله على العباد أن يخصوه وحده بالعبادة، ولا يتخذوا معه شريكاً في العبادة: ﴿إِلَّاكَ نَعْبُدُ وَإِلَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٤)، ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلِقُ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾^(٥).

والعبادة هنا بالمعنى العام المتجاوز للشعائر التعبدية، ليشمل كل أمر يصدر من الله تعالى بالفعل أو الترك، فإذا أقامه العباد فقد أقاموا العبادة لله تعالى. فالحق سبحانه كما تعبدنا بالشعائر تعبدنا بالشرائع، فلا فرق بين أحكام الصلاة، والزكاة والصوم والحج، وبين أحكام الزواج، والطلاق، وسائر الأحكام المنظمة لكافة أوجه الحياة على مستوى الفرد، أو الأسرة،

١- سورة العنكبوت، الآية ٧١.

٢- سورة النحل، الآية ٦٣.

٣- سورة الإسراء، الآية ٥١.

٤- سورة الفاتحة، الآية ٥.

٥- سورة الأنعام، الآية ٢٠١.

والمجتمع، أو الدولة، أو الدول في حالة السلم والحرب: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١).

٣- توحيد الحاكمية:

لما كان الله تعالى متفردا بالخلق، فإنه سبحانه أعلم بمن وما خلق، ومن ثم فإن أمر الخلائق كلها - منطقيا - يرد إليه. فالله تعالى في التصور الإسلامي هو مصدر التشريع ومصدر الحقوق: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ أَلْحَمُّ إِلَّا إِلَهُ يَحْكُمُ الْأَحْقَابَ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلِينَ﴾ (٢)، ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحَكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٣).

ويمكن إجمال مقاصد الحاكمية في:

- ١- تحقيق العبودية الشاملة لله تعالى.
- ٢- الفصل في الخلاف بين الناس في الدنيا والآخرة.

١- سورة الذاريات، الآية ٥٦.

يقول سيد قطب (ت ١٩٦٦م) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَقْتُمْوهنَّ مِن قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لهنَّ فَرِيضَةً فَيُضِفْ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يُعْفُوا أَوْ يُعْفُوا الَّذِي يَدُوهُ عَقْدَةُ الرِّجَالِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١) حفظوا على الصلوات والصكوة الواسطة وقوموا لله قنينين (٢) فإن جفتم فرجالاً أو ركباناً فإذا آتيتهم فأذكروا الله كذا علمكم ما لم تكونوا تعلمون (٣) والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهن ممثلة إلى الخول غير إخراج فإن حرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروفٍ والله عزيز حكيم (سورة البقرة: الآيات ٢٢٨ / ٢٤٠): «إنها العبادة، عبادة الله في الزواج، وعبادته في المباشرة والإنسال، وعبادته في الطلاق والانفصال، وعبادته في العدة والرجعة، وعبادته في النفقة والمتعة، وعبادته في الإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وعبادته في الافتداء والتعويض، وعبادته في الرضاع والنفال، عبادة الله في كل حركة وفي خضرة، ومن ثم يجيء - بين هذه الأحكام - حكم الصلاة في الخوف والأمن... وتندمج عبادة الصلاة في عبادة الحياة... إن هذه عبادات، وطاعة الله فيها من من جنس طاعته في الصلاة، والحياة وحدة، والطاعات فيها جملة، والأمر كله من الله، وهومنهج الله في الحياة» في ظلال القرآن: سيد قطب، مج ١، ص ٢٢٨، دار الشروق، الطبعة ١٠، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٢- سورة الأنعام، الآية ٧٥.

٣- سورة الشورى، الآية ٠١.

٢- المنع من الفساد، وتحقيق مصالح الناس في الدارين^(١).

إن الإقرار لله تعالى بالحاكمية - بحيث يكون سبحانه مصدر التشريع، وواهب الحقوق- يحمل الإنسان على تقرير مبدأ حقوقى عظيم، ألا وهو تحقيق التوازن بين الحق والواجب، فمتى أدى الإنسان الواجب استحق الحق المترتب عليه، مع تقرير قاعدة (لا ضرر ولا ضرار)^(٢). ومن ثم فلا يمكن لأحد أن يعتدي على حقه الذي قرره له المولى عز وجل، أو أن يجرمه منه تحت أي مبرر. وإن ادعى المنتهكون للحق بأنه لا يوجد مطالب بهذا الحق، أو أن صاحبه قد تنازل عنه، فإن المشرع يطالبهم بتسليم الحقوق إلى أصحابها سواء طالبوا بها أم لم يطالبوا، كانوا على علم بها أم كانوا عنها غافلين، وبها جاهلين.

ويذهب الإسلام مذهبا بديعا في إقرار مبدأ حقوق الإنسان حينما جعل الله تعالى هو مصدر الحقوق وواهبها والمرجع فيها، ومن ثم فالإنسان لا يمكنه التنازل عن هذه الحقوق جملة وتفصيلا، لأنه لا يملكها ملكا حقيقيا، وإنما هو يملكها ملكا مجازيا. فالمالك الحقيقي هو الله تعالى وإنما الإنسان مستخلف فيها. ومن ثم فهو لا يملك التصرف فيها تصرفا مطلقا وإنما يتصرف في حدود ما يسمح به موكله صاحب الحق الأصلي وهو الله عز وجل.

يقول الله عز وجل ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

١- الأبعاد السياسية لمفهوم الحاكمية «رؤية معرفية»: هشام أحمد عوض جعفر، ص ٩٦، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، الولايات المتحدة الأمريكية ٦٦٤١هـ / ٥٩٩١م.

٢- أخرجه الإمام مالك في الموطأ عن عمرو بن يحيى عن أبيه مرسلًا.
وبين ابن نجيم (ت ٧٩٠هـ) أن هذا الحديث هو الأصل في القاعدة الفقهية: «الضرر يزال» مبينا أن كثيرا من الأبواب الفقهية قد ابتنت عليها. انظر «الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة النعمان»: زين العابدين بن إبراهيم بن نجيم، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، ص ٥٨ مؤسسة الحلبي، القاهرة، ٧٨٣١هـ / ٨٦٩١م. والأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ١١٩هـ)، ص ٥٩، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، بدون تاريخ.

قَدِيرٌ ﴿^(١)﴾ ويقول تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ﴿^(٢)﴾.

٤- توحيد الذات والصفات:

على خلاف ما نجده مبسوطاً في كتب علم الكلام والفلسفة من بحث في ذات الله وأسمائه، ومن اختلاف كبير حول الإثبات أو النفي، بغية تحقيق التنزيه وفق ما تصوره، فإن القرآن الكريم عمل على إجمال هذه القضية المشكلة في آية قصيرة جداً ألا وهي قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿^(٣)﴾ حيث جمعت حقيقة الذات والصفات في أمرين اثنين ألا وهما النفي والإثبات: فأثبتت لله تعالى صفات ونفت عنه أن تكون صفاته من جنس ما تملكه مخلوقاته. وبذلك حسمت الإشكال وقطعت دابر الفرقة والشقاق. ومن ثم يجب على المؤمن أن يثبت لله تعالى الصفات التي أثبتتها لنفسه وأن ينفي عنه أن تكون صفاته من جنس ما تملكه مخلوقاته. وهو توحيد يجمع بين النفي والإثبات^(٤)، فمن أخذ بأحد طريفي هذه الثنائية فقد حاد عن المنهج السليم في قضية الذات والصفات. فإذا كان مثبِتاً سَقَطَ في التجسيم والتشبيه، وإذا كان نافيّاً سَقَطَ في النفي والتعطيل، في الوقت الذي يقتضي فيه تنزيه الخالق سبحانه وتعالى نبذ التجسيم والتشبيه، والنفي والتعطيل، وذلك بالجمع بين طريفي الثنائية التي أقرتها الآية الكريمة سالفه الذكر.

غير أن الناس تنكبوا الطريق فخاضوا في أمور همّ غير مكلفين بالخوض فيها شرعاً، ولا يمكن أن يحقق لهم البحث فيها الوصول إلى الحقيقة،

١- سورة آل عمران، الآية ٩٨١.

٢- سورة البقرة، الآية ٠٢.

٣- سورة الشورى، الآية ١١.

٤- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٨٢٧ هـ): جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مج ٣، ص ٣/٤، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، بدون تاريخ.

بل منتهى ما يحصلونه الحيرة والشك. وهذا ما أثبتته تاريخ الفكر البشري، بله تاريخ علم الكلام والفلسفة عند المسلمين.

إن المنهج الأسلم والأحوط عند علماء الأمة هو ما صاغوه في قاعدة: «نمرها كما جاءت»^(١) ومعنى هذه القاعدة أن التعامل مع آيات الصفات يجب أن يحتكم إلى الآية الكريمة سالفة الذكر، بأن ثبت لله تعالى ما أثبتته لنفسه ونفي عنه ما نفاه عن نفسه، فليس هناك أعلم من الله تعالى بذاته وصفاته^(٢).

والجمع بين النفي والإثبات في مسألة الذات والصفات توجيه من الله تعالى للإنسان ليتفرغ للبحث في ما هو مؤهل للبحث فيه، ألا وهو عالم الشهادة باعتباره مناط التكليف، ومجال الاستخلاف. أما عالم الغيب فهو مطالب بالإيمان به بعد أن يقيم البرهان على صحته ليصبح يقيناً، وهذا عنصر مدعم للبحث العلمي حيث يتسع أفق النظر لديه لينتهي إلى نتيجة في غاية الأهمية وهي أنه ليس كل ما يدركه بحواسه موجوداً، ولا كل ما لا يدركه بحواسه غير موجود، وهذا يفتح أمام الإنسان آفاقاً رحبة للبحث وإعمال الفكر والنظر ما كان له ارتيادها - لوظل متمسكا

١- الفتاوى الكبرى: لابن تيمية، مج ٣١، ص ٤٩٢/٥٩٢.

ويقول مصطفى حلمي في كتابه قواعد المنهج السلفي: «تظهر أصول العقيدة لديهم - السلف الصالح - في الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه من غير زيادة ولا نقص، ولا تأويل لها بما يخالف ظاهرها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين، بل أمرها كما جاءت في كتاب الله تعالى، وأعلى لسان رسوله ﷺ وردوا علمها إلى قائلها»، ص ٦٦١، الطبعة الثانية، دار الدعوة، الإسكندرية ٥٠٤١هـ/٥٨٩١م.

وجاء في كتاب «مجملة اعتقاد السلف» لابن تيمية ما نصه: «يثبت - السلف الصالح - لله ما أثبتته لنفسه، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه»، مجموع فتاوى ابن تيمية، مج ٣، ص ٢.

ويقول ابن تيمية تكميلاً لما سلف: «فطريقتهم - السلف الصالح - تتضمن إثبات الأسماء والصفات، مع نفي مماثلة المخلوقات: إثباتاً بلا تشبيه، وتزويهاً بلا تعطيل، كما قال تعالى: «ليس كمثله شيء» وهو السميع البصير» عن كتاب مجموع فتاوى ابن تيمية، مج ٣، كتاب مجمل اعتقاد السلف، ص ٤.

٢- منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات: محمد الأمين الشنقيطي (ت ٣٩٣١ هـ)، ص ٣، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، د.ت.

بالمعرفة الحسية- ولما تجاوزَ الوثوقية واعترف بنسبية المعارف البشرية، وتلكم من أبرز أسباب التقدم العلمي.

هـ - الدليل القرآني:

يرشد الوحي الإنسان إلى وجود عالم الغيب ويدركه بالعقل، ومن ثم فهو مدعو إلى الإيمان به، والإيمان يقين واليقين علم والعلم عقل وتعقل. ولذلك أرشد الحق سبحانه العباد إلى إعمال العقل والنظر في النفس، أي البحث في الإنسان، وهوما سماه العلماء بدليل الأنفس، والبحث في الطبيعة، وهوما يصطلح عليه بدليل الآفاق، واتخاذ ذلك دليلا على صحة الإخبارات الغيبية ^(١)، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾﴾ ^(٢)، ففي هذه الآيات يبين الحق سبحانه وتعالى الدليل القرآني الذي يجب على الإنسان إعماله لإثبات وجود الله تعالى والمتمثل في دليل الأنفس والآفاق، اللذين سيقودانه إلى اكتشاف سنة الله تعالى في الخلق، أو ما يسمى اليوم بالقوانين الطبيعية والقوانين النفسية والاجتماعية والتاريخية.

إنه بعد أن يخلص إلى وحدة الخلق وروعة الإبداع وإحكام الصنعة سيدرك أن الحقيقة العلمية تطابق الحقيقة القرآنية، وسيعلم أن الذي صدقه في الغيب النسبي (عالم الشهادة) ما كان ليكذبه في الغيب المطلق (عالم الغيب). وبهذه الطريقة اكتشف الإنسان المسلم عن طريق الدليل القرآني القياس الذي يعتبر فتحا جديدا في المنهج العلمي. وهو مخالف للقياس الأرسطي لأن هذا الأخير «حركة فكرية ينتقل فيها العقل من حكم

١- نظرات في الاستدلال القرآني: عبد الستار فتح الله سعيد، ص ٢٢/٩١، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، الطبعة الأولى، القاهرة ٥٠٤١هـ/٤٨٩١م.

٢- سورة البقرة، الآية ١٢/٢٢.

كلي إلى أحكام جزئية، أو من حكم عام إلى خاص بواسطة الحد الثالث،
في حين نجد قياس المسلمين «ينتقل من حالة جزئية إلى حالة جزئية أخرى
- لوجود جامع بينهما - بواسطة تحقيق علمي دقيق»^(١).

ونظرة متأملة في الآيات السابقة تكشف أن الحق سبحانه ختمها
ب: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي فلا تتخذوا مع الله شركاء
في العبادة، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق، انطلاقاً من بحثكم في الطبيعة
والإنسان، لأن المنطق السليم يقتضي أنه جل جلاله إذا كان متفرداً بالخلق
فإنه يجب أن يكون متفرداً بالعبادة.

ويستفاد كذلك من الآيات البينات أن الإنسان مأمور بالإيمان بالغيب
لا البحث فيه لأنه غير مؤهل لذلك، لأن النسبي المحدود في الزمان
والمكان لا يمكن أن يحيط علماً بالمطلق المتعالي عن الزمان والمكان، قال
تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(٢).

وأرشدت الآيات البينات إلى أن الاستدلال على وجود الله تعالى يجب أن
يتم بالبحث في الإنسان والطبيعة، وقد أكد ذلك الرسول ﷺ، عندما بين
للأمة: «تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق فإنه لا يدرك إلا بتصديقه»^(٣)،

١- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: علي سامي النشار، الجزء الأول، ص ٠٤، دار المعارف، الطبعة
السابعة، القاهرة، ٧٧٩١.

٢- سورة البقرة، الآية ٣.

٣- مسند الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي البصري. تحقيق محمد إدريس وعاشور بن يوسف، باب
السنة في التعظيم لله تعالى، ص ٢٠٩، رقم الحديث ٨٢٣، دار الحكمة، بيروت ن ط ١، ١٤١٥ هـ. وقد
ورد هذا الحديث بروايات أخرى مختلفة اختلافاً بسيطاً منها: ما ذكره أحمد بن علي بن حجر
العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) في فتح الباري: (تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله) تحقيق محمد
فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب: ج ١٣/٢٨٢، دار المعرفة، بيروت، بدون طبعة، ١٢٧٩ هـ.
ومنها: (لا تفكروا في ذات الله): فيض القدير: عبد الرؤوف المناوي، ج ٢/٢٦٣، المكتبة التجارية،
مصر، ط ١/١٢٥٦ هـ. ومنها: عن عبد الله بن سلام (أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون،
فقال: ما لكم تتفكرون؟ فقالوا: نتفكر في خلق الله تعالى. فكذلك فافعلوا تفكروا في خلق
الله ولا تفكروا في الله): كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس:
إسماعيل بن محمد العجلوني (ت ١١٦٢ هـ) تحقيق محمد الفلاش، ج ١ / ٢٧١، رقم الحديث ١٠٥.

ذلك أن منتهى ما يصير إليه الباحث في عالم الغيب هو الحيرة والشك، لا الحقيقة. وتاريخ الفكر البشري يقوم دليلاً على ذلك، فعندما أطلق الإنسان العنان للعقل للخوض في العالم الميتافيزيقي لم يجن إلا الاختلاف والحيرة والشك، في حين أنه عندما أعمل عقله في العالم المادي أنجز إنجازات علمية وتكنولوجية هائلة في مدة وجيزة نسبياً.

إن الاهتداء بالدليل القرآني مكن الإنسان المسلم من تحقيق مقصدين:

١- عمارة الأرض: فعندما يبحث الإنسان في الطبيعة فإنه ينتج العلوم الطبيعية التي تمكنه من اكتشاف القوانين الطبيعية ومن ثم امتلاك القوى المذخورة فيها وتسخيرها لخدمة الإنسان، تحقيقاً لمبدأ الاستخلاف القائم على عمارة الأرض واستخراج ثمراتها والسعي فيها لإصلاحاً لا لإفساداً. أما البحث في الإنسان فيمكنه من إنتاج العلوم الإنسانية.

٢- تزكية الإيمان: إن البحث في الإنسان (دليل الأنفس) والبحث في الطبيعة (دليل الآفاق) يمكن الإنسان من إقامة الحجّة على صدق الإخبارات الغيبية، ومن ثم يصبح إيمانه مبنياً على العلم ومؤسساً على الحجّة والبرهان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١) مما يكون لديه حصانة ذاتية، من جهة، ويمكنه من التواصل مع الآخر وإقناعه بالحجّة والدليل من جهة أخرى.

وبذلك يقف الإنسان على حقيقة أساسية ألا وهي وحدة الخالق ثم وحدة الخلق ووحدة النظام والقوانين ووحدة المنشأ والمصير، ليصبح العقل والعلم مفاتيح لتحقيق إرادة الله في الخلق بعمارة الأرض وتحقيق الصلاح والنماء.

وقد عمل القرآن الكريم على تحرير الإنسان من آفة الغرور، ليعرف قيمته في الوجود. فإذا كان الكون المعروف لدينا اليوم يقدر اتساعه بخمسة عشر مليار سنة ضوئية، وإذا كانت كرتنا الأرضية، بالقياس إلى هذا الاتساع، هي

١- سورة البقرة، الآية ١١١.

بمثابة حبة رمل على شاطئ المحيط الأطلسي^(١)، وإذا كانت هذه الأرض على صغرها النسبي الشديد يعمرها ملايين الإنس والمخلوقات، فإن الإنسان لم يستطع اكتشاف أسرارها - هو فقط - ولا أحاط علما بنفسه لوحدها، فأنتى له أن يدعي الإحاطة بالكون المعروف بله الكون المجهول.

ومن هنا تتبين لنا الحكمة من قوله تعالى في آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾^(٢).

حيث قرَّب الله سبحانه وتعالى مسألة عظمته في آية الكرسي بالحديث عن الكرسي وليس عن عظمته بشكل مباشر، لأن الإنسان النسبي لا يمكن أن يحيط علما بالله المطلق المتعالي عن الزمان والمكان، كما ختمت الآية الكريمة بتقرير حقيقة عقديّة، وهي أن الله تعالى هو مصدر العلم والمعرفة، وأنه ينزلها بقدر، فهي وفق إرادته، ورهن مشيئته، يدبرها كيف شاء، ويكشف أسرارها لمن يشاء، ووقت ما يشاء.

١- ما نستطيع أن نعرفه عن حجم الكون مرتبط بوسائل مشاهدتنا، وطرق القياس، وتقع حدود الكون الذي تمكن رؤيته الآن ٥١ مليار سنة ضوئية، وهذا يعني أننا إذا أردنا أن نقيم خريطة للسماء حسب سلم صغير جدا، يكون القمر فيه على بعد مليمتر من الأرض، فإن هذه الخريطة تمتد حوالي ٠٠٥ مليار من الكيلومترات، ولكنها تحافظ على سلمها الزمني، مبدية حتما كواكب زالت منذ آمام سحيقة، ونجوما بصدد الولادة تعود إلى عدة ملايين خلت من السنين.

وإذا أردنا أن نتقرب مسألة اتساع الكون، ومقدار الأرض بالنسبة لهذا الاتساع المعلوم الآن، وذلك عن طريق تمثيل الكون المشهود والمنظور بحجم الأرض، فإن كامل مجرتنا تكون عبارة عن عدسة قطرها ٥٢ مترا فقط، وتكون المجرة المجاورة أندروميد على بعد ٠٠٧ متر من هناك، وفي مركز تلك العدسة يحتل النظام الشمسي حيزا قطره ٠,٥ ميكرون (أي أقل من جزء من ألف من الميلمتر)، وذرة الهيدروجين أعرض منها مائة مرة، وهكذا فإن المكان الذي نحتله في هذا الكون المغلق المبهم يبدوتافها جدا «Les dimensions de l' Univers. par Pierre Kohler; Science et vie. Dec 1981».

٢- سورة البقرة، الآية ٥٢

كما أن الإنسان المؤمن يقيم تعامله مع الطبيعة على أساس العبودية لله، والتسخير، لا على أساس القهر والتسلط: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَنِ اللَّهُ سَخَّرَ لَكُمْ مَآ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾^(١).

وبما أنه مخلوق مكلف فإنه مأمور بالأخذ بالأسباب، ونبذ التواكل، والتخلي بالإيجابية المنبغثة من أن الخلق خلق الله، وأن النتائج ليست مرتبطة حتما ولزاما بالأسباب، مما يدفعه إلى العمل والاجتهاد علما أنه مأجور أصاب أو أخطأ، مؤمنا بأن الوجود كله قضاء الله وقدره، فلا يكون أسير الواقع المتردي، ولا يقبل به على أساس أنه قضاء الله، بل ينزع إلى مواجهة قضاء الله الواقع بقضاء آخر أفضل منه، محققا القول المأثور: نفر من قضاء الله وقدره إلى قضاء الله وقدره.

وهناك أدلة أخرى نورد أهمها إجمالا مع الإحالة على التفاصيل والأدلة الأخرى في مظانها^(٢).

من هذه الأدلة العقلية الواردة في القرآن الكريم لإثبات وجود الله عز وجل نذكر ما يلي:

١- دليل الخلق والإيجاد: يقول الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٣).

٢- دليل الإحكام والإبداع: يقول الله عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ

١- سورة لقمان، الآية ٢٠.

٢- نظرات في الاستدلال القرآني عبد الستار فتح الله سعيد : ص ٨٢/٩١.

روح الدين الإسلامي : عفيف عبد الفتاح طيارة، ص ٣٨/٥٦، ط ٥١، دار العلم للملايين، بيروت، بدون تاريخ.

ونظام الإسلام: وهبة الزحيلي، ص ٥٧/٩٦، منشورات جامعة قاريونس، الطبعة الثانية، ليبيا ٨٩٣١هـ/ ١٧٩١م.

٣- سورة النحل، الآية ٧١.

لَفَسَدْنَا فَسَبِّحَنَّ اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١﴾.

٣- دليل نفي التعارض والتنازع : يقول تعالى : ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبِّحَنَّ اللَّهُ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (٢).

٤- دليل القهر والغلبة: يقول سبحانه: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ (٣).

٥- دليل الافتقار: يقول عز وجل: ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرًّا دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيئِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (٤).

٦ - دليل الفطرة: يقول سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (٥).

ونختتم هذا المبحث بالتأكيد على أمر مهم يجسد عالمية الرسالة الإسلامية، ذلك أن العقيدة هي الحد المشترك بين جميع الرسالات السماوية، من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ: ﴿ سَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (٦).

فالدين عند الله هو الإسلام وهو الفطرة التي فطر الناس عليها، ولا يقبل

١- سورة الأنبياء، الآية ٢٢.

٢- سورة المؤمنون، الآية ١٩.

٣- سورة الإسراء، الآية ٢٤.

٤- سورة الروم، الآية ٢٣.

٥- سورة الأعراف، الآية ٢٧١.

٦- سورة الشورى، الآية ٣١.

منهم غيره من الممل والنحل: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(١)، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾^(٢)، وذلك تحقيقاً للمفهوم العام للإسلام.

- فوائد التوحيد وأبعاده الإنسانية:

إن الإسلام هودين الإنسانية بامتياز، ويتبين ذلك ابتداء من العقيدة وانتهاء بالأخلاق والسلوك ومرورا بالعبادات والمعاملات، والعقيدة الإسلامية تجلي هذا الأمر وتبرزه في كل مباحثها، فإذا نظرنا إلى التوحيد وجدناه يقصد إلى تحقيق مصالح الإنسان الآنية والآجلة. فكمال الإيمان يقتضي قبول أعمال المؤمن باعتبارها خالصة لوجه الله تعالى، كما أن له مقصداً أخروبياً عظيماً إذ بقبول الأعمال يمن الله تعالى على عباده بالنتعم الأبدي في الجنان، ويحمل الأمر في طياته منافع دنيوية آنية أيضاً إذ الإخلاص في الفكر والقول والعمل هو المدخل الأساس للجودة والإتقان، والسعي الحثيث لتنمية الموارد الطبيعية، وتوظيف الطاقات التي منحنا الله إياها أفضل توظيف تحقيقاً لمبدأ الاستخلاف عن الله تعالى في الأرض، والسعي في الأرض إصلاحاً وعمارة.

كما أن للتوحيد فوائد أخرى وأبعادا إنسانية نجملها في ما يلي:

- الحرية: عندما يعتقد الإنسان أن الله تعالى متفرد بالخلق وبالعبادة فإنه يكون قد أقر مبدأ الحرية، فالعبودية الخالصة لله تعالى مفادها تخليص الإنسان من كل أشكال العبودية ليصبح عبداً خالصاً لله تعالى. والتوحيد يمنح الإنسان الحرية الحقيقية، الحرية بمعنى المسؤولية والتحرر من جميع أشكال القهر، والإذلال. وهو الذي يعمل على صيانة حرمة الإنسان وكرامته.
- المساواة: إذا كان الله تعالى متفرداً بالخلق ومتفرداً بالعبودية وجميع

١- سورة آل عمران، الآية ٩١.

٢- سورة آل عمران، الآية ٥٨.

المخلوقات تتخبط في سلك العبودية له سبحانه اختياراً أوقهراً، فإن هذه العقيدة تجسد مبدأ المساواة، إذ جميع الخلق عيال الله وهم جميعاً مفتقرون إليه ولا يملكون لأنفسهم بله لغيرهم ضراً ولا نفعاً. ويترتب على ذلك إيمان جازم بالمساواة... فكل الناس سواسية، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لشريف على وضيع، ولا لغني على فقير إلا بالتقوى أي بالقرب من الله تعالى والأثمار بأمره والانتهاه عما نهى عنه.

- انفتاح آفاق التفكير والتدبير: عندما يؤمن الإنسان بالغيب يدرك أن الكون أكبر من أن يتمثله بحواسه، ومن ثم فلا بد من البحث عن مصادر أخرى للمعرفة تمكنه من الاطلاع على خبايا خلق الله، ولولا عقيدة التوحيد لظل الإنسان أسير الحواس. وإذا كان العلم يثبت اليوم بدون موارد قصور الحواس عن إدراك الكون، فإن المسلم قد تعلم من التوحيد وجود عوالم وحقائق لا يمكن إدراكها بالحواس ويقدم له الوحي كمصدر للمعرفة، والعقل والوجدان كأدوات لإدراك المعارف.
- استعلاء الإيمان: عندما يعتقد الإنسان أن الله تعالى هو المتفرد بالخلق والرزق وأن الجميع مفتقر لما عند الله، فإن ذلك يورث في قلبه اليقين بالأحد من الخلق يملك له نفعاً أو ضراً إلا أن يشاء الله. وهذا يجعله يستشعر الكرامة والعزة والعفة.

المبحث الثاني البعد التشريعي

أ- العقيدة والتشريع:

يرتبط التشريع في المنظومة الإسلامية بتوحيد الحاكمية، فالله تعالى هو الذي خلق الخلائق وهو الأعلّم بما يكون صلاحها، ومن ثم شرع الله عز وجل الشرائع المحققة لهذا الصلاح في الحال والصلاح في المآل. ومن ثم فإن التشريع - بمعنى وضع الأحكام وما يطرأ عليها من تقييد وتخصيص وبيان للمجمل - لم يكن موجوداً إلا في حياة الرسول ﷺ باعتباره مبلغاً عن ربه ومبيناً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(١). فالله تعالى سن الأحكام وأنشأها في حياة الرسول ﷺ ولم يجعل لأحد غير نبيه سلطة التشريع.

وقد كانت مصادر التشريع ممثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية باعتبارها وحياً غير متلو: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٢) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٢)، أما اجتهاده، فإن مرده إلى الوحي، لأنه لا يُقر على باطل ولا يُقر على باطل، ومن ثم فإن إقراره على اجتهاده وتصويبه منزل منزلة الوحي.

أما الاجتهاد والاستنباط بعد الرسول ﷺ فليس تشريعاً بقدر ما هو فهم للكتاب والسنة، وإظهاراً لحكم غير منصوص عليه استناداً إلى دليل من الأدلة المعتبرة كالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة. لذلك لا يجوز أن نطلق على المجتهد مشرعاً بل هو فقيه وظيفته التفسير والاستنباط، ولا يدخل في دائرة اختصاصه إنشاء الأحكام والقوانين لأنه لا يملك الحرية المطلقة لوضع الأحكام وإغائها أو تعديلها، بل هو مقيد بالقواعد العامة

١- سورة المائدة، الآية ٧٦.

٢- سورة النجم، الآية ٤/٣.

والمبادئ الكلية للشريعة الإسلامية والأصول الشرعية التي ورد بها الكتاب والسنة النبوية.

ب- مقاصد الشريعة: يراعي الإسلام في تشريعاته تحقيق المصالح ودفع المفاسد، بغية إقامة مجتمع فاضل تسوده الرحمة والمودة والعدالة والتسامح والارتقاء بالإنسان إلى مستوى الإحسان، لينشئ مجتمع المحبة والتكافل.

وتحقيق الصلاح ودفع الفساد غاية متحققة وثابتة في كل الأحكام الشرعية وهي عامة وليست خاصة، وقد تضافرت النصوص من القرآن والسنة على اعتبارها، وقد أجملها العلماء في المحافظة على الدين والنفس والنسل والعقل والمال^(١).

والملاحظ أن هذه المقاصد الخمسة للشريعة الإسلامية مرتبطة بثلاث قضايا، اثنتان منها موضوعيتان والثالثة منهجية :

أ- مقومات الحياة الإنسانية الرفيعة والكرامة الإنسانية والرفاهية والسعادة التي لا يمكن أن تتحقق إلا بمراعاتها.

ب- هذه المقاصد الخمسة تهدف إلى حماية الحقوق الأساسية للإنسان، وتحقيق الكرامة التي أرادها الله تعالى لبني آدم.

ج- ترتبط هذه المقاصد بقضية الاجتهاد، فعملية تنزيل النص على الواقع تقتضي أن يكون الحكم في القضايا التي استجدت ولم تف النصوص بأحكامها موافقا للنص- وهذا أضيق أوجه الاجتهاد - أو أن يكون الحكم غير متعارض مع النص- وهو أوسع من الأول - أو أن يكون الحكم موافقا لمقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية - وهو أوسع أوجه الاجتهاد - حيث تكون أمام المجتهد فسحة أكبر لإعمال الفكر والنظر.

١- الاجتهاد المقاصدي: حجيته، ضوابطه، مجالاته: نور الدين بن مختار الخادمي، ص ٣٥، كتاب الأمة، عدد ٥٦، الطبعة الأولى، منشورات الفرقان، الدار البيضاء ٩١٤١ هـ / ٨٩٩١ م.

ت- خصائص التشريع الإسلامي:

يمتاز التشريع الإسلامي بالخصائص التالية:

- ربانية المصدر: فهوتشريع إلهي واضعه ومنشئه هو الله عز وجل. وهذا قمين بتحقيق العدالة لأن المشرع الحكيم ليس موضوعا للتشريع ولا طرفا فيه فهو سبحانه متعال عن كل ذلك، مما يدفع شبهة التحيز والانحياز^(١).

- الدوام والثبات: أثبت الله تعالى قواعد التشريع الإسلامي على سبيل الدوام لتنظيم المجتمع، لذلك فهي لا تقبل التبدل أو التغيير وهي صالحة لكل زمان ومكان.

- الكمال والسمو: استكملت الشريعة الإسلامية كل ما تحتاجه من قواعد ومبادئ ونظريات، ففي حياة الرسول ﷺ وضعت القواعد الكلية وأنشئت الأحكام، ولم ينتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن اكتمل بناء الشريعة الإسلامية مصداقا لقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢).

ومن يوم نزول التشريع الإسلامي جاء محققا للمبادئ الإنسانية السامية الكبرى ألا وهي: الحرية والعدالة والمساواة والإنسانية والأخوة والإحسان وهو مستوى فوق العدل إذ هوالتنازل عن بعض الحقوق حبا وكرامة وتفضلا وتيسيرا للحياة وتحقيقا للسعادة.

وبذلك تكون الشريعة الإسلامية أسمى من مستوى الجماعة إذ تعمل على رفيتها وتقدمها فضلا في الوقائع وتوجيها لما يحقق صلاح الجماعة في الحال وفلاحها في المال^(٤).

١- خصائص الإسلام: يوسف القرضاوي، ص ٤٤ وما بعدها، دار المعرفة، الدار البيضاء، بدون طبعة، ٢٠٩١م.

٢- سورة المائدة، الآية ٣.

٣- التشريع الجنائي الإسلامي مقارنة بالقانون الوضعي: عبد القادر عودة: دار التراث، القاهرة، ٧٧٩١.

٤- المرجع نفسه: ج ١، ص ٤٢.

- المرونة : إن الله تعالى جعل التشريع مواكبا لأحوال الناس موازنا بين الثابت والمتحول في حياتهم لعلمه سبحانه وتعالى بكل ذلك، فجاءت أغلب الأحكام عامة وقليلة ممثلة في القواعد العامة الكلية والمبادئ والأصول، كالمعاملات مثلا، خاصة ما يتعلق بالقوانين المدنية والتجارية والدستورية والإدارية^(١).

أما الأحكام التي جاءت مفصلة في أمور ثابتة لا تقبل التغيير والتبديل فهي قليلة كالعبادات والمواريث وجل القضايا المتعلقة بفقهاء الأسرة.

وقد قرر العلماء، بناء على ما سبق، قاعدتين، تتمان عن فهم كبير للتشريع الإسلامي، بل إدراك عميق لفلسفته وفتح مجال الاجتهاد ومواكبة للتطورات التي تعرفها الحياة البشرية، وهما :

أ- النصوص متناهية والوقائع غير متناهية.

ب- تغير الأحكام بتغير الأزمان.

وقد انتهى بهم الأمر إلى الخلوص إلى النتيجة التي يؤكدنها واقع التشريع الإسلامي، وهي أن مبادئه ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، وأحكام الفقه متجددة متغيرة.

- **قلة الأحكام:** إن آيات الأحكام قليلة إذ لا تتجاوز عند ابن القيم (ت ٧٥١هـ) مائة وخمسين آية، وذكر الحجوي الثعالبي (ت ١٣٧٦ هـ) في كتابه «الفكر السامي» أن ابن العربي (ت ٥٤٣ هـ) استنبط الأحكام الفقهية من ثمانمائة وأربع وستين آية مفرقة في سور القرآن الكريم، وذهب عبد الوهاب خلاف إلى التفصيل قائلًا إن عدد آيات الأحكام المتعلقة بالعبادات والجهاد أربعون ومائة آية، ويبلغ عدد الآيات المتعلقة بالمعاملات والأحوال الشخصية والجنایات والقضاء والشهادة نحو مائتي آية، ونجد عند إمام الأزهر الشيخ

١- الفقه الإسلامي مرونته وتطوره: جاد الحق علي جاد الحق، ص ٣٠١، سلسلة قضايا إسلامية معاصرة، الأزهر الشريف، القاهرة، ٧٨٩١م.

جاد الحق عي جاد الحق تفصيلا أكثر هو كالتالي:

- العبادات: أربعون ومائة آية.
- نظام الأسرة: سبعون آية.
- المعاملات: سبعون آية.
- العقوبات الجنائية: ثلاثون آية.
- القضاء والشهادة: عشرون آية.

وبذلك تكون مجموع آيات الأحكام عنده ثلاثون وثلاثمائة آية.

ومن ثم فإن قلة النصوص دليل على التيسير والقدرة على التكيف مع الأوضاع التي تستجد، مما يؤكد صلاحية التشريع الإسلامي لكل زمان ومكان^(١).

- واقعية التشريع: يقوم التشريع الإسلامي على أساس الواقع، فكلما وقعت حادثة تتطلب حكماً أو اختلف الصحابة في نازلة من النوازل أو صدر من بعضهم ما لا يعرفون حكمه، لجؤوا إلى الرسول ﷺ يسألونه البيان. فإذا لم يكن عنده حكمٌ تطلع إلى السماء فأتاه الوحي تارة بآية أو آيات من القرآن فيها جواب عما سأله، وطورا ينزل عليه الوحي بغير القرآن مبينا له الجواب تاركا له التعبير عن المراد وهو ما يعرف بالسنة التي تشمل قول الرسول ﷺ وفعله وإقراره.

وارتباط التشريع الإسلامي بالواقع جعله مناسبا لطبيعة الإنسان محققا لمصلحته كفرد وأسرة ودولة ودول في حالة السلم والحرب^(٢).

- التدرج في التشريع: من خصائص التشريع الإسلامي أنه جاء متدرجا مع الزمن والأحوال، فلم ينزل دفعة واحدة كما هو معهود في التشريعات السماوية السابقة، أو كما هو معروف في التشريعات الوضعية. لذلك كان

١- الفقه الإسلامي مرونته وتطوره: جاد الحق علي جاد الحق، ص ٢١ / ٥٣١.

٢- واقعية المنهج القرآني: توفيق محمد سبع، ص ٥٤٢ وما بعدها، الهيئة العامة، القاهرة، ٢٧٩١م.

موافقا لطبيعة البشر لم يحملهم على إحداث طفرة في واقعهم الحياتي، وإنما انتقل بهم، لحكمة ربانية، من وضع لا يرضي الله تعالى مُضِرّاً بمصلحة الإنسان إلى وضع يرضاه الحق سبحانه محققاً لمصلحته وذلك كله بتدرج من التشريع الأخف إلى التشريع النهائي عبر وسائل. مما سهل على الإنسان الانتقال من وضع لا يقره الإسلام إلى وضع يقره انتقالاً سلساً وعلى أسس ثابتة من العلم واليقين بأن حكم الله تعالى هومنتهى الحكمة والعلم. فالإنسان يثق في من يعتقد فيه العلم والقدرة، لذلك فالتزامه الشرع الإسلامي إيماناً بصفات كمال الله تعالى.

كما تقوم خاصية التدرج دليلاً قوياً على أن التشريع من عند الله تعالى لأنه وحده أعلم بالفطرة التي فطر الناس عليها، ومن ثم شرع لهم تشريعاً ملائماً لفطرتهم تقبله أنفسهم ليسره وقابليته للتحقيق من جهة، ولتأكدهم من أنه يحقق صلاحهم في الحال، وفلاحهم في المآل بناء على الواقع الذي لا يرتفع، واعتماد قياس الغائب على الشاهد.

- الشمولية والعالمية: لم يترك التشريع الإسلامي مجالاً من مجالات الحياة لم يشرع له، ففيه تشريع للفرد والأسرة والدولة والدول في حالة السلم والحرب، وفيه تشريع للحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، يقول تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١)، ومن ثم يصح القول إن التشريع الإسلامي تشريع للإنسانية بامتياز في كل زمان ومكان مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢). فالتشريع الإسلامي ليس مقصوراً على إقليم أو بلد أو قبيلة أو شعب، وإنما هو شرع الله للناس كافة^(٣).

١- سورة الأحزاب، الآية ٠٤.

٢- سورة الأنبياء، الآية ٧٠١.

٣- الفقه الإسلامي مرونته وتطوره: جاد الحق علي جاد الحق، ص ٢٢١.

- الوسطية والرحمة : التشريع الإسلامي تشريع التيسير والتخفيف ورفع الحرج، يقول سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، ومن ثم جنح التشريع الإسلامي إلى رفع التكليف والإثم في الخطايا والنسيان، وتجاوز عن الصغير والمجنون والنائم وقدّر الضرورات ورعى الحاجات وأجاز الرخص.

ولرفع الحرج أدلة ثلاثة :

١- القرآن الكريم: من ذلك قوله جلا جلاله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١).

٢- السنة النبوية: يقول ﷺ: (إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة)^(٢).

٣- مناهج الصحابة والتابعين: حيث كانوا أبعد الناس عن التكلف وأشدهم مقاومة للتشدد والتشدد^(٣).

والتشريع العقابي الإسلامي هو الآخر من أكبر مظاهر الرحمة في التشريع الإسلامي، رغم ما أثير حوله من تشكيك من طرف بعض الذين لم ينظروا للإسلام كمنظومة متكاملة لا يمكن تجزئتها، وإلا ضاعت منا حقيقتها ونأت عنا أهدافها ومقاصدها، ذلك أن التشريع العقابي في الإسلام جاء لحماية المصالح الضرورية للتعايش الاجتماعي والمصالح المعنوية للمجتمع

١- سورة المائدة، الآية ٦.

٢- صحيح البخاري : محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري (ت ٦٥٢ هـ)، تحقيق مصطفى البغا : كتاب الإيمان، باب الدين يسر. ج ١ / ٣٢، رقم الحديث ٩٣، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة، ٧٠٤١ هـ.

٣- رفع الحرج في الشريعة الإسلامية ضوابطه وتطبيقاته: صالح بن عبد الله بن حميد، ص ٢٩/٩٥، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى، مكة المكرمة ٢٠٤١ هـ.

بهدف إخراج مجتمع فاضل ومتكامل وتحقيق سلم اجتماعي.

إن التشريع العقابي الإسلامي في ظاهره عقاب وفي باطنه تطهير، ومن ثم وجدنا المذنبين يبادرون إلى تطهير أنفسهم مما لحقهم من آثام موجبة لإقامة الحد بشكل طوعي، وما حادث ما عزر والغامدية ببعيد.

مبادئ التشريع الإسلامي:

يستند التشريع الإسلامي إلى مبادئ ثلاثة أساسية:

- لا تكليف بدون رسالة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١).
- مبدأ المساواة في الواجبات والحقوق بالنسبة لجميع أفراد المجتمع، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٢).
- مبدأ العدل بين الناس بغض النظر عن دينهم أو جنسهم أو انتماءاتهم الإيديولوجية والسياسية أو قرابتهم، يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾^(٣).

١- سورة الإسراء، الآية ٥١.

٢- سورة الحجرات، الآية ٣١.

٣- سورة النساء، الآية ٨٥.

المبحث الثالث البعد الأخلاقي

١- الإنسان في التصور الإسلامي:

تتميز الأخلاق الإسلامية بالتصور الفلسفي الذي تقوم عليه وبالغاية التي تهدف إلى تحقيقها، فمن حيث الفلسفة تنقسم الحقيقة إلى ثلاثة أقسام: حقيقة روحية، وحقيقة مادية، وحقيقة روحية ومادية.

والإنسان من النوع الثالث، فحقيقته مادة وروح، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾^(٢) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ^(٣) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ^(٤). فالله تعالى خلق الإنسان ليكون محور مخلوقاته كلها من حيث الرتبة والأهمية: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(٥)، ومظاهر تكريم الإنسان متعددة تتجلى في هيئته، وفي فطرته التي تجمع بين الطين والنفخة الإلهية، وفي استعداداته التي أودعها فيه وجعله فذا على الخلائق واستأهل بها خلافة الأرض، وفي تسخير القوى الكونية له، وفي الاستقبال الضخم الذي استقبله به الوجود وسجود الملائكة له وإعلان الخالق جل شأنه هذا التكريم، وفي حمله في البر والبحر وتسخير النواميس له، وفي تفضيله على كثير من خلقه بهذا الاستخلاف في الأرض، وفي جعله قيماً على نفسه متحملاً تبعه اتجاهه وعمله، وهذه

١- سورة الحجر، الآية ٩٢.

سورة ص، الآية ٢٧.

٢- سورة السجدة، الآيات ٧/٩.

٣- سورة الإسراء، الآية ٠٧.

الصفة هي التي تجعل للإنسان حرية الاتجاه وفردية التبعية^(١).

كما جعل الله سبحانه وتعالى الغاية من خلق الإنسان أن يكون مُظهراً لحكمته وعظمته وعدالته في الأرض بما يلتزم من مبدأ العبودية لله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(٢).

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم بغية تحديد مفهوم الإنسان تبين لنا أنه مخلوق على غير مثال من صلصال من حمأ مسنون، يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾^(٣)، ويقول: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾^(٤). ثم نفخ فيه الله سبحانه وتعالى من روحه، يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾^(٥).

فالإنسان مادة وروح وعقل وغرائز، وهو أعظم عند الله تعالى من الملائكة إذا حقق إنسانيته وهو قريب من الشيطان إذا تكب الصراط المستقيم^(٦).

ويعرف القرآن الكريم الإنسان بـ «خاصية دوره ومجال تميزه». فقد عرفه

١- أبحاث ندوة علم النفس: بحث الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود « نحو دستور عمل لعلماء النفس المسلمين، ص ٩٨، الطبعة الأولى، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢١٤١ هـ / ٢٩٩١ م.

٢- سورة البقرة، الآية ٠٣.

«فسر العلماء الخلافة بتمثل الدين، والحفاظ عليه، ونشره جيلاً بعد جيل» حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم: أبو اليزيد العجمي، ص ٧١، سلسلة دعوة الحق، الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي، السنة الثالثة، العدد ٢٢، مكة المكرمة، ٤٠٤١ هـ / ٣٨٩١ م.

٣- سورة الحجر، الآية ٦٢.

٤- سورة الرحمن، الآية ٤١.

٥- سورة الحجر، الآية ٩٢.

سورة ص، الآية ٢٧.

٦- دراسات في النفس الإنسانية: محمد قطب، ص ٤٣، الطبعة السادسة، دار الشروق، بيروت، ٣٠٤١ هـ / ٢٨٩١ م.

بأنه الكائن المكلف كما يفهم من آياته العديدة التي تخاطب العقل بكل ملكة من ملكاته وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعلون. وإذا كان للمناطق أن يعرفوا الإنسان - مقدرين مزاياه العقلية - بأنه حيوان ناطق، أوجاز للاجتماعيين أن يعرفوه - مؤكدين على جانب علاقاته الاجتماعية - بأنه حيوان مدني بالطبع، فإنه يمكن تعريف الإنسان من وجهة نظر الشريعة بأنه الكائن المكلف، لأنه من بين سائر المخلوقات التي تعيش على وجه الأرض مناط التكليف والمسؤولية»^(١).

يقول سبحانه وتعالى مقروا هذه الحقيقة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(٢).

والإنسان هو الخليفة المنتدب لعمارة الأرض سُخر له كل شيء فيها حتى يؤدي مهمته بإخلاص وتفان، كما أنه سبحانه خلق الشعوب والقبائل لتتعارف وتتعاون، يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٣).

ودور الإنسان في الحياة إقامة العبودية لله تعالى في كافة مجالات الحياة بأن يعبد الحياة - كل الحياة - لله رب العالمين، يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٤). والإنسان ضعيف ما لم يتداركه الله تعالى بقوته، كما أشار الحق سبحانه إلى أن من طبائعه النسيان، يقول سبحانه: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لُهُمَا سَوْءُ تُوهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ

١- حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم: أبو اليزيد العجمي، ص ٦١.

٢- سورة الأحزاب، الآية ٢٧.

٣- سورة الحجرات، الآية ٣١.

٤- سورة الذاريات، الآيات ٦٥ / ٨٥.

وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمَ رَبَّهُ، فَغَوَىٰ ﴿١٣١﴾ ثُمَّ أَجْبَنَهُ رَبُّهُ، فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١﴾ .
 وبين الرسول ﷺ أن الإنسان من شأنه الخطأ نتيجة النسيان والغفلة، وأن ذلك لا ينبغي أن يقوم حائلاً بينه وبين مولاه سبحانه وتعالى، بل يجب عليه أن يتخذ ذلك سلماً يرتقيه للعروج إلى مولاه، يقول ﷺ: (لولا أنكم تذنبون لذهب الله بكم وأتى بأقوام يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم) (٢).

فأصل الإنسان النقص لكن بمقدوره تحقيق بعض درجات الكمال، يقول تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَفَّسْ أَلْمُنْفِسُونَ﴾ (٣).

٢- تعريف الأخلاق:

الأخلاق جمع خلق وخلق، وتعني في اللغة الطباع والعادات وكذلك الدين والمروءة، وما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب لأنه يصير كالخلقة فيه.

ويعتبر الحكماء وعلماء الأخلاق الخلق صفة ثابتة أو هو الحالة الراسخة في النفس التي تشكل العامل الأساس للممارسات الحسنة والسيئة، فالخلق هو الملكة التي تصدر عنها الأفعال الخيرة والشريرة.

ومن ثم، فالأخلاق هي جميع الأفعال الصادرة عن النفس محمودة كانت أو مذمومة، فنقول فلان كريم الأخلاق أو سيء الأخلاق (٤). ويسمى علم الأخلاق بعلم السلوك أو تهذيب الأخلاق أو فلسفة الأخلاق أو الحكمة العملية أو الحكمة الخلقية. وغايتها معرفة الفضائل وكيفية اقتنائها لتزكوبها النفس ومعرفة الرذائل لتتنزه عنها.

ولمعرفة ما يجب على الإنسان فعله لبلوغ السعادة تكلم الفلاسفة عن

١- سورة طه، الآيات ٢١ / ٢٢١.

٢- التمهيد: أبوعمريوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري (ت ٣٦٤هـ)، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، ج ٧١ / ٠٢، وزارة الأوقاف، المغرب، بدون طبعة، ٧٨٣١هـ.

٣- سورة المطففين، الآية ٦٢.

٤- المعجم الفلسفي: جميل صليبا، ج ١، ص ٩٤، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٧٩١ م.

طبيعة الوجدان والضمير وطبيعة الخير والعدل، والواجب والمحبة وبنوا جميع المفاهيم الخلقية التي تصوروها على الأسس المستمدة من مبادئهم الفلسفية العامة^(١).

وخلاصة القول إن الأخلاق هي المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني على كافة مستويات الحياة.

٣- الأخلاق الإسلامية:

يضم مبحث القيم المجالات الثلاثة المعروفة وهي : الحق والخير والجمال، ويعتبر البعد القيمي الأساس الذي قام عليه الإسلام، شأنه في ذلك شأن كل الرسالات السماوية، ومن ثم فهو منظومة تغيير تنشُد الكمال وتدل على طرق إدراكه وليس منظومة تفسير وكشف.

ويقيم الإسلام الحياة على الأخلاق الفاضلة، ذلك أن المجتمع الإسلامي مجتمع فاضل، والمسلمون - الذين يتمثلون الإسلام حقاً - هم الذين تكون لهم أخلاق فاضلة في كل مجالات الحياة : الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

وقد امتدح الحق سبحانه الرسول ﷺ بالخلق الكريم، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلِقْتَ عَظِيمًا﴾^(٢) مبينا أهمية الأخلاق في الحياة، ولذلك كان الرسول ﷺ القدوة والقمة السامقة في الأخلاق. كما بين الرسول ﷺ وظيفته عندما قال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)^(٣).

وقد ارتبطت جوانب الإسلام برباط أخلاقي بغية تحقيق مقاصده في التوحيد والتركية والعمران، مما يؤكد أن الأخلاق هي روح الإسلام، وأن

١- المرجع السابق : ج ١، ص ٥٠٥.

٢- سورة القلم، الآية ٤.

٣- مسند الشهاب : محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القاضي (ت ٤٥٤هـ) تحقيق محمد عبد المجيد السلفي،

ج ٢ / ٢٩١، مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون طبعة، ٧٠٤١هـ / ٦٨٩١ م.

النظام التشريعي ما هو الا كيان مجسد لهذه الروح الأخلاقية.

والإسلام لا ينظر إلى الأخلاق على أنها قيم شكلية مثالية، بل ينظر إليها على أنها ضرورة حياتية لا يمكن للإنسان أن يحقق وجوده الإنساني بدونها، كما أن سعادته الدنيوية مرتبطة بها، ذلك أن إشباع حاجاته وتحقيق مجتمعه الرفاه مرتبط بالأخلاق ارتباطاً وثيقاً. ويتأكد الأمر اليوم أكثر من أي وقت مضى حيث المنافسة على أشدها والحضور في الساحة الدولية أصبح مرتبطاً بأمرين: وفرة الإنتاج والجودة. ولا يمكن تحقيق هذين الأمرين إلا إذا كنا نتحلى بالإخلاص في الفكر والقول والعمل، وهو سر الإيمان الكامل الذي يجعلنا نتخلق بالصدق في الأداء وهو السبيل إلى تحقيق الجودة والإتقان ووفرة العطاء.

ونخلص مما سبق إلى أن الأخلاق في نظر الإسلام هي « المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني التي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان، وتحديد علاقته بغيره على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه»^(١).

٤- أهداف التربية الخلقية:

تهدف التربية الخلقية في الإسلام إلى تحقيق أهداف تتلخص في إصلاح السريرة والعلانية، والرقابة الداخلية، وتقوية الإرادة، وترشيد السلوك والعمل على ترقيته، وغرس الأخلاق الكريمة، والشعور بالمسؤولية والعمل على تقويتها ودعمها، وتعويد الإنسان على المعاملة الحسنة، وتكوين المجتمع الفاضل^(٢). ومن ثم فهي تربية مقاصدية ذات أبعاد استراتيجية.

١- التربية الأخلاقية: مقدار بالجن، ص ٥٧. الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، القاهرة ٧٩٢١ هـ / ١٩٧٩ م.

٢- المرجع نفسه، ص ١٦٧/٠٦٧.

٥- خصائص الأخلاق الإسلامية:

يتميز النظام الأخلاقي الإسلامي بكونه إلهياً من حيث المصدر إنسانياً من حيث الموضوع والمقصد، كما يتميز بالشمول والضرورة والتدرج والتوازن والاعتدال والواقعية والتنظير إلى جانب التطبيق^(١).

٦- وسائل الأخلاق:

ابتكر الإسلام طرقاً متعددة لغرس الأخلاق في النفوس، بحيث تصبح اقتناعاً لدى الفرد والجماعة، ويكون الحامل على تمثيلها في كل مجالات الحياة هو الاقتناع بأهميتها وجدواها. كما أن الرقيب الأساس على حفظها وصيانتها هو الوازع الديني الذي تتولد عنه الرقابة الداخلية المنبعثة من ذات الفرد والجماعة، مما يعطي ضماناً أكبر لحضورها وتحقيقها في كل مجالات الحياة. ويمكن إجمال هذه الوسائل في الوعظ والإرشاد، والتذكير والنصح، والقصص، والترغيب والترهيب، والقُدوة الحسنة، والعبادة، وضرب الأمثال، والتوبة والمغفرة^(٢).

وبهذه الوسائل التربوية تغرس تعاليم الإسلام في نفس المؤمن الفضائل والصفات الحميدة، وتقوي فيه الوازع الديني، وتحمله المسؤولية تجاه ربه تعالى ونفسه وأقاربه والناس أجمعين وكل من يشاركه الحياة من حيوان ونبات وجماد^(٣).

كما تعمل على تنشئة الفرد على الأخلاق المحمودة وتنمية شخصيته وصلتها وفق معايير هذه الأخلاق وقواعدها حتى يصبح ما يصدر عنه من

١- أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية: عبد الحميد الصيد الزناتي، ص ٠٤٧ / ٧٤٧، الدار العربية للكتاب، ليبيا. تونس ٤٨٩١م.

النظرية الاجتماعية في الفكر الإسلامي: زينب رضوان، ص ٦٩١/٦٩١، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة ٢٨٩١ م.

٢- أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية: ص ٧٤٧/٠٦٧.

٣- المرجع السابق، ص ٠٧٦.

أقوال وأفعال وتصرفات وسلوك ومواقف واتجاهات مطابقا لمعايير الأخلاق المحمودة وترجمانا حيا لمعانيها السامية^(١). وتعمل الأخلاق الإسلامية على إنقاذ المادة من الانهيار وانتشالها من العدم، والارتقاء بها إلى درجة مكنة من الوجود. كما أن الأخلاق في التصور الإسلامي التزام ومسؤولية وتداول، فالدين المعاملة.

٧- البناء الأخلاقي في القرآن الكريم: الأسس والمقومات :

إذا تتبعنا البناء الأخلاقي في القرآن الكريم بغية رصد ومحاولة استخلاص أسسه ومقوماته سنخلص إلى النتائج التالية :

- عدد آيات الأخلاق كبير جدا بالقياس إلى آيات الأحكام : حيث بلغ عددها أربعاً وخمسمائة وألف آية موزعة في مختلف سور القرآن الكريم مكِّيّه ومدنيّه سفرِيّه وحضريّه طويله وقصيره، مما يبين أهمية الأخلاق في المنظومة الإسلامية، ويجعلنا نتمكن من فهم الحصر الوارد في الحديث النبوي الشريف: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)^(٢).

- أسبقية التربية على العلم : فلا علم بدون أخلاق، بل قد يكون وبالاً على صاحبه والناس أجمعين، ولذلك تمت الإشادة الربانية بخلق الرسول ﷺ حتى يكون قدوة في ذلك، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٣).

- العلم خلق العقل: فالعقل هوخير قائد للإنسان إلى الفضائل وأمنع عاصم له من الرذائل، شريطة أن يتصف بالعلم، يقول الله عز وجل: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(٤).

- ارتباط العبادات بالأخلاق ارتباطاً وثيقاً : فالمتأمل في التكاليف الشرعية

١- المرجع نفسه، ص ٨٦.

٢- سبق تخريجه في ص ٣٤.

٣- سورة القلم، الآية ٤.

٤- سورة المجادلة، الآية ١١.

يجد أنها وسائل لتحقيق غايات، فالصلاة والصوم والزكاة والحج كلها وسائل للخلق بمكارم الأخلاق، والجمع بين كمال الصفات الباطنية والظاهرة. فالصلاة وسيلة والغاية أن ينتهي الإنسان عن الفحشاء والمنكر، فمن لم تنهه صلواته عن ذلك فقد قصرت به الوسيلة عن بلوغ الغاية، يقول الله عز وجل: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(١)، والصيام وسيلة لبلوغ التقوى، يقول الله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢)، والأمر نفسه مع الزكاة، فهي نوع من التكافل الاجتماعي والإحساس الإنساني بأوضاع الفقراء والمحتاجين ومن يدخل في أصناف مصارفها، وإيجاد التراحم والتعاطف بين الناس، لذا كان المن يعطى الزكاة للفقير مبطلا لها كما قال الحق تبارك وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْتَغَىٰ لَهُمْ أَجْرٌ وَأَن لَّهُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ﴾^(٣) لأن الزكاة لم تصل بصاحبها إلى غايتها وهي الرحمة والأخوة والإحساس بأن للفقير حقا عليه وأنه أخ له في الإسلام. وكذلك جميع الأوامر... ما هي إلا أخلاقيات كريمة إذا سادت صلح المجتمع وصلح أفراده، وعاش الناس في سلام ووثام. وكذلك جميع النواهي... ما هي إلا نهى عن سوء الخلق الذي يفسد ما بين الناس فيفسد المجتمع وتضيع الحقوق وتضمحل القيم فتنهال الأمة من داخلها^(٤).

ولم يقتصر البعد الأخلاقي على مضمون العبادات، بل تجاوزها إلى توقيت هذه العبادات ومن ثم نستخلص وجها من أوجه حكمة ربط العبادات بأوقات معينة «فإن الله تعالى خالق النفس الإنسانية عالم بسرها وجهرها- كما ذكر في كتابه الكريم- فمن طبعها الميل إلى التسوية في العبادات،

١- سورة العنكبوت، الآية ٥٤.

٢- سورة البقرة، الآية ٢٨١.

٣- سورة البقرة، الآية ٤٦٢.

٤- من أخلاقيات الإسلام: ياسين رشدي، ص ٩/٧ بتصرف بسيط. الطبعة الأولى، نهضة مصر، القاهرة ٢١٤١ هـ / ١٩٩١ م.

والرغبة في تأجيل استيفاء الحقوق. لذلك ألزمها . سبحانه . بطاعته
مصلحة لها، وأمرها بتأدية الفرائض والحقوق في مواقيت حددها تعالى
خوفا من تخاذلها وتسويفها»^(١).

-البناء الأخلاقي في القرآن الكريم ليس مضمونا صلدا بل هو منهج
وطريقة عمل، إذ القيم الإسلامية إطار قبل أن تكون مضمونا، وحديث
القرآن عن بعض القيم مثل الصدق والإخلاص والمروءة والشجاعة
والصبر والتضحية، والإحساس بالمسؤولية والنجدة والكرم والحرية
والعدل والإحسان والمساواة إنما يعني أعمال منهج خير في مختلف مجالات
الحياة. فالقرآن لا يعرض للقيم الأخلاقية إلا من خلال واقعة أو ممارسة
لأن الأخلاق منهج عمل وترشيد وليست محتوى فكريا هيكليا فحسب. هذا
ما سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن خصائص النظام الأخلاقي في
الإسلام، حين ذكرنا من بين الخصائص المميزة له قدرته على الجمع بين
النظرية والتطبيق.

١- التربية النفسية في المنهج الإسلامي: حسن الشرقاوي، ص ٠٠١، سلسلة دعوة الحق، العدد ٥٣،
مطبعة رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة ٥٠٤١ هـ / ٤٨٩١ م.

المبحث الرابع البعد العلمي والمنهجي

١- البحث العلمي في القرآن الكريم:

اكتسب المسلمون منهجيتهم في البحث العلمي من القرآن الكريم، فهو الذي أرشدهم إلى أعمال العقل والنظر في الطبيعة والكون من حولهم، والبحث في أسرار الخلق لاكتشاف سنن الله تعالى في الطبيعة والإنسان، ليعلموا أن الخلق نظام يخضع لسنن الله تعالى التي لا تتخلف ولا تحابي أحداً: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^(١)، ودعاهم إلى التعلم: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(٢)، وأرشدهم إلى طرق المعرفة المتمثلة في الوحي: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾^(٣)، والعقل: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٤)، والحواس^(٥): ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ

١- سورة فاطر، الآية ٣٤.

٢- سورة العلق، الآية ١.

٣- سورة النجم، الآية ١/١١.

٤- العقل الفطري من ضوابط الفهم، والعقل ضمن منظومة الفكر الإسلامي ليس دخيلاً على النص، فكلهما من الله تعالى، وكلاهما حجة، ولا يتناقضان، ولكنهما يتمايزان، فالعقل ليس نصاً، ولكنه مجلي النص، ومستكشف مراد الله سبحانه.

ويتعين عدم الخلط بين العقل والمعطيات والمعارف التي تحتل الصواب والخطأ، فالعقل الفطري هو تلكم الاستعدادات الفطرية التي يولد بها الإنسان ويتمكن من خلالها التعرف على العالم، والتعامل معه، ومن ثم فهو القواعد المنطقية المشتركة بين البشر، والبيديهيات، التي يدرك من خلالها الإنسان العالم. يقول الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣ هـ): «واعلم أنه ما تزين أحد بزينة كالعقل، ولا لبس ثوبا أجمل من العلم، لأنه ما عرف الله إلا بالعقل، ولا أطبع إلا بالعلم.

واعلم أن أهل المعرفة بالله بنوا أصول الأحوال على شاهد العلم، وتفقهوا في الفروع، ألا ترى لقول النبي ﷺ: ((من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم)) (ليس يحدث وإنما هو كلام مروى عن عيسى بن مريم: أبو نعيم في الحلية، ج ١٠، ص ١٥). وعلامة ذلك هو تزايد العلم بالإشفاق، ومزيد العلم بالاعتدال، فكلما ازداد علماً ازداد خوفاً، وكلما ازداد عملاً ازداد تواضعاً، رسالة المسترشدين: الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣ هـ)، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ص ١٠٠/٩٨، الطبعة الثانية، دار السلام، حلب، سوريا، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م. سورة النور، الآية ١٦.

٥- لا يخفى على أحد الدور الهام للحواس في تحصيل العلوم والمعارف، وتطوير البحث العلمي، فهي الوسائل التي تمكنا من التعرف والتعامل مع عالم الشهادة، وهي مدخل العلم لأنها الأدوات الموظفة في أول مراحل المنهج العلمي ألا وهي الملاحظة، التي تمكن الإنسان من وصف الظاهرة موضوع الدراسة والبحث، وبالتالي تحديد مكوناتها، ورصد العلاقات القائمة بينها.

السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١﴾ مع التنبيه على نسبية العلم^(١): ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾^(٢).

كما علم القرآن الكريم المسلمين كيفية الانتقال من المحسوس إلى المجرد. وقد نص على ذلك في مواضع كثيرة كقوله الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْيَلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسْحَرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٤).

وتعلم المسلمون من القرآن الكريم أصول البحث العلمي حين دعاهم إلى البحث في الإنسان (دليل الأنفس) والبحث في الكون (دليل الآفاق) بحثاً علمياً دقيقاً مؤسساً على أدوات البحث العلمي، فعندما يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ

١- سورة السجدة، الآية ٩.

٢- إن القول بنسبية العلم يفيد منه الإنسان من ناحيتين:

أ- يمنع الإنسان من الاعتقاد بأنه يحتكر الحق والحقيقة، وبالتالي تجنب الوقوع في الوثوقية، مما يمكنه من الانفتاح على الآخر والتواصل معه، ويؤدي إلى الاتصال بدل القطيعة، والانفتاح بدل العزلة، وتجديد المعارف وتطويرها، بدل جمودها وتكلسها، ومن ثم فهم القول المأثور عن علمائنا: «ما نعتقد صواب يحتمل الخطأ، وما يقوله الآخر خطأ يحتمل الصواب»، كما قرروا قاعدة تبديع من يقطع على الله تعالى بالمراد.

ب- إفساح المجال أمام الإنسان للبحث والتأمل، وأن ما توصل إليه الإنسان الباحث من علوم ومعارف، وما أدركه من حقائق هو في حدود ما تسمح به إمكانيات العصر وظروفه، وأنه متى تغيرت الأحوال، وتطورت الإمكانيات، أمكن الوصول إلى معارف قد تنقض ما توصل إليه السابقون جملة وتفصيلاً، ولذلك دأب علماءنا على تذييل كتبهم ورسائلهم بعبارة: «الله أعلم»، إقراراً بنسبية علمهم، وترك باب البحث والنظر مشرعا، وقد قرروا في ذلك قاعدة تبين أن الحقيقة واحدة، ولكن الناس يختلفون في طرق إدراكها، يقول البيهقيوسي: «إن اختلاف الناس في الحق لا يوجب اختلاف الحق في نفسه، وإنما تختلف الطرق الموصلة إليه، والقياسات المركبة عليه، والحق في نفسه واحد» (الإنصاف للبيهقيوسي، ص ٧٢).

٣- سورة يوسف، الآية ٦٧.

٤- سورة البقرة، الآية ٤٦١.

الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ فإنه يدعو الإنسان إلى استخدام أدوات البحث في كل ما يقع تحت يديه ونظره من معارف في الوجود. وهذه، من باب أولى، إشارة إلى المنهج الذي يكشف به عن السنن الكونية المثبوتة في الكون.

٢- نظرة القرآن المنهجية إلى العلوم الإنسانية والطبيعية :

يتحدث القرآن الكريم عن الكون والإنسان، ويذكر وقائع علمية تنتهي بالتفكير والتدبر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾﴾.

لقد جعل القرآن البحث في العلوم الطبيعية من مقتضيات الخلافة في الأرض ومتطلباتها، ومما يؤكد ذلك مسميات الأشياء التي علمها آدم عليه السلام، لأن العلم الذي أعطيه آدم هو علم الأشياء والموجودات وهو الذي يسمى في العصر الحالي بالعلم الجديد، وبذلكم العلم فضل آدم على الملائكة وسائر الخلق: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾﴾، فقد علمه كل شيء: هذه الجبال والبغال والإبل والجن والوحي، وأقدره على تسمية كل الأشياء أي إحالتها إلى تصورات ومفاهيم، أي القدرة على تجريدتها وإدراك صفاتها ونعوتها وخواصها.

١- سورة العنكبوت، الآية ٠٢.

٢- سورة البقرة، الآيات ١٢/٢٢.

٣- سورة البقرة، الآيات ٠٣/١٣.

إن ربط الأسماء بالخلافة (عمارة الأرض) يقتضي فهمها ومعرفة قدرتها
المعرفة حتى يستطيع الإنسان أن يتعامل معها، وحتى تصبح لديه القدرة
على تسخير الكون، وذلك بالتحكم في النتائج المستخلصة من المعرفة الحقة
المؤسّسة على البحث العلمي.

فاللّه تعالى سخر لنا الكون وترك لنا حرية البحث والتأمل في الكون
والإنسان لإخراج هذه الأسماء المتمثلة الآن في العلوم الطبيعية والعلوم
الإنسانية^(١).

٣- المنهج الإسلامي في البحث:

المنهج هو خطة منطقية لعدة عمليات ذهنية أوحسية بغية الكشف عن
حقيقة أو البرهنة عليها. وأهو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة
بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل وتحدد
عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة، ذلك أن المنهج يساعدنا على كشف
الحقائق الكونية وربط ظواهرها بعضها ببعض إلى القانون العلمي الذي
ينقلنا إلى المعرفة اليقينية^(٢).

وقبل نزول القرآن لم يكن الأمر كذلك، بل كانت الخرافات وعبادة قوى
الطبيعة هي المسيطرة على الفكر آنذاك، ولكن بنزول القرآن قوض هذه
المعبودات وجعلها من المسخرات التي يجب البحث فيها. ومن هنا بدأ المنهج
يأخذ طريقه الصحيح إلى العصر الحاضر، بقول الله عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا

١- أسس المنهج القرآني: منتصر محمود مجاهد، ص ٧٢ وما بعدها، المعهد العالمي للفكر الإسلامي،
القاهرة، ط ١، ١٤١١هـ / ١٩٩١م. والمنهج الإسلامي في تعليم العلوم الطبيعية: محمد عمر القصار،
ص ٥٩ وما بعدها، سلسلة دعوة الحق السنة الثالثة، العدد ٣، مكة المكرمة، رمضان ١٤٠٤ هـ /
يونيو ١٩٨٩ م.

٢- المعجم الفلسفي: جميل صليبا، ج ٢، ص ١٢/٠٢. وأصول البحث: عبد الهادي الفضلي، ص ٥٥،
دار المؤرخ العربي، بيروت، ط ١، ٢١٤١هـ / ٢٩٩١م. وأسس المنهج القرآني في بحث العلوم الطبيعية:
منتصر محمود مجاهد، ص ٥٥-٦٥.

فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴿١﴾، فهذه دعوة إلى استخدام أدوات البحث في كل ما يقع تحت أيدينا ونظرنا من معارف في الوجود، وهي إشارة كذلك إلى المنهج الذي يكشف به عن السنن الكونية المبتوثة في الكون. وتكمن خطوات المنهج الإسلامي في ما يلي:

أ- إعمال العقل والنظر في الكون للإجابة عن سؤال : كيف؟.

ب- الملاحظة: يقول الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢) ويقول أيضا: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٣)، ويقول الله عز وجل في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ (٤).

ومما يستفاد من هذه الآيات أن من شروط الملاحظة العلمية : تحديد الهدف والموضوعية، ودقة المشاهدة والتنظيم والقصد، والتدخل العقلي من أجل التفسير والتحليل.

ج- الاستنباط : وهو الذي يبدأ من العام إلى الخاص أو من الكلي إلى الجزئي برباط عقلي بين المقدمات والنتائج على أساس من المنطق العقلي، يقول الله عز وجل: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكًا لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَىٰ﴾ (٥).

١- سورة العنكبوت، الآية ٠٢.

٢- سورة النحل، الآية ٨٧.

٣- سورة يونس، الآية ١٠١.

٤- سورة الإسراء، الآية ٦٢.

٥- سورة طه، الآيات ٩٤/٤٥.

د - الاستقراء: وهو العملية التي يشكل بواسطتها نظرية تعلل الحقائق المشاهدة، وهذه الحقائق هي علاقة بين الظواهر المختلفة. والاستقراء يحاول الكشف عن هذه العلاقات والتوصل إلى قوانين عامة أونظريات كلية تعبر عنها أوتفسرها، فالكشف عن العلاقات بين الظواهر يكون بتتبع الجزئيات في هذا الكون إما عن طريق ملاحظتها أو إجراء التجارب عليها أو الفروض. وتتخذ هذه العناصر الاستقرائية من الوقائع الجزئية المشاهدة وصولاً إلى القانون العام المستخلص، وأمن الخاص إلى العام الذي هو موضوع الاستقراء يقول الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾^(١).

هـ - التجربة: وهي سؤال يوجهه الباحث إلى الطبيعة لكي تجيب عليه، يقول الله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

ويرتبط بالتجربة الفرض العلمي وهو التحقق من صحة النتائج. ولا بد هنا من التمييز بين عالمين : فعالم الغيب لا يقبل الفرض، بينما عالم الشهادة يقبله، يقول الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٣﴾ وَيَسْخِرُ الرِّعْدَ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكِ الْكُفْرَانَ خِفْيَتِهِ. وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾^(٢).

ويشترط الفرض العلمي القدرة على التنبؤ، وعدم التعارض مع الحقائق العلمية الثابتة، وأن يكون الفرض مما يمكن البرهنة على صحته بطريق التجربة.

وما دما بصدد الحديث عن المنهج الإسلامي، فإننا نرى أن القياس

١- سورة الأعراف، الآية ٥٨١.

٢- سورة الغاشية، الآيات ٧١/٢٠٢.

٣- سورة الرعد، الآية ٢١/٣١.

الأصولي هوخير ممثل لذلك المنهج لأنه يعتمد العلة، والاطراد، والسبر، والتقسيم، وتفتيح المناط وذلك بالجمع بين الأصل والفرع بإلغاء الفارق^(١).

٤- الأسس الإسلامية للعلم:

ويمكن إجمالها في ثمانية أسس، وهي:

١- الكون من خلق الله عز وجل بما فيه ومن فيه، وهوشيء حقيقي، ومن ثم فإن ما يلاحظه الإنسان ليس وهماً، والله تعالى زوده بالسمع والبصر والعقل ليلاحظ ويفهم ويستفيد من العالم المادي.

٢- الانتظام كامن وراء الأحداث والعمليات، ويجب على الإنسان أعمال الفكر والنظر لاكتشافه والاستفادة منه في عمارة الأرض.

٣- الكون مسخر للإنسان لتحقيق الاستخلاف في الأرض والسعي فيه إصلاحاً لا إفساداً.

٤- الشريعة الإسلامية جزء من سنة الله تعالى في الخلق (القانون الكلي)، ومن ثم فإن الإنسان مطالب بتعبيد الحياة لله رب العالمين، وبذلك يحقق الانسجام بين كل مكونات الخلق.

٥- الله سبحانه وتعالى متصف بالثبات فلا يلحقه - سبحانه - التبديل ولا التغيير ولا يعتريه النقصان ولا الزيادة ومن ثم فهو ضامن ثواب الخلق المتمثلة في السنن الكونية: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾

١- البحث العلمي مناهجه وتقنياته: محمد ريان عمر، ص ٧٢ وما بعدها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٤٧٩١م.

فلسفة العلوم ومناهجها: علي عبد المعطي، ص ٨٥٢ وما بعدها، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٥٧٩١م.

محاضرات في مناهج البحث العلمي: سهام النويهي، ص ٤١ وما بعدها، مطبعة رزيق، القاهرة، بدون طبعة ولا تاريخ. وأسس المنهج القرآني: منتصر محمود مجاهد، ص ٩٥١/٥٥. ومجلة المسلم المعاصر، مقال «قضية العلم والمعرفة عند المسلمين» ص ٦٨/١٤، السنة العاشرة، العدد ٩٣، رجب ٤٠٤١ هـ. ومجلة إسلامية المعرفة، مقال «حول النظام المعرفي في القرآن»: محمود عايد الرشدان، ٣٤/٩، السنة الثالثة، العدد العاشر، خريف ٨١٤١ هـ / ٧٩٩١م.

٦- العالم المسلم يستشعر رقابة الله في السر والعلن فلا يستطيع أن يأتي من الأفكار والأقوال والأعمال إلا ما يرضي الله تعالى، وهو ليس ممن يسعون إلى الشهرة أو الجاه أو المال بل يسعى لينال مرضاة الله، ومرضاته سبحانه في إيصال الخير والمنفعة للناس كافة.

٧- العالم المسلم الحق هو من يهب حياته كلها للحصول على المعرفة - شرعية كانت أو مادية - وتطبيقها في سائر مجالات الحياة.

٨- أبحاث العالم المسلم عبادة: إن أخلص العالم المسلم فإنه سيجد أن دوافعه للبحث والدراسة والمكافأة التي سيحصل عليها تفوق كثيرا تلك التي يجدها زميله غير المسلم. فكلاهما ربما يحصل على المكافأة المادية والشهرة، وكلاهما قد يجد متعة في التغلب على مشكلات البحث ولذة في متابعة تخصصهما الدقيق الذي أصبح هواية مثيرة، لكن الباحث المسلم الذي يكتشف العلاقات الدقيقة في الظواهر المادية أو البيولوجية أو النفسية أو الاجتماعية ويرى صنع الله وسننه من وراء ذلك إنما يقوم بأرقى العبادات.

٥- خصائص المنهج الإسلامي:

يتميز المنهج الإسلامي بالخصائص التالية :

- الغيب: وينقسم الغيب إلى قسمين: غيب مطلق، وهو الذي استأثر الله تعالى به. وغيب نسبي وهو كل ما غاب عن الإنسان فترة من الزمن ثم أدركه.

- التوحيد: وهو الذي يعمل على تجميع البشر وتحريرهم والتأليف بين قلوبهم وتحقيق السلم في النفس والأهل والمجتمع، وهو الذي يحمل الناس على الإخلاص والإتقان.

- السعي في الأرض إصلاحا لا إفسادا: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

١- سورة الجمعة، الآية ١٠١.

- الصلاح وتكوين الإنسان العدل: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ابْنَ الصَّلَاةِ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(١).
- اتساع أفق النظر والبحث.
- نبذ الوثوقية، فليس كل ما يقع تحت الحس موجودا، ولا كل ما لا تدركه الحواس غير موجود.
- تحريم البحث في الغيب، فنحن مطالبون بالإيمان به لا البحث فيه.
- نسبية العلم والمعرفة.
- الاستقصاء قبل التعميم.
- الواقعية.
- الإنسانية.
- عدم المحاباة في السنن الكونية^(٢).

٦- مسلمات المنهج الإسلامي:

بقراءتنا للقرآن الكريم قراءة تدبر وتفكر، نقف على القواعد الذهبية للمنهج العلمي والتي يمكن الاصطلاح عليها بمسلمات المنهج الإسلامي، وذلك أنه لا يمكن اعتبار الباحث باحثا ما لم يتخلق بالمسلمات التالية :

- عدم التقليد: يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْكَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(٣).

- تجنب اتباع الظن: ﴿وَإِنْ تَطَعْتَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَخْصَمُونَ﴾^(٤).

١- سورة العنكبوت، الآية ٥٤.

٢- أسس المنهج القرآني: منتصر محمود مجاهد، ص ٧٤ وما بعدها.

٣- سورة البقرة، الآية ١٧١.

٤- سورة الأنعام، الآية ٦١١.

- عدم اتباع الهوى: ﴿وَإِنْ كَثِيرًا يَظْلُونَ بَاهْوَاهِهِمْ بَغَيْرِ عِلْمٍ﴾^(١).

- تجنب البغض والكرهية: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

- عدم تحريف الكلم عن مواضعه أو ما يمكن الاصطلاح عليه بالموضوعية العلمية: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾^(٣).

- تجنب البغي والشقاق في القول: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤).

- الأمانة العلمية مع العدل بين الناس: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾^(٥).

- الإنصاف: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾^(٦).

- البرهان والدليل^(٧): ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٨).

وكل هذا مؤطر بالتوحيد الخالص، حيث تسقط عبادة البشر والشجر وينتفي التعدد ليصبح الباحث مخلصا في عمله لا يبتغي إلا تحقيق مرضاة

١- سورة الأنعام، الآية ٩١١.

٢- سورة المائدة، الآية ٨.

٣- سورة النساء، الآية ٦٤.

٤- سورة الشورى، الآية ٢٤.

٥- سورة النساء، الآية ٨٥.

٦- سورة النساء، الآية ٥٢١.

٧- أسس المنهج القرآني: منتصر محمود مجاهد، ص ٦٥ / ١٦.

٨- سورة البقرة، الآية ١١١.

سورة النمل، الآية ٤٦.

اللّه. مع اعتبار الشرع والواقع المحسوس مصادر للمعرفة والعقل والحواس أداة المعرفة التي تمكن الإنسان اعتمادا على المصدرين السابقين من القدرة على التجريد والتعميم^(١).

إن المعرفة بالأشياء أوسع من العلم الخاص بها. فما كل ما نعرفه هو من قبيل العلوم، لكن كل حقيقة علمية هي ضرب من المعرفة، ذلك أن العلم تجريد للمعارف الجزئية من خصائصها الفردية لتصل إلى فكرة تشملها جميعا، وعندها يمكننا الحديث عن الفكرة العلمية المستندة إلى دعائم من معارف جزئية أدركناها إدراكا صحيحا.

ومما لا شك فيه أن للإنسان مجالات مختلفة يتحرك فيها بنشاطه الذهني، فليس العلم أو التمكن بمنهج العلم هو مجاله الوحيد بل له ميادين كثيرة أخرى. ولكل ميدان منها موازينه الخاصة، بل داخل الحقل المعرفي الواحد لا بد من التفريق بين مجالين : العلوم الإنسانية والعلوم المحضة. وداخل كل مجال هناك تخصصات علمية تختلف المنهجية العلمية باختلافها، فضلا على أن لكل بحث أو موضوع أوقضية خصوصياتها داخل كل تخصص، فلا بد من مراعاة ذلك. مع التشديد على أهمية امتلاك الباحث تصورا منهجيا يقارب من خلاله موضوع بحثه فضلا عن امتلاك رؤية تمثل الأطروحة التي يراهن في بحثه على إثباتها وتأكيد وجهتها العلمية أو بسطها للنقاش العلمي، خاصة إذا كانت من القضايا التي لم يسبق إثارتها أولم يأبه لها الباحثون باعتبارها من المسلمات أو القضايا التي لا تستحق البحث والنظر.

١- التجريد خلع للصفات عن الأشياء التي تتصف بها، بحيث يتم تجريدها عن الأشياء الجزئية الواقعية المتصفة بها، والمعينة بها، وإحالتها إلى فكرة أو مفهوم ذهني، لا يدرك بالسمع والبصر (الحواس) وإنما يدرك بالعقل، رغم أن العقل لم يدركه إلا استنادا إلى العالم المحسوس.

الفصل الثاني
المدخل اللغوي
للقرآن الكريم



المبحث الأول

مفهوم الخطاب

لقد كان مصطلح الخطاب متداولاً في الثقافة العربية الإسلامية ومتصلاً بحقول معرفية متعددة كعلوم القرآن والتفسير والحديث وأصول الدين والفقه واللغة وعلومها والعقيدة وعلم الكلام.

ويبين ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) أن «الهاء والطاء والباء أصلان أحدهما الكلام بين اثنين، يقال خاطبه يخاطبه خطاباً، والخطبة من ذلك»^(١). وجاء في لسان العرب لابن منظور (ت ٧١١ هـ) أن الخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطاباً... والمخاطبة مفاعلة من الخطاب والمشاورة^(٢). وورد الخطاب في القرآن الكريم في موضعين، وفي سورة واحدة ألا وهي سورة ص: قال الله عز وجل: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأُتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾^(٣) وقال ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نِعْمَةً وَلِي نِعْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخُطَابِ﴾^(٤).

ويفسر السمين الحلبي (ت ٧٥٦ هـ) قوله تعالى: ﴿وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ قائلاً إنه: «ما ينفصل به الأمر بين المتخاطبين في الخصام ونحوه، لأن كلا من الخصمين يخاطب خصمه بما ينفعه. وأصل ذلك من الخطب والخطب: الأمر العظيم الذي يحتاج فيه إلى تخاطب. ثم عبر به عن الأمر والشأن فيقال: ما خطبه؟... وأصله مصدر يقال خُطِبَ وخطاب وتخطب ومُخاطبة أي مراجعة خطاب بين القوم»^(٥).

١- مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكرياء (ت ٥٩٢ هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، مادة (خطب)، ج ٢، ص ٨٩١، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٩ م.

٢- لسان العرب: جمال الدين بن حبة بن منظور (ت ١١٧ هـ)، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين، مادة (خطب)، ج ٢، ٩١١/٥٩١١، دار المعارف، القاهرة، بدون طبعة ولا تاريخ.

٣- سورة ص، الآية ٠٢.

٤- سورة ص، الآية ٢٢.

٥- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الأنفاظ: أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي (ت ٦٥٧ هـ)، تحقيق محمد التونجي، مادة (خطب)، ج ١، ص ٠٩٥، عالم الكتب، بيروت ط ١، ١٩٩١ م.

ويقول ابن عطية (ت ٤٨١ هـ) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَيُّنَهُ الْحَكَمَةُ وَفَصَلَ الْخُطَابِ﴾: «إنه كان إذا خاطب في نازلة فصل المعنى وأوضحه وبينه لا يأخذه في ذلك حصر ولا ضعف، وهذه صفة قليل من يدركها فكان كلامه عليه السلام فصلاً، وقد قال تعالى في صفة القرآن: (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ) (١) ويزيد محمد على هذه الدرجة بالإيجاز في العبارة وجمع المعاني الكثيرة في اللفظ اليسير، وهذا الذي تخصص عليه السلام به في قوله: أعطيت جوامع الكلم (٢)، فإنها في الخلال التي لم يوتها أحد قبله» (٣).

يفسر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) قوله تعالى: ﴿وَفَصَلَ الْخُطَابِ﴾: «البيّن من الكلام الملخص الذي يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه، ومن فصل الخطاب وملخصه أن لا يخطئ صاحبه مظان الفصل والوصل فلا يقف في كلمة الشهادة على المستثنى منه، ولا يتلو قوله ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ (٤) إلا موصولاً بما بعده، ولا ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ﴾ حتى يصله بقوله ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٥). ونحو ذلك. وكذلك مظان العطف وتركه والإضمار والإظهار والحذف والتكرار... وأردت بفصل الخطاب الفاصل من الخطاب الذي يفصل بين الصحيح والفساد والحق والباطل والصواب والخطأ. وهو كلامه في القضايا والحكومات وتدابير شؤون الملك والمشورات... ويجوز أن يراد بالخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مخل ولا إشباع ممل، ومنه ما جاء في صفة كلام رسول الله ﷺ (فصل لا نزر ولا هذر) (٦).

١- سورة الطارق، الآية ٣١.

٢- أخرجه أبويعلى في مسنده عن عمر، بتغيير في اللفظ، الجامع الصغير ج ١، ص ١٥١.

٣- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ١٨٤ هـ) تحقيق المجلس العلمي بتارودانت، ج ٤١، ص ٨١، وزارة الأوقاف، الرباط ٩٠٤١ هـ / ٩٨٩١ م.

٤- سورة الماعون، الآية ٤.

٥- سورة البقرة، الآية ٦١٢.

٦- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم جار الله الزمخشري (ت ٨٣٥ هـ)، ج ٢، ص ٥٦٢، دار الفكر، بيروت، بدون طبعة ولا تاريخ.

ويتضح من نص الزمخشري أن نظريته لمفهوم الخطاب نظرة لسانية تتجاوز المستويات اللسانية التكوينية ألا وهي: الأصوات والصرف والتركيب والدلالة إلى المستوى الأسلوبى والتداولى. لذلك فإن نظريته تتسم بالشمولية والمعرفة العميقة بالخطاب ومكوناته، وظروف إنتاجه وتلقيه.

فالخطاب لا يكون خطاباً تأسيسياً على العناصر اللسانية الأساسية، بل لا بد من مراعاة كل العوامل التي تحقق داخله الانسجام المعنوي حتى يتماسك النص دلالياً. كما يجب مراعاة شروط تماسكه الشكلية المتمثلة في الروابط التي تربط بين مكوناته لتجعل منه خطاباً متماسكاً، وهي ما يمكن أن نصطلح عليه بالاتساق.

وضرب الزمخشري لذلك أمثلة من القرآن الكريم مبيناً من خلالها الخلل الدلالي والخروج عن المعنى المراد الذي يحدثه عدم احترام شروط التلقي والتي يفترض أن تحترم شروط إنتاج النص. فالمنجَز اللغوي لا يمكن فهمه فهماً صحيحاً إلا إذا احترمت شروط تماسكه الشكلية المتمثلة في عوامل يمكن رصدتها داخل الخطاب كروابط شكلية بين مكونات الخطاب والتي اصطلاحنا عليها بالاتساق، واستحضار شروط تماسكه المعنوية والتي اصطلاحنا عليها بالانسجام.

وقد قام الكفوي (ت ١٠٩٤هـ) أيضاً بتعريف الخطاب وبيّن مكوناته وأنواعه وتجلياته بقوله: «الخطاب: خاطبه وهذا الخطاب له لا خاطب معه والخطاب معه إلا باعتبار تضمين معنى المكاملة. وهو الكلام الذي يقصد به الإفهام. والخطاب: اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيء لفهمه. احترز باللفظ عن الحركات والإشارات المفهمة بالمواضعة وبالمواضع عليه عن الألفاظ المهملة، وبالمقصود به الإفهام عن كلام لم يقصد به إفهام المستمع فإنه لا يسمى خطاباً. وبقوله: لمن هو متهيء لفهمه عن الكلام لمن لا يفهمه كالتائم.

والكلام يطلق على العبارة الدالة بالوضع على مدلولها القائم بالنفس. فالخطاب إما الكلام اللفظي أو الكلام النفسي الموجه نحو الغير للإفهام وقد جرى الخلاف في كلام الله هل يسمى بالأزل خطابا قبل وجود المخاطبين تنزيلا لما سيوجد منزلة الموجود أولا؟ فمن قال: الخطاب هو الكلام الذي يقصد به الإفهام سمي الكلام في الأزل خطابا، لأنه يقصد به الإفهام في الجملة. ومن قال: هو الكلام الذي يقصد به إفهام من هو أهل للفهم على ما هو الأصل لا يسميه في الأزل خطابا... ومن يريد أن يأمر أو ينهى أو يخبر أو يستخبر أو ينادي يجد في نفسه قبل التلفظ معناها ثم يعبر عنه بلفظ أو كتابة أو إشارة، وذلك المعنى هو الكلام النفسي، وما يعبر به هو الكلام الحسي، ومغايرتهما بيّنة إذ المعبر به قد يختلف دون المعنى»^(١).

ويبين الكفوي في هذا النص عنصرا مميزا للخطاب عن النص، وهو «المكاملة» بمعنى أن الخطاب هو الكلام الشفوي الذي يتم بين منتج ومنتلق يجمع بينهما زمان ومكان واحد. وهذا العنصر المميز مهم جدا خاصة أنه يخرجنا من دوامة الجمع بين النص والخطاب واعتبارهما مترادفين كما هو الشأن في أغلب النظريات المعاصرة.

ويفصح النص عن قضية ذات أهمية بالغة في التأصيل للخطاب وتتمثل في اعتبار الخطاب الفعل الكلامي الذي يتم بين مخاطب ومخاطب، وهو فعل إرادي محكوم بالقوانين اللغوية المتواضع عليها التي يتحقق فيها القصد الكلامي.

إن منتج الخطاب يودع فيه معنى يقصد إيصاله إلى المتلقي، ومن ثم فالخطاب فعل لغوي منجز في زمان ومكان واحد يجمع المنتج والمتلقي.

١- الكليات «معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: أبوالبقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت ٤٩٠١هـ)، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، ج ٢، ص ٥٨٢ / ٦٨٢، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط ٢، ٢٨٩١م.

إن الخطاب بهذا المعنى يتجاوز المستوى اللغوي ممثلاً في الأصوات والصرف والتركيب والدلالة إلى آفاق الأسلوبية والتداولية تحقيقاً للتواصل بين المنتج والمتلقي، أو المخاطب والمخاطب، أو المتكلم والمستمع بكل ما يحقق نجاح التواصل بينهما.

بل إن الكفوي يتجاوز بيان كون الخطاب عملية تواصلية إلى إيضاح الكيفية التي تتم بها، حيث يبين أن الخطاب لا يمكن إنجازَه إلا بعد تصوره. ومن ثم فالخطاب خطابان: خطاب متصور وهو الذي نصلح عليه بالكلام النفسي، وخطاب منجز وهو ما اصطلح عليه بالكلام الحسي أي الفعل اللغوي المنجز مبيناً أن الخطاب المتصور ليس بالضرورة هو الخطاب المنجز. ويتضح لنا مما سبق أن الكفوي كان ملماً بمراحل عملية إنتاج الخطاب، حيث يمر الخطاب بمرحلة الإعداد والتفكير والتخطيط فالانتقال إلى الإخراج وذلك بتنزيل ذلك المتصور على أرض الواقع وهو ما نصلح عليه بالخطاب كمنجز لغوي.

ومما يلاحظ أن الكفوي أخرج من الخطاب كل ما يعتمد على الحركة والإيماء والإشارة كوسيلة للإفهام، كما أخرج أيضاً المهمل من الكلام، وكل كلام لا يقصد به في الأصل إفهام المستمع. وبذلك قصد بالخطاب الألفاظ المخصوصة بضرب من التركيب والاستعمال الذي جرت المواضعة عليه والذي يصدر عن متكلم يقصد به الإفهام لا غير، أي الإفهام المباشر وليس الإيحاء.

وأشار الكفوي في معرض تعريفه للخطاب إلى قضية عقدية متعلقة بكلام الله تعالى، مؤكداً الخاصية اللفظية / الشفاهية للخطاب، لتتسع دلالة المصطلح فتشمل الكلام البشري بوصفه ممارسة تواصلية. وقد ميزها عن الخاصية النفسية / المعنى النفسي ليجعل المصطلح مستوعباً للكلام الإلهي بوصفه رسالة إيحائية - أي الوحي والرسالة - متعالية عن الزمان

والمكان، مما يجعلها تتسم بالشمولية والأزلية.

وزيادة في توضيح هذه القضية يقول: «إن ما خاطب به مع نفسه أومع غيره فهو كلام، وإلا فهو علم. ونسبة علمه تعالى إلى جميع الأزمنة على السوية، فيكون جميع الأزمنة من الأزل إلى الأبد بالقياس إليه تعالى كالحاضر في زمانه فيخاطب بالكلام النفسي مع مخاطب نفسي، وإلا يجب فيه حضور المخاطب الحسي، كما في الحسي فيخاطب الله كل قوم بحسب زمانه وتقدمه وتأخره. مثلا إذا أرسلت زيدا إلى عمرو تكتب في مكتوبك إليه: إني أرسلت إليك زيدا، مع أنه حينما تكتبه لم يتحقق الإرسال فتلاحظ حال المخاطب. وكما تقدر في نفسك مخاطبة وتقول له: تفعل الآن كذا، وستفعل بعده كذا، وكان قبل ذلك كذا ولا شك أن هذا الماضي والحضور والاستقبال إنما هو بالنسبة إلى زمان الوجود المقدر من هذا المخاطب لا بالنسبة إلى زمان المتكلم»^(١).

ويتضح من هذا أن الكفوي حقق سبقا علميا باهرا بوضع يده على خاصية مهمة من خواص القرآن والمتمثلة في كونه مطلقا أي متعاليا عن الزمان والمكان، كما استطاع أن يدرك إشكال تعدد المعنى والعمل على تفسيره بطريقة علمية وموضوعية، وذلك بربط عملية إنتاج الخطاب بالمقام أو المقامات. فالقرآن - كمنجز لغوي - مطلق قد استوعب كل المقامات الممكنة^(٢). كما تحدث بعد ذلك عن أنواع الخطابات الشرعية عامة والقرآنية خاصة مبينا دلالاتها وأساليبها وظروفها من حيث الإنجاز والتلقي^(٣).

ولقد أنتج مصطلح الخطاب منظومة اصطلاحية صغرى خاصة به يتصل بها في علاقة مفهومية خاصة ضمن حقل أصول الفقه، مثل « دليل الخطاب» الذي يعرفه ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) بقوله: «ذلك أن طائفة قالت إذا ورد

١- الكليات، ج ٢، ص ٧٨٢/٦٨٢.

٢- الكليات، ج ٢: ٧٨٢/١٩٢.

نص من الله تعالى ومن رسوله ﷺ معلقا بصفة ما أوبزمان ما أوبعد ما ، فإن ما عدا تلك الصفة وما عدا ذلك الزمان وما عدا ذلك العدد واجب أن يحكم فيه بخلاف الحكم في هذا المنصوص. وتعليق الحكم بالأحوال المذكورة دليل على أن ما عداها مخالف لها. وقالت طائفة أخرى . وهم جمهور أصحابنا الظاهريين وطوائف من الشافعيين منهم أبو العباس ابن سريج وطوائف من المالكيين:- إن الخطاب إذا ورد كما ذكرنا لم يدل على أن ما عداه بخلافه بل كان موقوفا على دليل»^(١).

ونفهم من هذا أن دليل الخطاب هو أن يستفاد حكم من النص لا يمكن أن نسقطه على غيره من الحالات غير المطابقة مطابقة تامة، ذلك أن كل مخالفة بالزيادة أو النقصان أو تغير الأزمنة أو الأمكنة من شأنها أن تكون عوامل مؤثرة في الحكم. ومن ثم فالمسألة عند ابن حزم ليست مرتبطة بقياس أو غيره بقدر ما هي مرتبطة بالدليل.

أما «فحوى الخطاب» الذي يحيل على مدلول اللفظ في السكوت موافقا للحكم في محل النطق فيمثل له الشيرازي (ت ٤٧٦ هـ) بقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾^(٢) الذي يدل على المنع من الضرب من ناحية المعنى، ويقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظَلُّمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣) بأنه يدل على ما زاد عليه من ناحية المعنى^(٤).

١- الإحكام في أصول الأحكام: أبو محمد علي بن سعيد بن حزم (ت ٦٥٤ هـ)، ج ٧، ص ٢، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط ٢، ٢٨٩١ / .

٢- سورة الإسراء، الآية ٢٢.

٣- سورة النساء، الآية ٠٤.

٤- التبصرة في أصول الفقه: أبو إسحاق بن يوسف الشيرازي (ت ٦٧٤ هـ)، ص ٧٢٢، تحقيق محمد حسن هيتو، دار الفكر، دمشق، ط ١، ٠٨٩١ م.

وفي معرض تعريفه للمنطوق والمفهوم يعرف الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ) فحوى الخطاب ولحن الخطاب حيث يقول: «إن الفحوى ما نبه عليه اللفظ واللحن ما لاح في اللفظ، أي إن الفحوى ما دل على ما هو أقوى منه واللحن ما دل على مثله»^(١).

إن التلازم الدلالي بين مفهوم الخطاب والكلام في الثقافة العربية يوجب التفصيل في دلالة الأخير وكونه يحيل على الآخر، فضلاً عن أنه تعرض في كثير من حقول الثقافة العربية إلى استقصاء وفحص وبحث معمق.

يعرّف ابن جنى (ت ٣٩٢ هـ) الكلام بأنه «كل لفظ مستقل بنفسه، مفيد لمعناه»^(٢) ويضيف «إنه الجمل المستقلة بأنفسها الغانية عن غيرها»^(٣) مؤكداً أنّ الكلام واقع على الجمل دون الأحاد وبعبارة أخرى فهو مختص بالجمل، أو هوجنس للجمل. ويفهم من كل ذلك أنّ دلالة الكلام ترتبط بنظم الألفاظ التي ركبت فيما بينها وفق سياق من التأليف المخصوص المستوي للمعنى المراد، فاستغنت بنفسها دلالياً عن غيرها لكونها قد انطوت على شبكة دلالية خاصة ومتكاملة، الأمر الذي يجعلها تقوم بنفسها بوصفها وحدة مستقلة. غير أنّ هذا لا يدل على أنّ مفهوم الكلام قد اتسع ليشمل عدداً وافراً من تلك الوحدات، إذ مازال التأكيد قائماً على مفهوم الوحدة المستقلة التي هي الجملة. فابن جنى لا يتردد في تقريره هذه الحقيقة بقوله إن الكلام هو في لغة العرب عبارة عن الألفاظ القائمة بنفسها المستغنية عن غيرها، وهي التي يسميها النحاة «الجمل» على اختلاف تراكيبها.

ويفرق ابن جنى بين مفهومي القول والكلام «ومن أدل الدليل على الفرق

١- إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول: محمد بن علي الشوكاني (ت ١٠٥٢١ هـ)، ص ٢٠٣، تحقيق

محمد سعيد البدري، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط ١، ٢٩٩١ م.

٢- الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جنى (ت ٢٠٣ هـ)، ج ١، ص ٧١، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب، لبنان، ط ٣، ٣٠٤١ هـ / ٣٨٩١ م.

٣- المرجع نفسه، ج ١، ص ٩١.

بين الكلام والقول إجماع الناس على أن يقولوا: القرآن كلام الله ولا يقال: القرآن قول الله، وذلك أن هذا موضع ضيق متحجر لا يمكن تحريفه ولا يسوغ تبديل شيء من حروفه. فعبر لذلك عنه بالكلام الذي لا يكون إلا أصواتا تامة مفيدة، وعدل به عن القول الذي قد يكون أصواتا غير مفيدة وآراء معتقدة»^(١).

أما الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ) فيعرّف الكلام، بأنه: «ما تضمن كلمتين بالإسناد»^(٢) ويحدد معناه الاصطلاحي عند النحاة بقوله: «المعنى المركب الذي فيه الإسناد التام» ودلالة الإسناد هنا إنما هي ضم شيء إلى شيء بهدف الإفادة بما يحسن السكوت عليه، دون حاجة للبحث في غيره. وبه يتم لجمل اللغة الاكتمال والاتصال نظماً ودلالة.

وتتضح من تعريف الجرجاني للكلام أهمية العلاقات الإسنادية في تشكيل الخطاب، إذ تعمل على تحقيق تماسك مكونات الجمل كما تتشئ من الجمل متواليات جمالية تفيد معنى تاما يقصده المنتج ويعمل المتلقي على استكشافه، وبذلك تتم عملية التواصل. ولعل أهم ما يمكننا استنتاجه، فضلا عما سبق، أن الإسناد عامل أساسي في تماسك الخطاب وانسجامه لأنه يعمل على تماسكه شكليا، كما أن العلاقات التي يقيمها بين مكونات الجملة وبين الجمل التي اصطلح عليها بمعاني النحو هي الأخرى تشكل بعدا دلاليا يعمل على تحقيق هذا الانسجام.

إنّ الخطاب . كما نخلص إليه . مصطلح واضح الدلالة في الأصول ولا يثير فيها من حيث الدلالة والممارسة أي إشكالية، إنما تكمن الإشكالية الأساسية في اجتذابه القسري خارج حقله وشحنه بدلالات غريبة عنه بفعل التأثير المباشر للحمولة الدلالية لمصطلح الخطاب «Discours» التي تغلغت في

١- المرجع نفسه، ج ١، ص ٨١.

٢- التعريفات: أبو الحسن بن علي الجرجاني (ت ٦١٨ هـ)، ص ٤٠١، دار الشؤون الثقافية، العراق،

ثانياً الشبكة الدلالية لمصطلح الخطاب العربي وقوّضته - أو كادت - من الداخل بحجة تحديث دلالة المصطلح من جهة وما تقتضيه الثقافة الحديثة من جهة أخرى.

لقد أخذ مفهوم الخطاب في الثقافة الغربية معاني متعددة حيث استعملت كلمة Discursus في اللغة اللاتينية للدلالة على الطريقة العشوائية في المحادثة والمجادلة، قبل أن تتطور لتدل على كل طريقة كلامية أو خطابية خاضعة لنظام أو نابغة من الذهن.

أما البلاغيون الإغريق مثل لاغوس Logos وكذلك البلاغيون اللاتينيون مثل أوراتيويو Oratio فقد عملوا على دراسة بلاغة الخطاب بفضل بحثهم ومحاولة اكتشافهم لمكونات الخطاب : الفعل والخبر والحال، ومحاولتهم التمييز بين أنواعه الثلاثة: الإشاري والعفوي والقانوني.

إن تاريخ مفهوم الخطاب في الثقافة الغربية هو تاريخ مواز لتاريخ الفكر، ففي القرن السابع عشر الذي كان يعتبر قرن الشفافية اللغوية والتفكير المجرد والفصاحة والبيان بامتياز نجد مفهوم الخطاب يتسع ليتجاوز الدلالة على كونه طريقة للتعبير عن الفكر ليصبح فضاء للتواصل بين مُلق ومُتلَق، أو متكلّم / كاتب، ومستمع / قارئ. إن هدفه التأثير، وهذا تشهد له خطابات المتصوفة.

وإذا انتقلنا إلى الدرس اللساني الحديث والمعاصر، فإننا نجد لمفهوم الخطاب تعريفات متعددة كلها تروم فقّه كُنْهه واكتشاف طرق مقاربتة. فقد عرفه هاريس (Harris) بأنه ملفوظ طويل أو متتالية من الجمل. وعرفه بنفنست (Benveniste) بأنه كل تلفظ يفترض متكلماً ومستمعاً، يهدف الأول إلى التأثير في الثاني بطريقة ما.

ويعرفه تودروف (Todorov) بأنه مجموع البنيات اللفظية التي تعمل في كل عمل أدبي. وعرفه فوكو (Foucault) بأنه ممارسات من خلالها تتكوّن

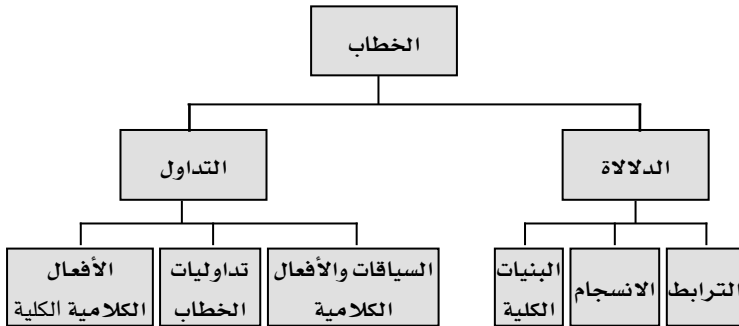
- وبكيفية منسقة - الموضوعات التي نتكلم عنها. وبطبيعة الحال، لا خطابات بدون إشارات.

ويعرفه هارتمان (Hartmann) وستورك بأنه نص محكوم بوحدة كلية واضحة، يتألف من صيغ تعبيرية متوالية، تصدر عن متحدث فرد يبلغ رسالة ما.

ويعرفه بيبير زيمما بأنه وحدة فوق جملية تولد من لغة جماعية وتعتبر بنياتها الدلالية كبنية عميقة جزءاً من شيفرة، ويمكن تمثيل مسارها التركيبي - النحوي، بواسطة نموذج تشخيصي (سردي).

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى انتقادات فان ديك (Van Dijk)⁽¹⁾ للنحو الجملي حيث بين أن لسانيات الجملة تعجز عن تفسير كثير من المظاهر الخطابية على مستويي الدلالة والتداول: كموضوع الخطاب والانسجام والبنية الكلية.

وهذه المظاهر الخطابية ما هي إلا تمثيل لقضية أو مجموعة من القضايا، لذلك فإن الشكل التمثيلي للخطاب عند فان ديك يأخذ الشكل التالي:



1- Texte and Contexte: Van Dijk. p1. Longman. London. 1977.

وإذا عُرضت التعريفات أعلاه للفحص والاستقصاء الدقيقين، سنجد أنها تشترك فيما بينها في مجموعة من الخصائص والمقومات، وتشير بوضوح إلى استقرار دلالة المصطلح لدى اللسانيين والباحثين الذين يعملون بتوجيه مباشر من اللسانيات.

إنّ الخطاب - كما تتفق حوله التعريفات كلها- وحدة لغوية أشمل من الجملة، فالخطاب تركيب من الجمل المنظومة طبقاً لنسق مخصوص من التأليف. والتأكيد على المظهر اللفظي للخطاب وكونه نظاماً من المفوضات مردهُ إلى اشتغال اللسانيين على الكلام بوصفه مظهراً لفظياً خاصاً بالفرد، وكونه أكثر المظاهر الإشارية تعبيراً عن اللغة التي يعتمدون عليها بوصفها قاعدة معيارية عامة. والتأكيد على هذا الجانب يفترض - ضمناً - الاهتمام ببعض مكونات نظرية الاتصال كالمُرسل والمتلقي بوصفهما قطبي إرسال واستقبال للمفوض من الكلام. وكل هذا يحيل على اتساع مفهوم الخطاب ليصبح موضوعاً تعنى به ليس اللسانيات المحضة فقط، بل نظرية الاتصال والسيميولوجيا ونظرية التلقي، مما يدل على تعدد المستويات التي ينطوي عليها الخطاب تبعاً لتوجيه النظر إلى مستوى من مستوياته.

ويتميز الخطاب بكون مصدره فردياً هدفه الإفهام والتأثير، أي بكونه نتاجاً يلفظه الفرد هادفاً من ورائه إيصال رسالة واضحة الغاية ومؤثرة في المتلقي. ولا بد لمتلقي الخطاب أن يستشف المقصد الذي ينطوي عليه، وأن يتمثل الرسالة الدلالية التي تكمن فيه حتى تكتمل دائرة الاتصال. وهنا لا بد أن تحضر أيضاً مكونات أخرى من عناصر نظرية الاتصال كالشفرة والسياق لكي ينفذ قصد القائل إلى المتلقي.

ولم يقف الأمر، بطبيعة الحال، عند حدود النظر إلى الخطاب بوصفه متتالية جمل- كما ذهب اللسانيون إلى ذلك-، إنما اتسع مفهومه ليشمل عدداً وافراً من مظاهر التعبير الإشارية، سواء أكانت وسائلها لفظية

أم إيمائية أم صورية أم كتابية. وجرى بحث عميق في بنى الخطاب، ومستوياته، وأنواعه وأجناسه، في ميادين الأدب شعرا وسردا، وفي ميادين الفنون التشكيلية والسينمائية والفوتوغرافية، وتعدى الأمر إلى حقول الرقص والايماء والموسيقى، وتطلب ذلك مزيدا من التقصي الدقيق، ليس لضروب الخطاب وخصائصه التجنيسية، إنما لعناصره المكونة، ولوسائله، ولبنائه وتراكيبه، فظهرت نظرية الخطابات، بغية وصف المظاهر المتعددة للخطاب. ولم يقتصر الأمر على علم من العلوم الإنسانية، إنما شمل الدرس الخطابات التاريخية والدينية والأنثروبولوجية والمعمارية والفلسفية والجمالية وغير ذلك. وأصبح البحث ملزماً لكشف الأواصر التي تربط أنواع الخطابات التي تنتمي إلى جنس واحد، وعلاقتها فيما بينها من جهة، وفيما بينها وخطابات أخرى من جهة ثانية.

إن نظرية الخطاب التي استنبطت قواعدها وإجراءاتها من الاستقصاء الشامل لمظاهر الخطاب، استقامت الآن في المبحث النقدي الحديث، وبالأخص في علم الأدب، نظرية لها أسسها وفروضاتها، ولها أيضاً جهاز اصطلاحي تستعين به. وهي تدرج ضمن الشعرية (poetics) التي تهدف إلى استنباط النظم الداخلية للخطاب الأدبي. أصبح الخطاب، تبعاً لذلك، وثيقة تحليلية خصبة، وموضوعاً لنظرية الخطاب، الأمر الذي جعل تلك النظرية تتطور يوماً بعد يوم بسبب من تطور الأنواع الخطابية، واستكشاف مجاهيل جديدة، لم تتجه العناية إليها من قبل في الخطاب^(١).

ولمعرفة أكثر دقة بالخطاب، فإنه يتعين علينا التمييز بين مستويين داخل كل خطاب وهما:

- دال اللسان: أي الإمكانيات التعبيرية والأسلوبية التي تتيحها اللغة، وهي ما يمكن أن نصلح عليه بالقدرة أو الخطابية.

١- لسانيت النص: مدخل إلى انسجام الخطاب: محمد خطابي، ص ٧٢ وما بعدها، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩١ م.

- دال الخطاب: والفعل اللغوي المنجز فعلاً وهو ما يمكن الاصطلاح عليه بالإنجاز.

إن الخطاب يتسم بكونه مكوناً من دال ومدلول، بمعنى أنه لا يجد تأويله إلا ضمنه، رغم أنه استعمل الإمكانيات اللغوية التي تتيحها اللغة إلا أنه لا يمكننا تحكيما فيه بغية تحديد دلالاته، واكتشاف نظامه. فالأسلوب أي الطريقة اللغوية لإنجاز الخطاب ما هو إلا اختيار ضمن إمكانات تتيحها اللغة، دون أن ننسى أن الأسلوب عدول وانزياح عن المؤلف ليرقى إلى مستوى الابتكار، ومن ثم يجوز لنا بأن نصفه بكونه اكتشافاً لا استعمالاً لما هو موعود ومتداول، أي إن منتج الخطاب يستعمل إمكانية تعبيرية أو أسلوبية موجودة في اللغة كمنظومة، وهو لا يحدثها فيها.

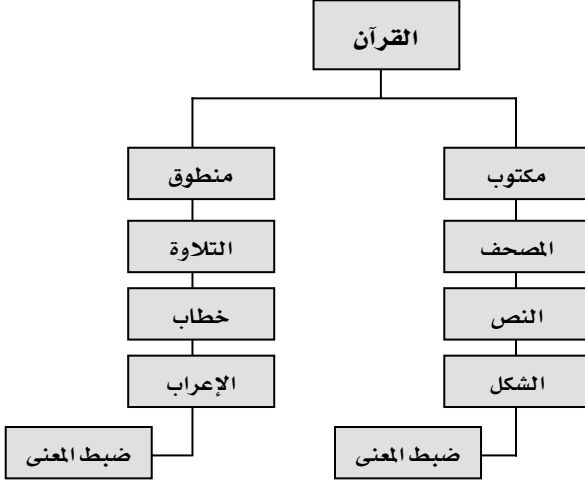
كل هذا لننتهي إلى أن الخطاب هو اللغة الحية المحققة للتواصل بين متكلم ومستمع يستوعبهما زمان ومكان واحد. وهذا في اعتقادنا هو ما يميز الخطاب عن النص، فالخطاب منطوق والنص مكتوب، وقد ميز سلفنا بين هذين المفهومين ولم يجعلهما شيئاً واحداً، وقد أسعفهما الواقع القرآني على بلورة هذا الفهم، ذلك أن القرآن بما أنه مقروء فإنه نص يمثله الرسم، وبما أنه منطوق فإنه خطاب يمثله القراءات القرآنية، وقد ميز الداني (ت ٤٤٤ هـ) بين هذين المستويين، حيث خص كل واحد منهما بخصائص: «الشكل سمة الكتاب، كما أن الإعراب سمة لكلام اللسان، ولولا الشكل لم تعرف معاني الكتاب، كما لولا الإعراب لم تعرف معاني الكلام، والشكل لما أشكل، وليس على كل حرف يقع الشكل، إنما يقع على ما إذا لم يشكل التبس»^(١).

فالشكل في النص يقوم بنفس الوظيفة التي يقوم بها الإعراب في الخطاب حيث يعصم من الوقوع في الخطأ، أي إنه يقوم بوظيفة دلالية ضرورية

١- المحكم في نطق المصاحف للداني: أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤ هـ)، تحقيق عزة حسن، ص ٢٢، دار الفكر، دمشق، ط ٢، ١٩٨١م.

لنجاح العملية التواصلية عبر اللغة.

ويمكننا التمثيل لعمل الداني في التمييز بين النص والخطاب بالرسم
البياني التالي:



فالقرآن إذن خطاب ملفوظ، ونص مكتوب، تتحقق فيه مكونات العملية
التواصلية الناجحة وشروطها: المرسل والمتلقي والخطاب ذاته والحضور.

والقرآن الكريم - على خلاف معهود النص البشري - يمتاز بحضور منتجه
قراءة وكتابة. فإذا كان القرآن كلام الله فإنه متصف بصفته هو والتعالى عن
الزمان والمكان، فحيثما قرئ فتم وجه الله.

ويمتاز بكونه خطاباً/ نصاً إلهياً مطلقاً غير قابل للمحاكاة، وغير مألوف
عادة، فهو وإن وافق سنن العرب في الكلام فإنه خرق المعهود، وعدل عن
المألوف، ومن تم فهو نموذج لغوي وفكري متفرد لا يجوز التعامل معه على أنه
شكل لغوي خاضع للقوانين الشكلية المعهودة.

المبحث الثاني

مفهوم النص

إن النص لفظ متداول في الثقافة الإسلامية العربية، ويرد في لسان العرب لابن منظور بمعنى الظهور والارتفاع والانتصاب: «النص رفعك الشيء ونصبت الشيء رفعته، ومنه منصة العروس وهو ما تظهر عليه لترى. وأصل النص أقصى الشيء وغايته ونص كل شيء منتهاه»، ومن معاني النص التي وقف عندها ابن منظور استقصاء المعنى: «وفي حديث هرقل: ينصهم أي يستخرج رأيهم ويظهره، ومنه قول الفقهاء نص القرآن ونص السنة: أي ما دل ظاهر لفظهما عليه من الأحكام»^(١).

ودلالته اللغوية المباشرة هي التي غذت دلالاته الاصطلاحية في حقل أصول الفقه. فصار يحيل على ما لا يحتمل إلا معنى واحداً قبل. وهنا يتضح عمق الاتصال بين الدلالة اللغوية والاصطلاحية. فالذي لا يحتمل إلا معنى واحداً لا بد أن يتصف بالظهور التام والوضوح الكافي بما يدرأ احتمال اللبس والغموض والإبهام خاصة في مجال أصول الفقه. ولكن ما يقصد به في مجال الأصول هو غير ما نرمي إليه في هذا البحث، إذ اتضح لنا مما سبق أن الأصوليين يدرسونه في مبحث الدلالات ويجعلونه قسماً من أقسام دلالة اللفظ على المعنى، لذلك فهم يعرفونه بأنه: «ما دل بنفس لفظه وصيغته على المعنى دون توقف على أمر خارجي، وكان هذا المعنى هو المقصود الأصلي من سوق الكلام»^(٢)، ومعنى هذا أن النص المعنى المتبادر من ظاهر النص، ويقصد به الدلالة التي يفيدها البناء اللغوي الشكلي.

وقد استعمل الأصوليون النص بمعنى الآية القرآنية أو الحديث النبوي الشريف فيقال نصوص القرآن والسنة، فيشمل لفظ النص بهذا المعنى: الظاهر والنص المفسر والمحكم بمعانيها الاصطلاحية. وهذا أقرب إلى

١- لسان العرب: ابن منظور (ت ١١٧ هـ)، باب النون مادة (نصص)، ج ٦، ص ٢٤٤٤/١٤٤٤.
٢- الوجيز في أصول الفقه: عبد الكريم زيدان، ص ٥٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٦، ٧٨٩١ م.

تصور النص وإن كان قد ضيق مفهومه بأن حصر في القرآن والسنة، وكأنهم يخصون به القسمين الأولين من الأدلة الشرعية. القرآن والسنة. اللذين يمثلان الوحي والرسالة، ويميزونهما عن الأقسام الأخرى التي تتسم بالصفة البشرية كدليل الإجماع ودليل القياس والاستحسان والمصلحة المرسلة والعرف وغيرها.

وبالاطلاع على المقدمات الممهدة للمباحث النحوية في جل المصنفات النحوية، نجد كلاماً - قد يطول وقد يقصر - عن الكلمة والقول والكلام والحرف والاسم والفعل، وبدراسة هذه المقدمات يتضح لنا أن هناك من النحاة من جعل الكلام والجملة شيئاً واحداً كسيبويه (ت ١٨٠ هـ): «واعلم أن (قلت) إنما وقعت في كلام العرب على أن يحكى بها، وإنما تحكى بعد القول ما كان كلاماً لا قولاً، نحو قلت: زيد منطلق لأنه يحسن أن تقول: زيد منطلق، ولا تدخل (قلت). وما لم يكن هكذا أسقط القول عنه»^(١)، وكابن جني (ت ٣٠٢ هـ): «وأما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه، مفيد لمعناه، وهو الذي يسميه النحاة الجمل، نحو: زيد أخوك، وقام محمد... فكل لفظ مستقل بنفسه، وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام»^(٢)، ومنهم من فرق بين الكلام والجملة وجعل العلاقة القائمة بينهما علاقة عموم وخصوص، فالكلام أعم من الجملة، والجملة أخص منه، ومن القائلين بذلك ابن هشام (ت ٧٦١ هـ): «الكلام هو القول المفيد بالقصد، والمراد بالمفيد ما دل على معنى يحسن السكوت عليه.

والجملة عبارة عن الفعل وفاعله، ك: (قام زيد) والمبتدأ وخبره ك: (زيد قائم)، وما كان بمنزلة أحدهما نحو: (ضرب اللص) و(أقائم الزيدان) و(كان زيد قائماً) و(ظننته قائماً).

١- الكتاب: أبوبشر عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه (ت ٠٨١ هـ)، ج ١، ص ٢٢١، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٢، ٧٧٩ م.

٢- الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٢٠٢ هـ)، ج ١، ص ٧١.

وبهذا يظهر لك أنهما ليسا مترادفين كما يتوهمه كثير من الناس، وهو ظاهر قول صاحب المفصل، فإنه بعد أن فرغ من حد الكلام قال: ويسمى جملة والصواب أنها أعم منه، إذ شرط الإفادة، بخلافها، ولهذا تسميهم يقولون: جملة الشرط، جملة الجواب، جملة الصلة، وكل ذلك ليس مفيدا، فليس بكلام»^(١).

ويمكن للنص أن يكون جملة، ولكن لا يمكن لكل جملة أن تشكل نصا. وهذا ما ذهب إليه ابن هشام في المغني»^(٢).

كما خصص مبحثا خاصا لدراسة تقسيم الجملة إلى صغرى وكبرى. فالجملة الكبرى عنده هي «الإسمية التي خبرها جملة نحو(زيد قام أبوه) (زيد أبوه قائم). والصغرى هي المبنية على المبتدأ كالجملة المخبر بها في المثاليين»^(٣). وبين أن الجملة قد تكون صغرى وكبرى، فباعتبار استقلالها تكون كبرى، وباعتبار ورودها ضمن الكلام / النص تكون صغرى. كما قسم الجملة الكبرى إلى ذات وجهين وهي الاسمية الصدر الفعلية العجز نحو(زيد يقوم أبوه)، وإلى ذات وجه يفهم من الأمثلة التي ضربها أنها الاسمية الصدر والعجز نحو:(زيد أبوه قائم)، أوالفعلية الصدر العجز مثل:(ظننت زيدا يقوم أبوه)^(٤).

وتقسيم الجملة على هذا الشكل يؤكد أن ابن هشام لا يعتبر الجملة الكبرى كيانا مستقلا، أو بالتعبير اللساني لا يعتبر الجملة الكبرى أكبر وحدة لسانية يمكن أن توصف لسانية، كما ذهب إلى ذلك بلومفيلد. بل إنه يجعل هذه الجملة الكبرى جملة صغرى إذا وردت ضمن كلام / نص. ومعنى ذلك أن

١- مغني اللبيب عن كتب الأعراب: جمال الدين بن هشام الأنصاري (ت ١٦٧ هـ) تحقيق مازن المبارك وآخرون، ص ٠٩٤، دار الفكر، بيروت، ط٥، ٩٧٧١م.

٢- المرجع السابق: ص ٠٥٤.

٣- المرجع نفسه، ص ٥٧٤.

٤- مغني اللبيب: لابن هشام، ص ٠٠٥/٩٩٤.

ابن هشام كان يملك تصورا عن الكلام أو النص باعتباره أكبر وحدة دلالية تجد الجملة في إطارها تأويلها. ومفاد ذلك أن الكلام - أوتعبير آخر النص - هو أكبر وحدة لسانية يمكن أن تكون محل الدراسة اللسانية.

أما الدراسات اللسانية المعاصرة، فقد ذهبت إلى الكشف عن القدرات اللسانية للغة، فمنهم من قال إنها قدرة دلالية (فيرث)، ومنهم من بين أنها قدرة تركيبية صرفة (بلومفيلد) ومنهم من اعتبرها قدرة تواصلية (جاكوبسن)، ذلك أن اللغة لا تنزع إلى بناء متواليات سليمة البناء، وإنما تضيف إلى ذلك وظيفة أساسية وهي الاتصال أو التواصل حيث تستعمل بكفاءة في مقامات تفاعلية معينة. وهناك من اللسانيين من اعتبرها قدرة جمالية، حيث يختزل الخطاب إلى ظاهرة إنجازية، وهناك من عدها قدرة خطابية حيث تقدر على إنتاج وتداول نصوص لا جمل، وهوتصور طموح، وواسع ومتكامل، يستفيد من التصورات السابقة، ولكنه أعم منها وأشمل إذ يهدف إلى وصف آليات الخطاب / النص، كما أنه تصور نسقي إذ يعتبر اللغة بناء كلياً متكامل لا يمكن فهم جزئياته إلا في إطاره الكلي، وعلى محورين أساسيين: زمني وتداولي.

إن محاولتنا تحديد مفهوم النص في الدراسات اللسانية المعاصرة هو رصد لأحد مراحل التطور الكبرى التي عرفها الدرس اللساني المعاصر بانتقاله من التصور الجملي إلى التصور النصي، فبلومفيلد مثلاً يرى أن الجملة صورة لسانية أكبر بموجب أي تركيب نحوي⁽¹⁾.

ويعطي هلمسلف لمفهوم النص معنى أوسع حين يعرفه بأنه «كل قول أو عبارة كيفما كانت مكتوبة أو منطوقة، طويلة أو قصيرة، قديمة أو حديثة. فكل مادة لغوية مدروسة سواء تعلقت بلغة أو بلغات متعددة تشكل عنده نصاً، هذا الأخير يمثل عند هلمسلف صنفاً قابلاً للتحليل إلى أجناس،

1- Linguistique generale: John Lyons P 133 Traduction F Dubois - charlier - Larousse- Paris - 1970.

يمكن بدورها تحليلها إلى أنواع وأصناف وهكذا إلى أن نصل إلى استيفاء ونفاد إمكانيات التقسيم»⁽¹⁾.

أما لاينز فإنه يرى أن الجملة هي أكبر وحدة توصف نحويا، وأثار هذا التصور عدة انتقادات تمخض عنها بروز نحو جديد يمكن الاصطلاح عليه بنحوالنص والنحوالنسقي الذي سعى إلى توسيع مجال الدرس اللساني بحيث يتجاوز الجملة ليشمل النص في جميع أبعاده⁽²⁾.

لاحظ أيزنبرغ أن هناك مجموعة من الظواهر اللسانية لا يمكن وصفها بناء على النحو الجملي، ومن ثم يتعين بناء تصور يتجاوز حدود الجملة. وقد عدد هذه الظواهر التي يقصر النحو الجملي عن وصفها في ثلاث وعشرين ظاهرة لسانية يمكن أن نذكر منها:

- العوائد.
 - انتقاء أداة التعريف والتنكير.
 - التقديم والتأخير.
 - المضمرات.
 - مواضع النبر والتنغيم.
 - تطابق الزمن.
 - العلاقة القائمة بين جمل لا تربطها أداة وصل.
- بل إن أيزنبرغ يذهب أبعد من ذلك حين يعتبر أن الجملة الواحدة قد تكون نصا إذا توفرت فيها شروط أو وظائف تواصلية هي:

- الأمر: ordre
- الرسالة: message
- الإشارات: deictiques

1- Dictionnaire de linguistique. Jean Dubois. P 486. Edition Larousse. Paris 1989.

2- La grammaire du texte en pays de langue allemande -J- F Bourdin -P 133.

- التعبير: expression

- الاشتراك: participation^(١)

كل هذا يبين قصور التصور البلومفيلدي للجملة عن مقارنة هذه الظواهر اللسانية. ويرجع هذا إلى أسباب وصفية تتفرع إلى:

أ- نسبية مفهوم النحوية ووجود عدة ظواهر يصعب مقاربتها بناء على نحو الجملة.

ب- حدود النظرية اللسانية ومهامها، خاصة تلك التي تقيدها بالتمثيل الكافي والبسيط للقدرة اللغوية التي يجمع جل نحاة النص على عدها قدرة تواصلية تبيح - فضلا عن إنتاج ملفوظات سليمة البنية - استعمالها وفق شروط مقامات التواصل المتباينة. ومن ثم فهي قدرة نصية، ذلك أننا في إطار الأفعال التواصلية لا نلتفz بكلمات أو جمل ولكن بنصوص تأخذ أبعادها الدلالية حسب السياقات التي ترد فيها. وهي كما نعلم سياقات لغوية وأخرى غير لغوية. ومن ثم نضطر عند بناء نموذج لساني أن نجعله يتضمن البعد التداولي حتى تصبح له القدرة على مقارنة وتوصيف النصوص. لذلك لم يعد مقبولا تصور الجملة كأكبر وحدة لسانية في الدرس اللساني المعاصر، وأصبح لزاما علينا النظر إلى النص ككيان لساني قادر على حل المشاكل التي تطرحها بعض الظواهر اللسانية، ومنها تلكم التي ذكرناها سابقا.

وتزعم لسانيات الجملة أن الجملة أعلى وحدة لسانية يمكن وصفها. ومن ثم فإن وصفها يصدق على الجمل المركبة وعلى متواليات الجمل، وقد رد فان ديك هذا الزعم ببيان الفروق النسقية بين الجملة والجمل المركبة ومتاليات الجمل، خاصة على مستوى التداول. فالجمل يتوقف معنى بعضها

١- مفهوم النص في الفكر اللغوي المعاصر: عبد الناصر لقاح، ص ١٢، ندوة اللسانيات واللغة العربية بين النظرية والتطبيق، جامعة مولاي إسماعيل، كلية الآداب، مكناس ٢٩٩١.

على بعض بطريقة مخالفة لما تكون عليه أشباه الجمل ضمن الجملة الطويلة أو المعقدة. ومن هنا يدعو فان ديك إلى إعادة بناء الأقوال لا على شكل جمل وإنما على شكل وحدة أكبر وهي النص. ويعني فان ديك بالنص البناء النظري التحتي المجرد لما يسمى عادة خطابا متسقا بواسطة:

- التطابق الإحالي.
- تعالق الوقائع.
- تعالق العوالم.
- النشاط المتماثل.
- الزمن.
- التضمن.
- التكرير.
- تعالق المحمولات.
- الإطار.
- العلاقات الرابطة بين المواضيع.

ومن هنا يتبين لنا أن الاتساق جزء من المكون الذي ينشئ النصوص في النسق اللساني. إنه الوسائل التي ترتبط بواسطتها العناصر المنفصلة بنيويا التي يفتقر بعضها إلى البعض الآخر حين تأويله وهو مفهوم دلالي يحيل على علاقات المعنى التي تقوم في قلب النص وتكسبه هيئته التي استوى عليها. ولكي ندرك الاتساق - باعتباره بنية مضمرة في النص - لا بد من الكشف عنه، وكلما كان النص بليغا استدعى اكتشاف بنية الاتساق فيه جهدا أكبر، وإعمالا متواصلًا للفكر والنظر واتصالا دائما به وقربا منه حتى يبوح ببنيته المضمرة التي عندما نقف عليها تتكشف لنا أسرار النظم وأفانين الربط.

إن النص لا يكون نصا إلا إذا كان متسقا بمعنى أنه يشكل منظومة مكونة من بنيات وعناصر تربط بينها عناصر الربط الشكلية والدلالية التي

تجعل منه بناء متماسكا. وانطلاقا من أعمال اللغويين والبلاغيين العرب وعمل اللسانيين المحدثين ومحلي الخطاب يمكننا إجمال العناصر المحققة لاتساق النص في ما يلي:

أ- الإحالة: وهي العلاقات القائمة بين مكونات النص بحيث تربطه بما يسبقه وما يليه داخل النص كالضمائر وأسماء الإشارة وأسماء التفضيل وأداة التعريف.

ب- التعويض: وهو يشمل المعوضات والمحذوفات.

ج- الوصل: وهو علاقة دلالية تتم بواسطة أدوات العطف والاستثناء والجملة الاعتراضية وجملة الصلة. وقد يتجاوز الدلالة لتحقيق أغراض مقامية.

د- الاتساق المعجمي: ويشمل الحالات التي يعاد فيها لفظ معجمي أو يتوارد فيها لفظان معجميان متعلقان دلاليا. وهو ما يمكن الاصطلاح عليه بالتكرير المعجمي.

هـ- التضمن: وهو التعلق النحوي.

وهناك نوع آخر من التماسك الكلي يتجاوز الأبنية النحوية السطحية للنصوص ويتصل بمجمل عالمها الدلالي وهو يتجلى في تلك الحالات التي قد يبدو فيها النص مفككا من السطح، ولكننا لا نلبث أن نتبين وراءه بنية عميقة محكمة في تماسكها، تفسر تشاكل الأجزاء وتضمن اتساقها مع تشتمها الخارجي.

وقد يعتمد اكتشاف هذه البنية على بعض المفاهيم المنطقية الدلالية ومجموعات الحقول الموضوعية المركبة وطبيعة علاقة الترميز الأدبي⁽¹⁾.

١- بلاغة الخطاب وعلم النص: صلاح فضل، ص ٣٤٢ / ٤٤٢، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ٤٦١، غشت ٢٩٩١م.

لسانيات النص: محمد خطابي، ص ٤٢/١١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩١م.

ويكون النص مرتبا ترتيبا دلاليا ومنطقيا:

- العام فالخاص.
- الكل فالجزء.
- المجموعة، فالمجموعة الفرعية، ثم العنصر.
- المتضمن والمتضمن.
- الكبير فالصغير.
- الخارج ثم الداخل.
- المالك فالمملوك.

ومن هنا يتبين لنا أن فان ديك ينظر للنص من خلال نظرية البنية الكبرى للنص باعتبارها بنية تجريدية كامنة تمثل منطق النص⁽¹⁾.

يتفق النحوانسقي الوظيفي مع «نحوالنص» بمعناه الضيق في عدة نقاط، خاصة في طموحهما المشترك لبناء نظرية الاتساق. ويتميز عنه من حيث شكل النموذج المقترح، ونوع الآليات التمثيلية التي يتوفر عليها، وجوانب أخرى أيضا. كما أننا نعثر في هذا النحوعلى تصنيف لظواهر الاتساق.

والنحوانسقي الوظيفي من اقتراح هاليداي، وهويتضمن المقولات التداولية. وقد أفاد فيه من أعمال فلاسفة اللغة خاصة «نظرية العمل» (العامل)، كما أنه اهتم وظيفيا بالوظائف الأساسية التي تؤديها اللغة:

- التعبير عن المحتوى الدلالي، الذي يمثل معرفتنا بالعالم.
- أداء وظيفة تمثيلية.
- إقامة العلاقات الاجتماعية، والمحافظة عليها، ومن ثم يمكن حصر
- وظائف اللغة في ما يلي:
- وظيفة تواصلية.
- وظيفة تفاعلية.

1- Vandijk. Some aspects of text grammars. P 3. TheHague Monton.1972.

- وظيفة نصية: حيث ترتبط اللغة عبرها بنفسها وبالمقام، وبواسطتها يصبح الخطاب ممكنا، ويكون المتكلم أو الكاتب قادرا على إنشاء نص، والمخاطب أو القارئ قادرا على التعرف عليه. فالنص وحدة لسانية عملية، كما أن الجملة وحدة بنيوية، وقد يكون مكتوبا أو منطوقا طويلا أو قصيرا.

ويضم النحوالنسقي ثلاث مكونات:

- المكون التمثيلي.
- المكون التفاعلي.
- المكون النصي.

ويضم هذا الأخير كل الوسائل التي تملكها اللغة لإنشاء نص، وينقسم إلى مكونين:

- ١-٣ مكون بنيوي يهتم بالعلاقات البنيوية، ويقوم النصية داخل الجملة.
- ٢-٣ مكون الاتساق، ويهتم بالعلاقات التي تتجاوز مستوى البنية وتجنح إلى إقامة النصية بين الجمل.

إن هذه الأعمال العلمية الجادة، والأبحاث المضمّنية، وإعمال الفكر والنظر في النصوص ومحاولة إيجاد نظرية مستوعبة للنص تمكننا من مقاربتة مقاربة علمية وموضوعية، انتهت إلى ابتكار علم جديد في حقل الدراسات اللسانية تم الاصطلاح عليه بثلاثة مصطلحات حسب المدارس والاتجاهات:

- نحوالنص.
- علم اللغة النصي.
- نظرية النص^(١).

حيث أصبح ينظر للنص على أنه:

١- علم اللغة والدراسات الأدبية «دراسة الأسلوب، البلاغة» علم اللغة النصي: برنند شبلنر، ترجمة محمود جاد الرب، ص ١٨١، الدار الفنية، القاهرة، ط ١، ١٩٩١م.

- أية فقرة ملفوظة أو مكتوبة، مهما كان طولها، بشرط تشكلها ضمن وحدة كلية متجانسة. فالنص وحدة لغوية في حالة استخدام، ومن ثم فهوليس وحدة نحوية، شأن العبارة أو الجملة.

- يحيل على كل بناء نظري مجرد، فدلالته ودلالة الخطاب واحدة.

- يحيل على أية سلسلة من العلامات اللفظية.

أما المعجم الموسوعي لعلوم اللغة، فيؤكد على المظهر اللفظي للنص، باعتباره سلسلة ملفوظات لسانية تتركب لتكوّن مجموعاً هوالنص الذي يتصف بخصائص صوتية ونحوية وتركيبية، بما يجعله دالاً على وحدات نصية تتميز بوجود علاقات تربط فيما بينها، شرط انطوائها على مستوى دلالي واضح، ثم يقرر أنّ كل مظهر من مظاهر النص، ينطوي على إشكالية، لأنه يستند إلى ضروب كثيرة من التحليل النصي، مثل التحليل البلاغي والسردى والغرضي⁽¹⁾.

إنّ دلالة النص التي تقترن بضرب من تركيب الألفاظ أو الكلمات، تشير إلى دلالة المصطلح اللغوية، التي تتصل بمعنى النسيج، وهو يحيل على سلسلة متتابعة من العلامات اللفظية، أو الإشارات الكتابية التي تنتظم في سياق يبرز تجانسها، بما يجعلها وحدة كلية متصلة العناصر، واضحة المغزى، تترابط مكوناتها نحويّاً، بما يكسبها استقلالاً ووحدة. لكن لوتمان يشترط المكونات الآتية بوصفها محددات للنص، وهي:

- التعبير.

- التحديد.

- الخاصية البنيوية.

فالمكوّن الأول يحدد النص بعلاقاته الداخلية، فإذا كان النص أدبيّاً، فالتعبير فيه يتم من خلال العلامات اللغوية، فيكون تجسيداً مادياً للكلام،

1- O.Ducrot et T. Todorov.Dictionnaire encyclopedique des sciences du language.P 375/376. Edition du Seuil.1972.

بوصفه جزءاً من ثنائية اللغة/الكلام.

والمكون الثاني تفرضه ضرورة معرفة الحدود التي تفصل النص عن غيره بوصفه نظاماً علامياً أي بما يكون عليه، أو يختلف به عن غيره من النظم العلامية.

والمكون الثالث يحدد طبيعة التنظيم الداخلي للنص، أي كونه ينطوي على بنية لها خصائصها النسقية الخاصة.

والنص عند جوليا كريستيفا «أكثر من مجرد خطاب أوقول، إنه موضوع لعديد من الممارسات السيميولوجية التي يعتد بها على أساس أنها ظاهرة عبر لغوية، بمعنى أنها مكونة بفضل اللغة لكنها غير قابلة للانحصار في مقولاتها، فالنص جهاز عبر لغوي، يعيد توزيع نظام اللغة بكشف العلاقة بين الكلمات التواصلية، مشيراً إلى بيانات مباشرة تربطها بأنماط مختلفة من الأقوال والمتزامنة معها، والنص نتيجة لذلك إنما هو عملية إنتاجية»^(١).

أما رولان بارت فإن مفهوم النص يأخذ عنده أبعاداً أخرى، فالنص عنده ليس فقط عملية إنتاج تتمثل في منتج لغوي أنتجته تقنية السرد والتصريف في الأسلوب، بل إنه يتجاوز ذلك ليصبح فضاء يحقق التواصل فيه صاحب النص وقارئه. ومن ثم فإن النص عملية تفاعلية بين المنتج والمتلقي أداته اللغة المتسمة بميسم الاتصال والتعبير والتمثيل، وقد طور رولان بارت هذا المفهوم في بحث له يحمل عنوان «من العمل إلى النص»^(٢) ١٩٧١م.

وهناك من يعتبر النص هوكل خطاب تم تشبيته بواسطة الكتابة، حيث يصبح مفهوم النص منطويًا على أن الرسالة المكتوبة مثل العلامة، فهي تضم من جهة مجموعة الدوال بحدودها المادية من حروف متسلسلة في

1- O.Ducrot et T. Todorov. Dictionnaire encyclopedique des sciences du langage. P443/453. Edition du Seuil. 1972.

٢- بلاغة الخطاب وعلم النص: صلاح فضل، ص ٣١٢.

النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق: عدنان بن ذريل، ص ٣، دمشق ٢٠٠٢.

كلمات وجمل وفقرات وفصول، ومن جهة أخرى المدلول بمستوياته المختلفة. فالنص - كما يقول بارت - «نظم لا ينتمي للنظام اللغوي ولكنه على علاقة وثيقة معه، علاقة تماس وتشابه في الآن ذاته. ويكون النص في سيميولوجيا الأدب أقرب إلى البلاغة منه إلى فقه اللغة»^(١).

ويفهم من كلامه أن النص لا يمكن أن يجد تأويله في بنيته الشكلية:

- الأصوات. - الصرف. - التركيب. - المعجم.

بل إن الأمر يتجاوز ذلك بكثير، ومعقد غاية التعقيد. فإذا كان النص نظاما تواصليا فعلا أداته اللغة، فإن تأويله لا يمكن أن يتحقق إلا باستحضار سياقه الداخلي، وسياقه الخارجي، ممثلا في الواقع الثقافى للمنتج والمتلقي.

والنص عند هاليدي ورقية حسين هو أي مقطع منطوق أو مكتوب أيا كان طوله يشكل كلا متحدا، ومن ثم فإن الترابط عندهما هو قوام النص^(٢).

وقد أكد على خاصية الترابط جملة من اللسانيين المعاصرين أمثال هارفيج الذي يعتبر النص ترابطا مستمرا للاستبدالات النظامية Syntagmatique التي تظهر الترابط النحوي في النص.

ويرى فاينريش أن النص ماهو إلا تكوين حتمي يحدد بعضه بعضا... إذ يستلزم عناصره بعضها بعضا لفهم الكل.

وفي نفس السياق نجد برنيكر يحدد مفهوم النص بناء على أنه تتابع متماسك من علامات لغوية أو مركبات من علامات لغوية لا تدخل تحت أي وحدة لغوية أخرى أشمل^(٣).

١- بلاغة الخطاب وعلم النص: صلاح فضل، ص ٢٢٠.

2- Halliday and Ruquaiya hassan. Cohesion in English.P3. longman. London 1979. and Newyork / 1981

٣- علم النص «أسسه المعرفية وتجلياته النقدية» جميل عبد المجيد حسين، ص ٥٤١، عالم المعرفة، المجلد ٢٣، العدد ٢، الكويت ٢٠٠٢.

أما بوجرانند ودريسلا فإنيهما أوليا عناية خاصة للكشف عن معايير النصية وقد انتهيا إلى تحديدها في ما يلي:

- الاتساق (التماسك): cohésion
- الانسجام: cohérence
- المقامية: situationnalité
- المقبولية: acceptabilité
- القصدية: intentionnalité
- التناس: intértéxtualité
- الإعلامية: informativité^(١)

ويمكننا أن نخلص إلى أن علم اللغة النصي يقوم «على فكرة أن النص يعد الموضوع الرئيسي في التحليل والوصف اللغوي. هذا على الرغم من أن الجملة تعد تقليديا ولا زالت أكبر وحدة لغوية. هكذا كانت النظرة إلى النحو والتحويلي في شكله المعروف الذي ظهر لأول مرة في السنوات الخمس عشرة الماضية على أنه نحو الجملة، فالجملة هي المقصد في القضية التحويلية. وتعرف اللغة في النظرية التحويلية على أنها مجموعة من الجمل التي ينتجها النحو، إن تركيبية (المتكلم / السامع) تتقرر بناء على الكفاية في نحوية الجمل وقبولها»^(٢).

والملاحظ عدم كفاية نحو الجملة لتأويل كثير من الكلمات والجمل والتعابير، لأن الأمر يتجاوز المكونات اللغوية الشكلية لاعتبارات غير لغوية، ثقافية بالأساس. مما يستلزم توظيف عناصر غير لغوية لمقاربة النص في كل أبعاده.

وقد انتهى علم النص إلى أن النص إذا كان نظاما لغويا متكاملًا

1- Debeaugrande and Dressler. Introduction to texte linguistics. P 7. longman. London and Newyork 1981

٢- علم اللغة النصي: برند شبلنر، ص ٤٨١.

ومستقلا، ويهدف إلى تحقيق التواصل الفعال بين المنتج والمتلقي فإنه يحتاج إلى أن يتوفر طرفا هذه الشائبة على ما يمكن الاصطلاح عليه بالكفاية النصية، وهي القدرة على إنتاج النصوص وتأويلها^(١).

١ - علم اللغة النصي، ص ٤٨١ وما بعدها.

المبحث الثالث القرآن الكريم وإشكالية التلقي

المرجعية الإيديولوجية لنظرية التلقي:

نظرية التلقي من النظريات الحديثة التي ظهرت في مجال السياسة والدعاية والإعلام، قبل أن تنتقل إلى مجال النقد الأدبي، وقد ظهرت بألمانيا قبل أن تنتشر في مختلف ربوع العالم، لنصبح أمام نظريات للتلقي، ونماذج للقراءات والقراء، تختلف وتتنوع حسب البيئات الثقافية والاجتماعية.

بالرجوع إلى المعاجم اللغوية والاصطلاحية، والموسوعات العلمية العربية والفرنسية والإنجليزية لا نجد بها تعريفا علميا لمصطلح التلقي كما هو متداول في النقد الأدبي^(١)، في حين إذا رجعنا إلى المعجم الألماني فإننا نجد به تعريفا دقيقا لمصطلح التلقي، بل يتجاوزه للحديث عن جمالية التلقي، وتاريخ التلقي، مما يبين أن «التلقي اكتسب مفهوما نظريا جديدا في نسق الفكر الألماني المعاصر، قبل أن يأخذ مثل ذلك في أنساق المعرفة الإنسانية»^(٢).

ارتبط الاهتمام بالتلقي بالأهداف السياسية والتوسعية، والرغبة في الهيمنة والسيطرة، وبدأ ذلك قبيل قيام الدولة النازية وطيلة مرحلة أخذها بزمام الحكم بألمانيا، حيث تم الاهتمام بالدعاية للنازية بشكل لافت للنظر، مما جعل كوبلز، وزير الرايخ لتتوير الشعب والدعاية، يعمل على إيجاد جهاز حكومي للسيطرة على الفكر، وذلك بالدعاية لفكر يمكن أن يصلح نموذجا للدولة الكلية، فتم التركيز على التفصيلات الدقيقة لإنتاج الأعمال الأدبية ونشرها، حيث يتم المزج بين الفن والأنباء لتقديم صورة انتقائية للواقع،

١- نظرية التلقي: إشكالات وتطبيقات، ص ٥١/٤١، منشورات كلية الآداب بالرباط، سلسلة: ندوات ومناظرات، رقم ٤٢، الرباط ٧٩١م.

٢- المرجع نفسه، ص ٥١.

تغيب الحقيقة وتحجب الموضوعية^(١).

والواقع إن ما نلاحظه اليوم غير بعيد عن العمل الدعائي الذي قام به النازيون، إلا أنه يأخذ أبعاداً أخرى، وصورا مختلفة، ولكنه في الجوهر واحد، حيث ينزع إلى تزوير الوقائع، وطمس الحقائق، مع تبني المنطق التبريري للغزو والقهر، وابتكار المبررات، وصنع الذرائع للهيمنة والاستحواذ على مقدرات الشعوب، مع الترويج لثقافة الخنوع، والتركيز على التحلل من المبادئ والقيم بالتشكيك في كل الثوابت، وتشجيع التناول على المقدسات، بقصد سلب الهوية، وطمس معالم الفرادة الحضارية للشعوب، وإيجاد ثقافة الدولة المتغولة التي تستهدف الداخل والخارج، فالداخل لا بد من إقناعه، والخارج لا بد من إخضاعه.

ومن ثم فإن الاهتمام بالتلقي هو اهتمام بكيفية ترويج نموذج ثقافي معين، والتمكين له، ضد النماذج الثقافية الأخرى، خاصة ما يتصورون أنه يمكن أن يسبب تهديداً للأمن القومي.

للتلقي إذن بعدان يتمثلان في التمكين والتصدي، والترسيخ لثقافة الصراع الحضاري تحقيقاً لنزوات زائفة، وتغيب منطق العقل والتعقل، والمصالح المشتركة، والإيمان بتكامل الحضارات، وأن صلاح العالم وغناه وجماله هو في تعدد الثقافات ووحدة الجنس البشري.

مما سبق يتبين لنا أن نظرية التلقي نشأت بألمانيا، قبيل الحرب العالمية الثانية لأسباب دعائية، ومن ثم كانت ذات طابع تطبيقي عملي أكثر منه نظرياً، إلا أنها أخذت بعيد الحرب بعداً آخر أقوى من حيث الاهتمام العلمي والسعي إلى التنظير، وكانت مطبوعة بعامل نفسي ألا وهو الشعور بالهزيمة، والإحساس بمدى فداحة الحرب، وما نتج عنها من ويلات وكوارث، خلفت جروحاً لا تندمل في الإنسان، وأخاديد عميقة في الطبيعة، يصعب رآب

١- نحو تأسيس نظرية تلقي قرآنية، مؤيد عزيز، ص ٦٢. آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد.

صدعها في المدى القريب أو المتوسط، وقد ورثت النفسية المكثومة المهزومة، نزعة قوية لنسيان الماضي، ومحاولة تجاوزه بمعايشة الحاضر وليد الماضي القريب، والتركيز على المستقبل الذي علقت عليه آمال الإنسان وتطلعاته لغد أفضل.

إن نظرية التلقي بتركيزها على القارئ، تتجاوز المنتج المبدع الذي يمثل الماضي، ولا تهتم كثيراً بالنص في حد ذاته الذي يمثل الحاضر الموصول بالماضي باعتباره نتاجه، لتولي عناية خاصة للقارئ المفترض أن يكون هو المستقبل المتجاوز للماضي، والمتعالي عن الحاضر، إنه القارئ الذي يمكن أن يأتي بما لم يدر بخلد الكاتب المنتج المبدع، لاختلاف واقعهما التقاي، وبذلك يشكل القارئ أفقا جديدة ورحبة للنص/ الخطاب. إنه القارئ الذي ينشئ الأمل ويصنع المستقبل.

تلكم في اعتقادنا هي الخلفيات الحقيقية للاهتمام بنقل المعلومات، ودرجة تقبلها ورواجها، ومن ثم الاهتمام البالغ بكيفيات الإرسال والتلقي وتقنياتها.

المرجعيات المعرفية لنظرية التلقي:

أما إذا حاولنا النباش في المرجعية المعرفية لنظرية التلقي فإننا قد نفاجأ باتساع هذه المرجعية وشموليتها لنظريات ومناهج متعددة ومتنوعة يمكننا حصر أهمها في:

- الشكلائية.
- البنوية.
- السيميوطيقا.
- نظرية التواصل.
- التحليل النفسي للأدب.
- المقاربات الماركسية للأدب.

- الفلسفة الظاهرية.
- الهيرمينوطيقا.
- علم النص المعرفي.
- الذكاء الاصطناعي.
- التفكيكية.
- تاريخ المناهج الأدبية.
- نظرية الأدب.
- نظرية الجمال.
- سوسيولوجيا القراءة^(١).

وغير خاف أن هذه النظريات والمناهج يثوي خلفها مرجعيات معرفية وفلسفية وأيديولوجية مما يبين غنى نظرية التلقي في صيغتها الألمانية، ذلك أنها لم تقف عند مظاهرها الشكلية، والجوانب الإجرائية، بل تجاوزت ذلك في طموح كبير لتتمثل أسسها الفكرية والعلمية والفلسفية والاستفادة من جوانبها الإجرائية، بغية أن تكون البديل الأكفى، فعملت على بلورت جهاز مفاهيمي غني ومعقد في أن معا يمكننا حصر أهم عناصره في ما يلي:

- القراءة: وهو مفهوم مركزي ترتبط به مفاهيم جزئية نحو: تعدد القراءة، وتاريخ القراءة، ومرجعيات القراءة، وآليات القراءة.

- القارئ: وهو مفهوم مركزي تفرعت عنه مفاهيم جزئية كمفهوم الفعل القرائي، وإبداع القارئ، وسلطة القارئ.

- أنواع القراءة: تعدد أنواع القراءة ويرجع ذلك في اعتقادنا إلى عاملين أساسيين: يمكننا أن نرجع العامل الأول إلى الثراء المعرفي لنظرية التلقي وأوبالأحرى نظريات التلقي، وأما العامل الثاني فمردده في الغالب الأعم

١- التلقي: لغز الدين إسماعيل، ص ١١.

لاختلاف الترجمات، وعدم وحدة المصطلح الدال على المفهوم. ومن ثم فإننا نجد أنفسنا بين عدد هائل من أنواع القراءة أحصينا منها ما يلي: القارئ بالقوة، والقارئ الضمني، والقارئ العادي المستهلك أو ما يمكن الاصطلاح عليه بالمتلقي الأول، والقارئ المتأمل أو ما يصطلح عليه بالقارئ الناقد، والقارئ المبدع أو ما يمكن الاصطلاح عليه بالقارئ الخبير الذي يتفاعل مع العمل الأدبي فينتج بدوره معارضا للمقروء بشتى صور المعارضة.

- أنواع القراءة: ما ذكرناه بالنسبة لأنواع القراءة يصدق تماما على أنواع القراءة، خاصة ما يتعلق باختلاف المصطلح الدال على المفهوم، إذ إننا في كثير من الأحيان نكون أمام ما يمكن الاصطلاح عليه بالترادف أو المشترك اللفظي، أكثر منه دلالة على اختلاف المفاهيم، ومن ثم ينبغي الاحتياط بعدم اعتبار كل مصطلح يحيل إلى مفهوم، وهذا يجعلنا أمام إشكال اصطلاحي يتمثل - إلى حد ما - في عدم استقرار المصطلح وتوحده.

يمكننا أن نحصر ما استطعنا الوقوف عليه من أنواع القراءة - وهوليس بقليل - في ما يلي: القراءة التفاعلية، والسياقية، والإسقاطية، والشارحة، والشاعرية، والعاملة، والتأويلية، والمحكمة، والمتواترة، والعمودية، والأفقية، والاستنساخية، والعارفة، والمستهلكة، والكشفية، والجمعية، والجمالية، والاسترجاعية.

- تعدد الكفاءات: الكفاءة التلفظية، والكفاءة التأويلية.

- التواصل الأدبي.

- القطب الفني «جمالية الإبداع» وتحققه الكتابة.

- القطب الجمالي «جمالية التلقي» وحققه القراءة.

- مستويات القراءة: الفهم، والتفسير، والتأويل.

- أهداف القراءة: صناعة المعنى، وصناعة الحياة.

- أفق الانتظار: وقد ارتبطت به ثلاثة مفاهيم فرعية وهي: اندماج الأفق، وتغير الأفق، والمنعطف التاريخي.

استطاعت نظرية التلقي من خلال غنى جهازها المفاهيمي، من بلورة تصور دقيق للظاهرة الأدبية، حيث جعلتها تقوم على المكونات الثلاث التالية:

- حياة الميلاد: ظروف إنتاج النص/الخطاب وظروفه.

- حياة النص/الخطاب: أي النص/الخطاب في حد ذاته ككائن مستقل عن المنتج/المبدع، وعن ظروف الإنتاج والتلقي.

- حياة التداول: أي النص/الخطاب في علاقته بمتلقيه أو قرائه.

إن أي عملية تأويل لا يمكن أن تكون مقبولة ما لم تستحضر هذه الأبعاد الثلاثة للظاهرة الأدبية، بحيث يتعين تأطيرها في مجتمعها من حيث إنتاجها، ومن حيث تجسدها، ومن حيث تداولها، مع التركيز على فاعلية القراءة في تحقق النص/الخطاب، وضمان حيويته وديمومته وتجده، ومن ثم يصبح النص/الخطاب كائنًا حيا بل مفعما بالحياة، وذلك بقابليته للتفاعل مع الإنسان والمجتمع.

إن ظروف تلقي النص/الخطاب ليست بالضرورة هي ظروف إنتاجه، وهما معا ليسا بالضرورة هو ذاته المحققة نصا وخطابا، كما أن منتج الخطاب ليس بالضرورة هو متلقيه، مما يبين أهمية التلقي في تحقيق كينونة النص/الخطاب وديمومته، كما أنها تكشف مدى صعوبة دراسة النص/الخطاب لتعدد أبعاده، وتنوع أوجهه التي يمكننا حصرها في:

- النص/الخطاب في حد ذاته، ويمكننا الاصطلاح عليه بالرسالة.

- المنتج: ويمكننا الاصطلاح عليه باصطلاحات مختلفة تمثل في تصورنا ترادفا يكاد يكون حقيقيا: المبدع، والكاتب، والمؤلف، والمتكلم، والمخاطب، والمرسل.

- ظروف الإنتاج: الواقع الثقافي للمرسل وللرسالة.

- المتلقي: الواقع الثقافي للمتلقي.

- ظروف التلقي: الواقع الثقافي الذي يتم فيه تلقي الرسالة.

يتبين لنا مما سبق أن نظرية التلقي استفادت من نظريات ومناهج متعددة ومتنوعة، مما أكسبها حيوية وخصوبة وانتشاراً، وقدرة على إثبات ذاتها في مجال الدراسات النقدية واللسانية، ومناهج تحليل الخطاب.

نظرية التلقي:

ركزت الدراسات النقدية في العمل الأدبي على المؤلف حيث اعتبرته مركز العملية الإبداعية والنقدية، وقد ظهرت الشكلانية الروسية والبنويوية، كرد فعل على المغالاة في تقدير المؤلف/الكاتب/المبدع/المنتج والمبالغة في الاهتمام به، فنادت بموت المؤلف، ودعت إلى الاهتمام بالنص ومكوناته، وبقي القارئ والقراءة والتفاعل مع النص بعيداً عن مجال الدراسة، وإن ثم التطرق إليه فإن ذلك يتم بشكل عرضي، إلى أن ظهرت نظرية التلقي ليبدأ التنظير للقراءة، وإعطاء أهمية خاصة للقارئ، ولتفاعل القارئ مع النص، وتعدد القراءات بتعدد القراء.

لقد سبق أن بينا صلة نظرية التلقي بنظرية التواصل، والواقع أننا عندما نتكلم عن التلقي فإننا نكون في صميم التواصل، ذلك أننا نكون بصدد مقارنة تفاعل القارئ مع النص، وتفاعل النص مع الواقع في بعده: واقع الإنتاج، وواقع التلقي، فتعدد القراءات يرتبط بشكل أساس بتغير الواقع الثقافي لكل قارئ - من جهة - ومخالفته - بشكل أو آخر - لواقع المنتج - من جهة أخرى - مما يجعل من كل قراءة إضافة نوعية في حالة القراء الخبراء والجادين، الذين تتحقق فيهم مواصفات القارئ المثالي، وأنه قد يقترب من الإضافة النوعية بقدر ما يحقق من أسباب القراءة الفاعلة والإيجابية.

وعلى كل حال، فإن القارئ مهما كان تكوينه، ومهما كانت ثقافته، وحيثما كان فإن قراءته ليست بالضرورة هي قراءة غيره. بل إن قراءة الشخص الواحد ليست بالضرورة هي القراءة نفسها في ظروف مختلفة، مما يبين نسبية المعنى المستفاد من النص عن طريق القراءة، دون أن نتطرق إلى حد إلغاء دور صاحب النص/المبدع/الكاتب/المنتج في إنتاج المعنى، ودون أن نبالغ في دوره إلى درجة إلغاء دور القارئ.

إن واقع القراءة يفيدنا في رسم معالم واقع التلقي، وهذا الأمر ليس جديدا بالمرّة، ذلك أننا إذا رجعنا إلى التراث اليوناني نجد اهتماما بالمتلقي، فأرسطو يستحضر المتلقي في صلب تعريفه للمأساة، حيث يقول في كتابه «فن الشعر»: «هي محاكاة فعل نبيل تام، لها طول معلوم، بلغة مزودة بألوان من التزيين تختلف وفقا لاختلاف الأجزاء، وهذه المحاكاة تتم بواسطة أشخاص يفعلون، لا بواسطة الحكاية، وتثير الرحمة والخوف فتؤدي إلى التطهير من هذه الانفعالات»^(١). ويتضح من هذا التعريف أن المأساة لا وجود لها إلا بالأثر الذي تحدثه في المتلقي باعتباره المستهدف في العمل المسرحي ككل، ويمكن النظر إلى طبيعة التلقي هنا باعتباره تلقيا سلبيا، حيث يكون المتلقي هو المستهدف المنفعل^(٢).

نجد عناية خاصة بالمتلقي/القارئ في تراثنا العربي الإسلامي، فالدراسات البلاغية والإعجازية والتفسيرية تكاد تجعل منه محور العملية الإبداعية والنقدية باعتباره المستهدف، وإن كانت النظرة تتم إليه على أساس أنه متلق إيجابي فاعل كما هو الشأن عند الفراء (ت ٢٠٧ هـ) الذي تحدث تصريحا أو تلميحا في مواضع متعددة من كتابه «معاني القرآن» عن

١- فن الشعر: أرسطوطاليس، ترجمة عبد الرحمن بدوي، ص ٨١، دار الثقافة، بيروت الطبعة الثانية، ٢٧٩١م.

٢- في مفهومي القراءة والتأويل: محمد المتقن، ص ٩، مجلة عالم الفكر، مجلد ٣٣، الكويت، أكتوبر/ دجنبر، ٢٠٠٢م.

مقصد المخاطب/المتلقي، ونمثل لذلك بتفسيره البسمة حيث يقول: «فأول ذلك اجتماع القراء وكتاب المصاحف على حذف الألف من ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وفي فواتح الكتب، وإثباتهم الألف في قوله ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾^(١).

وإنما حذفوها من ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أول السور والكتب لأنها وقعت في موضع معروف لا يجهل القارئ معناه، ولا يحتاج إلى قراءته، فاستخف طرحها، لأن من شأن العرب الإيجاز وتقليل الكثير إذا عرف معناه. وأثبت في قوله ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ لأنها لا تلزم هذا الاسم ولا تكثر معه ككثرتها مع الله تبارك وتعالى. ألا ترى أنك تقول «بسم الله» عند ابتداء كل فعل تأخذ فيه: من مأكّل أو مشرب أو ذبيحة. فخف عليهم الحذف لمعرفة بهم»^(٢).

إن الاهتمام بالمتلقي في التراث البلاغي، جعلت بعض الباحثين يعتبره نقصاً في الدرس البلاغي العربي، يقول رجاء عيد في دراسته النقدية للبلاغة العربية: «يشيع في مصطلحات البلاغيين مصطلح «مقتضى الحال» ويعنون به مراعاة الأسلوب للموقف الذي يستدعيه، بمعنى أن يراعي القائل أحوال المقول لهم، لكن البلاغيين نظروا دائماً إلى حال السامع أو المخاطب، ولم ينتبهوا - وهذا خطأ جسيم - إلى حال القائل نفسه، وما يكون في فنه النثري والشعري من دلالات تعبر عن موقفه هو تجاه الأشياء» وقد علل رجاء عيد ذلك السلوك تعليلاً طبقياً: «ولعل السبب يرجع إلى ذلك الجو الأرسطراطي، الذي كان يتعامل فيه الأديب مع السادة الأمراء والخلفاء، والطبقة المرفهة من المجتمع، مع مراعاة أحوالها وما يليق في مخاطبتها»^(٣).

١- سورة النصر، الآية ٢.

٢- معاني القرآن: أبو زكرياء يحيى بن زياد الفراء (ت ٧٠٢ هـ)، تحقيق أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، ج ١، ص ٢، الهيئة المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٩١ م.

٣- فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور: رجاء عيد، ص ٥٩، منشأة المعارف، ط ٢، القاهرة ١٩٩١ م.

إن ما ذهب إليه رجاء عيد لا يمكن القطع به، حيث إننا لا نعدم في تراثنا البلاغي الاهتمام بالكاتب/المنتج/المبدع/المتكلم، بل إننا نجد عناية خاصة به عند كثير منهم. فأبوهلال العسكري (ت ٤٠٠ هـ)^(١) بين في «كتاب الصناعتين» أن وظيفة الكتابة تتطلب معارف ضرورية، منها اختيار الألفاظ، للتعبير عن المعاني المناسبة في الوقت المناسب، مع امتلاك قدرات أخرى، تتجاوز المعاني والأسلوب إلى الموازنة بين أقدار المستمعين، وأقدار المعاني ومخاطبة كل طبقة بما يناسبها^(٢).

وما ذهب إليه أبوهلال العسكري (ت ٤٠٠ هـ) يقع ضمن اهتمام الدرس الأسلوبى الذي ينظر للظاهرة الأدبية باعتبارها ظاهرة إبداعية، لها مكوناتها التي لا يمكن أن نتجاهلها، إذا أردنا أن نلم إماما شافيا بها، وهي المبدع والرسالة، التي تجسد الإبداع، والمتلقي، فالمبدع «يملك القدرة على نقل أفكاره في أشكال وطرق متنوعة، وعليه فإن الخاصية اللغوية يمكن أن تثير انفعالات متعددة ومتميزة تبعا للسياق الذي ترد فيه، وينتج عن ذلك أن الانفعال نفسه يمكن أن نثيره بوسائل أسلوبية متعددة، وهكذا يكون لتكوين الأسلوب، وما ينتج عنه من أثر انفعالي، مطابقا لخاصية الدوال والمدلولات في الدراسة اللغوية»^(٣).

كما أن المبدع يمتلك القدرة على تمثل التجربة الشعورية، مع قدرة أخرى ألا وهي القدرة على التعبير عن التجارب «بالشكل الذي تظل فيه متماسكة مضغمة بالحوية مما يحرك نفوس الآخرين، ويوقظ انفعالاتهم، وتمثلهم

١- هو أبوهلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، لم يذكر المؤرخون تاريخ مولده ووفاته، قال السيوطي (ت ١١٩ هـ) مات بعد الأربعمئة.

٢- كتاب الصناعتين «الكتابة والشعر»: أبوهلال العسكري (ت ٤٠٤ هـ)، ص ٢٥١-٢٧١، دار الكتب العلمية، تحقيق مفيد قميحة، بيروت ١٨٩١م.

٣- البلاغة والأسلوبية: محمد عبد المطلب، ص ٧٥١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٤٨٩١م.

الجمالي للكون والحياة والناس»^(١).

إن الاهتمام بدراسة الأسلوب هو من صميم الاهتمام بالمبدع، ذلك أن الأسلوب هو المبدع، فلكل مبدع سمات أسلوبية خاصة به وتميزه عن غيره من المبدعين، وهي بمثابة بصمة اليد، أو الجينات التي يتمايز بها الناس وإن اشتركوا في صفات متعددة.

ومن هذا القبيل يمكننا أن نعتبر اهتمام البلاغيين ودارسي الإعجاز القرآني بالأسلوب اهتماما بالمتكلم، ونمثل لذلك بعملين يعطيان صورة ضافية عما نحن بصده، العمل الأول هو لأبي عبيدة (ت ٢١٠ هـ) الذي بين فيه أن القرآن الكريم عربي اللسان، وجاء موافقا لسنن العرب في الكلام: «إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، وتصداق ذلك في آية من القرآن، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾»^(٢).

فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي ﷺ أن يسألوا عن معانيه لأنهم كانوا عرب الألسن فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه، وعما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص. وفي القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب ومن الغريب والمعاني^(٣).

كما أولى أبو عبيدة عناية خاصة للطرق التعبيرية التي عدل إليها القرآن الكريم، للتعبير عن منظومته الفكرية والقيمية والتشريعية، مبينا أنها إمكانية من الإمكانيات الأسلوبية التي تتيحها اللغة والتي تمثل بعض أهم مظاهر فريدة القرآن الكريم: «ففي القرآن ما في الكلام العربي من الغريب والمعاني، ومن المحتمل من مجاز ما اختصر، ومجاز ما حذف، ومجاز

١- جماليات الأسلوب: فايز الداية، ص ٤١١، ط٢، دار الفكر، دمشق ١١٤١هـ/ ٢٠٩٩م.

٢- سورة إبراهيم، الآية ٤.

٣- مجاز القرآن: أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي (ت ١١٢ هـ)، تحقيق فؤاد سزكين، ج ١، ص ٨، مكتبة الخانجي، القاهرة ٤٧٢١ هـ / ٤٥٩١ م.

ما كف عن خبره ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد فوقع على الجميع، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الجميع ووقع معناه على الإثنين، ومجاز ما جاء لفظه خبر الجميع على لفظ خبر الواحد، ومجاز ما جاء الجميع في موضع الواحد إذا أشرك بينه وبين آخر مفرد، ومجاز ما خبر عن إثنين أو عن أكثر من ذلك، فجعل الخبر للواحد أو للجميع، وكف عن خبر الآخر، ومجاز ما خبر عن إثنين أو أكثر من ذلك فجعل الخبر للأول منهما، ومجاز ما خبر عن إثنين أو عن أكثر من ذلك فجعل الخبر للآخر منهما، ومجاز ما جاء من لفظ خبر الحيوان والموات على لفظ خبر الناس - والحيوان كل ما أكل من غير الناس وهي الدواب كلها - ومجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الغائب ومعناه مخاطبة الشاهد، ومجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب، ومجاز ما يزداد من حروف الزوائد ويقع مجاز الكلام على إلقائه، ومجاز المضمحل استغناء عن إظهاره، ومجاز المكرر للتوكيد، ومجاز المجرى استغناء عن كثرة التكرير، ومجاز المقدم والمؤخر، ومجاز ما يحول من خبره إلى خبر غيره بعد أن يكون من سببه فيجعل خبره للذي من سببه ويترك هو . وكل هذا جائز قد تكلموا به»^(١).

وقد اهتم أبو عبيدة بدراسة المعجم القرآني، باعتباره معجماً خاصاً، ومن ثم فهو جزء لا يتجزأ من الاستراتيجية التواصلية التي سلكها القرآن الكريم لبلوغ أهدافه ومقاصده ونمثل لذلك بتفسيره لقوله ﴿فَقَنِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾^(٢).

﴿عَسَى اللَّهُ﴾ هي إيجاب من الله، وهي في القرآن كلها واجبة فجاءت

١- مجاز القرآن: لأبي عبيدة، ج ١، ص ٩١/٨١.

٢- سورة النساء، الآية ٤٨.

على إحدى لغتي العرب، لأن عسى في كلامهم: رجاء ويقين^(١).

ويقول في تفسيره لقوله تعالى: «سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرَضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَصُورُكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»^(٢): «قوله إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» أي العادلين، يقال: أقسط يقسط إذا عدل، وقوله تعالى: «وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا»^(٣) الجائرون الكفار، كقولهم: هجد: نام، وتهجد: سهر^(٤).

أما العمل الثاني فهو متأخر عن الأول بحوالي أربعة قرون وهو لابن أبي الإصبع (ت ٦٥٤ هـ) والمعنون بـ «تحرير التعبير» حيث نقف على استقرار المصطلح البلاغي، مما يفصح عن التطور الهائل الذي عرفه الدرس البلاغي، والذي أفاد منه الدرس النقدي، والدرس الإعجازي، وقد حاول استقصاء الأساليب التعبيرية الفنية فوصل بها إلى أصولا وفروعا وما اخترعه إلى خمسة وعشرين ومائة^(٥).

وليس معنى ذلك أن ابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤ هـ) لم يول أهمية للمتكلم، ذلك أننا نجد في كثير من المواضع من كتابه يعرف الأساليب التعبيرية الفنية تعريفا يبين اهتمامه بالمتكلم، بل إنه يوليه عناية خاصة باعتبارها المبدع المالك لإرادة، تجعله يضع استراتيجية خاصة به لبلوغ

١- مجاز القرآن: لأبي عبيدة، ج ١، ص ٤٣١.

٢- سورة المائدة، الآية ٢٤.

٣- سورة الجن، الآية ٥١.

٤- مجاز القرآن: لأبي عبيدة، ج ١، ص ٧٦١/٦٦١.

٥- تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: أبوالإصبع المصري (ت ٤٥٦ هـ)، تحقيق جفني محمد شرف، ص ٦٥، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ٢٨٣١ هـ / ٣٦٩١ م. «يقصد بالأصول أنواع البديع التي أتى بها ابن المعتز في بديعه، وقدامة بن جعفر في نقده وعددها خمسة وستون نوعا. ويقصد بالفروع: الألوان التي اكتشفها العلماء، وأنوا بها في كتبهم، بعد قدامة وابن المعتز، ولم يقف عمله عند هذا الحد، بل اخترع ثلاثين لونا...».

في تعريفها على الرسالة^(١)، ونمثل لذلك بتعريفه للمماثلة حيث قال: «وهوأن تتماثل ألفاظ الكلام أو بعضها في الزنة دون التقفية، كقوله تعالى: «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾»^(٢).

فالطارق والثاقب وحافظ تماثلات في الزنة دون التقفية»^(٣).

وقد ركز ابن أبي الإصبع المصري على المتلقي في تعريفه لسته ألوان^(٤)، ونمثل لذلك بتعريفه للتهذيب والتأديب حيث تتم العناية بحسن إخراج الرسالة، مما يبين استحضار المتكلم المبدع للمتلقى: «التهذيب عبارة عن ترديد النظر في الكلام بعد عمله لينقح، ويتنبه منه لما مر على الناثر أو الشاعر حين يكون مستغرق الفكر في العمل، فيغير منه ما يجب تغييره، ويحذف ما ينبغي حذفه، ويصلح ما يتعين إصلاحه، ويكشف عما يشكل عليه من غريبه وإعراجه، ويحرر ما لم يتحرر من معانيه وألفاظه، حتى تتكامل صحته، وتروق بهجته، فإنه من رزق من أصحاب الفصاحة جودة ذهن، وغوص فكر، وكمال عقل، واعتدال مزاج، وحسن اختيار، ووقف على أقوال النقاد في حقيقة البلاغة، وكنه الفصاحة، وما عد من محاسن الكلام وعيوبه، ووقى شح نفسه، بحيث يسمح بطرح ما لا يقدر على تغييره من كلامه، كان كلامه موصوفاً بالمهذب، منعوتاً بالمنقح، وإن قل ابتكاره للمعاني»^(٥).

ويقول في تعريفه للقول بالموجب: «وهوأن يخاطب المتكلم مخاطباً بكلام فيعمد المخاطب إلى كل كلمة مفردة من كلام المتكلم فيبني عليها من لفظه ما يوجب عكس معنى المتكلم، وذلك عين القول بالموجب، لأن حقيقته رد

١- تحرير التحرير: لابن أبي الإصبع المصري، الصفحات: ٩٥١-٤٩١-٧٩١-٠٠٢-٨٢٢-٧٥٢-٠٦٢-٣٦٢-١٧٢-٥٧٢-٧٩٢-٥٠٣-١٢٣-٢٢٣-٣٢٣-٩٢٣-٦٨٣-٥٢٤-٩٢٤-١٤٤-٩٥٤-٤٨٥-١١٦.
٢- سورة الطارق، الآيات ٤/٢.

٣- التحرير والتحرير: لابن أبي الإصبع، ص ٧٩٢.

٤- المرجع نفسه، الصفحات: ١٠٤-٣٦٥-٥٦٥-٨٦٥-٤٧٥-٩٩٥.

٥- التحرير والتحرير: لابن أبي الإصبع، ص ١٠٤.

الخصم كلام خصمه من فحوى لفظه»^(١).

وفي بعض الأحيان يدمج ابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤ هـ) مكونات أو ثلاثة «المتكلم / المتلقي / الرسالة»، ذلك أن دراسة النص / الخطاب عملية مركبة وصعبة، وأن مقاربتهما من جانب واحد يعتبر تبسيطاً مخللاً لا يمكننا من سبر أغوارهما.

ويتبين مما سبق أن إطلاق الأحكام بناء على معطيات جزئية ودون استقراء تكون مجافية للواقع، ولا تعكس الحقيقة، مما يمكننا اعتباره تجنياً على تراثنا العربي الإسلامي، وإزراء بالبحث العلمي الموضوعي والنزيه.

إننا نعتقد أن التعليل الطبقي للاهتمام بالمتلقي في التراث البلاغي العربي الإسلامي يجانب الصواب، ذلك أن الأمر يحتاج إلى أن نؤطره في إطاره الحقيقي: العقدي والمعرفي والحضاري بصفة عامة، ذلك أن الدرس البلاغي شأنه شأن كل العلوم العربية الإسلامية، إنما نشأ لخدمة القرآن الكريم، ومعلوم أن القرآن الكريم كلام الله تعالى، وأن الله تعالى مطلق متعال عن الزمان والمكان، ومن ثم فلا يمكن للإنسان الإحاطة به، وقد كان التوجه العام في الثقافة العربية الإسلامية عدم البحث في عالم الغيب وإنما الإيمان به، وتعزيز ذلك الإيمان بالبحث في الطبيعة والإنسان باعتبارهما آيتين من آيات الله، الدالة على وجوده وقدرته، وعلمه حكمته، وقد أطر ذلك حديث رسول الله ﷺ: ((تفكروا في الخلق، ولا تتفكروا في الخالق فإنه لا يدرك إلا بتصديقه))^(٢).

وغير خاف أن الإنسان عندما يبحث في الطبيعة ينتج العلوم الطبيعية، وعندما يبحث في الإنسان ينتج العلوم الإنسانية، وأن البحث العلمي الموضوعي يقود إلى تركية الإيمان، إذ إن الإنسان يكتشف وحدة الخلق

١- المرجع نفسه: ص ٩٩٥.

٢- سبق تخريج الحديث في ص ٥٦.

ووحدة النظام وهما دالان على وحدة الخالق، كما أنه عندما يجد الحقيقة العلمية مطابقة للإخبارات القرآنية والنبوية، فإن ذلك يزكي إيمانه بأن يجعله مؤسساً على العلم والمعرفة.

إن الدرس البلاغي لم يخرج عن هذا النطاق، ومن ثم اتجهت عناية الدارسين إلى الاهتمام أكثر بالمتلقي والنص/الخطاب في حد ذاته باعتبارهما العنصرين اللذين يمكن اتخاذهما موضوعاً للدراسة، أما صاحب النص/الخطاب ألا وهو الله جل جلاله فإنه لا يمكن أن يكون موضوع الدراسة، لأنه متعال عن الزمان والمكان، ولا يمكن للنسبي أن يحيط علماً بالمتلقي.

إن استحضارنا للأسلوب يمكننا من فهم نظرية التلقي فهماً جيداً، حيث إن المسألة مرتبطة باللغة العامة التي يستعملها الناس في بيئة لغوية منسجمة، واللغة الخاصة التي هي عبارة عن إمكانية من بين الإمكانيات التعبيرية الهائلة التي تتيحها اللغة، باعتبار أن الأسلوب اختيار وانزياح، كما أن المعرفة بالعالم من قبل المتكلم والمتلقي، وهي معرفة محققة أو محتملة، أو في حالة ثالثة تكون متحققة بدرجات متفاوتة لديهما، دون أن نغفل أنه بمقدار تحققها المشترك تتجسّد عملية التواصل، مما يعطي هامشاً كبيراً من الإمكانيات التي تصبح الرسالة حاملة لها، ومفصحة عنها أوقابلة لأن تفصح عنها، وهذا هو ما يعرف بالمعنى المضمر، والمعنى الضمني، والمعنى الاقتضائي، وغيرها من الإمكانيات الدلالية التي تحويها الرسالة. ومن ثم يصبح المبدع فاعلاً actant والمتلقي منفعلاً réactant في مستوى الإنتاج، لتتقلب الأدوار في مستوى التلقي حيث يصبح المبدع منفعلاً ويصبح المتلقي فاعلاً. وبذلك ندرك أن عملية التلقي ليست قتلاً للمؤلف بقدر ما هي تفاعل خلاق وإيجابي بين المتكلم والمتلقي والرسالة.

إن الاهتمام بالمتلقي كما سبق بيانه، كان حاضراً في الثقافة العربية

الإسلامية لكنه لم يرق إلى مستوى التنظير الذي حققته نظرية التلقي مع روادها جويس Hans Robert Jaus وأيزر Wolfgang Iser حيث يتم النظر إلى علاقة القارئ بالنص على أساس فلسفي من خلال العلاقة بين الذات والموضوع. وهي التي تفصح عن تجدد المعنى المستخلص من قراءة القراء، بل القارئ الواحد إذا قرأ النص في ظروف مختلفة فإن المعنى الذي يحصله ليس هو بالضرورة ما حصله سابقا، مما يبين أن النص يثوي خلفه المعنى في شكل طبقات بعضها فوق بعض، والقارئ يحصل المعنى بقدر ما يراكم من معلومات ومعارف، ويقدر ما يوليه من أهمية وعناية. ويقدر العلاقة التي يؤسسها مع النص المقروء، ترتفع الحجب وتتفتق الأستار، ويكشف النص عن مكوناته. ذلك أننا عندما نقرأ نصا فإننا نتعامل مع كائن حي ينبض بالحياة، باعتباره نتاجا بشريا، ووليد معاناة، ولا يمكن أن يسمح لنا باقتحام عوالمه ما لم نؤسس علاقة حميمية بيننا وبينه.

يتبين لنا مما سبق أن القراءة مسؤولية وأمانة، وليست ترفا فكريا، كما أنها ليست لعبة تأويلية تهدف إلى تغيير الواقع، وتزييف الوقائع، والتلاعب بالأفكار والقيم والمبادئ، بدعوى أن النص فاقد المعنى، وأن القارئ هو الذي يحدث المعنى فيه.

إن القراءة تحقق للنص في واقع معين، وهذا أمر واقعي، ويمكن البرهنة عليه علميا، وذلكم في اعتقادنا هو ما حاول فعله رواد المدرسة الألمانية في التلقي وعلى رأسهم يابوس وأيزر.

اهتمام المسلمين بنظرية التلقي:

إن اهتمام المسلمين بنظرية التلقي يندرج ضمن عالمية الرسالة الإسلامية: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(١)، والتمكين لمنطق تكامل الحضارات: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا

١- سورة الأنبياء، الآية ٧٠١.

وَقَائِلٌ لِنِعَارِهِمْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَ كُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَيْرٌ ﴿١﴾، وتحسين الذات والدفاع عن الهوية والعمل على تقويتها: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿٢﴾. مما يجعل على عاتق مثقفي الأمة اليوم - أكثر من أي وقت مضى - مواجهة تحديات العصر بإبراز حقائق الإسلام الحنيف والعمل على نشرها قياما بواجب البيان: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ ﴿٣﴾. كما يندرج ضمن البلاغ: «أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾.

ومن ثم وجب علينا الاهتمام بكيفية فهم خطابنا، وبعد ذلك العمل على إيصاله إلى الآخر، لذلك نحن معنيون بكيفيات الإرسال والتلقي وتقنياتها. كما أننا في حاجة ملحة إلى البحث عن العوامل الفعالة لعمليتي الإرسال والتلقي، ومن ثم فالاهتمام بدراسة تلقي القرآن الكريم خاصة ليس ترفا فكريا بقدر ما هو حاجة ملحة وضرورة مستحكمة، فضلا عن أننا نملك رسالة حقيقية مكتملة البناء من حيث العقيدة والمعرفة، ومن حيث القيم والوظيفة: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴿٥﴾.

مما يجعلنا قادرين - إن أردنا - على إيجاد نظرية في الإرسال والتلقي مستمدة من القرآن، كلام الله عز وجل الذي وجه خطابه إلى الإنسان الذي خلقه وأحاط به علما، فكان الخطاب القرآني يناسبه من كل جانب، وبالتالي تحقق به التواصل بين الإنسان وربيه وبين الإنسان وأخيه الإنسان، فكان استجابة لضرورة، وإشباعا لحاجات.

١- سورة الحجرات، الآية ٣١.

٢- سورة آل عمران، جزء من الآية ١١٠.

٣- سورة النحل، الآية ٤٤.

٤- سورة الأعراف، الآية ٢٦.

٥- سورة المائدة، الآية ٣.

- القراءة المقاصدية للقرآن الكريم:

إن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون مشرعا أمام مطلق القراءات، ذلك أنه رسالة الله إلى العباد وهو مرتبط بمقصد هو تحقيق هداية البشر. ومن ثم فإنه لا يمكن أن يحتل من القراءات إلا ما كان محققا لمقصد الوقوف على مضمون الرسالة، والذي حدده علماء التفسير في تعريفهم للتفسير بقولهم: «علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالاته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية»^(١)، ويستفاد من ذلك أن قراءة القرآن يجب أن تكون قراءة مقاصدية لأننا لا نقرأ القرآن من أجل القراءة، ولا يمكن أن نجعله مفتوحا أمام أية قراءة. وإن كان يحتملها. ذلك أن الهدف سيضيع منا ألا وهو تعبيد الحياة. كل الحياة. لله رب العالمين.

ومن هنا فالقارئ يقرأ القرآن بهدف الوقوف على مضمون الرسالة الربانية، ليحقق التواصل بينه وبين الله تعالى، عن طريق معرفة الأوامر والنواهي الإلهية في التوحيد والتزكية والعمران، فيعمل على التزامها وتطبيقها في الحياة، ليسعد في الدنيا بحياة آمنة مطمئنة، وليفوز برضى الله تعالى في الآخرة: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٢).

ومن هنا، فالقراءة المشروعة للقرآن هي هذه القراءة المقاصدية التي تهدف إلى معرفة مراد الله تعالى، وإحاطته إلى واقع عملي كما كان يفعل الرسول ﷺ عندما كان يعمل على تحويل تعاليم السماء إلى واقع معيش، حتى وصفته السيدة عائشة - رضي الله عنها - بأنه كان قرآنا يمشي على

١- علوم الدين الإسلامي: عبد الله شحاته، ص ٥٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٨٩١م.

٢- سورة القصص، الآية ٧٧

الأرض، كما وصف ﷺ بأن خلقه القرآن^(١)، وأنه كان ﷺ يتأول القرآن^(٢) أي يعمل على تنزيله على الواقع.

إن لهذه القراءة المقاصدية مستويات متعددة، يجسدها التراث التفسيري المنضبط بآداب التفسير وشروطه، أي بأخلاقيات العالم المتصف بالإخلاص والصدق، والتجرد عن الهوى، وطهارة النفس وسلامة القلب، وعفة الكيان وقوة البيان. لا يرغب إلا فيما عند الله، ولا يخاف إلا الله تعالى، رجل فاضل ندب نفسه لخدمة العمران، والقيام بأعباء الاستخلاف. وهذه الشروط الذاتية هي التي اصطلح عليها علماءنا بآداب العالم، وسمت العلماء، وهي التي نصطلح عليها اليوم بأخلاقيات العالم. ويمكن كذلك تقسيم الشروط المعرفية إلى قسمين:

- قواعد التفسير: وهي شروط علمية محضة هدفها تأهيل الإنسان لولوج غمار تفسير القرآن الكريم.
- أصول التفسير: وهي شروط منهجية هدفها عصمة المفسر من الوقوع في الخطأ.

أما ما تفلت من القراءة من هذه الشروط الذاتية والمعرفية فهو مجاف للصواب بقدر ثقلته منها. والموقف نفسه يمكن اتخاذه ممن يريدون مقارنة القرآن الكريم بمناهج لا تراعي خصوصياته، ولا تحفظ له فرادته وتميزه عن معهود كتابات البشر. ومن هنا لا يمكن أن نقبل أن تكون القراءة إعادة كتابة للنص، أو ما يمكن الاصطلاح عليه بإعادة إنتاج النص، بحيث نجعل من النص فاقدا للمعنى، ونحن الذين نضمنه المعنى.

إن القراءة، بهذا المعنى، ستكون مجافية للحقيقة التي يقرها الواقع،

١- خلق أفعال العباد: للبخاري، باب خلقه القرآن، ج ١، ص ٨٦١.

٢- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري النيسبوري (ت ١٦٢ هـ)، تحقيق عبد الله أحمد أبي زينة، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ج ٢، ص ٢١، رقم الحديث ٩٨١. دار الشعب، القاهرة، ١٩٣١ هـ.

فلا يمكن أن نتصور نصا كتبه صاحبه دون أن يودعه معنى، ثم يمكن أن أختار معنى غير الذي قصده صاحب النص، فأودعه معنى آخر، ولكنني ساعتها لن أكون قارئاً لهذا النص بقدر ما سأكون قارئاً لأفكاري ومعتقداتي وقيمي ومواقفي في ثنايا هذا النص.

إن التوجه الصائب هو ما يمكن أن نميز فيه بين ثلاثة مستويات للنص، وهي: النص، ومنتج النص، ومتبع النص.

فنحن نعلم أن ظروف إنتاج النص ليست هي ظروف تلقيه، وهما معا ليسا بالضرورة النص. وهذا الأمر مسلم به لدى الدارسين، حيث نرى أن علماء التفسير كانوا حريصين على تدوين أسباب النزول وملابساته . السياق اللغوي وغير اللغوي للقرآن الكريم . وهو ما يمثل الواقع الذي نزل فيه القرآن الكريم: الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية المواكبة لنزول القرآن الكريم. وعدم استحضارها يمكن أن يوقعنا في مزالق تفسيرية حيث سنضل الطريق المفضي إلى مراد الله تعالى من الخطاب القرآني، فنخلط بين العام والخاص، والمطلق والمقيد وغيرها من المزالق..

كما أننا نستحضر عند تلقي القرآن الكريم واقع المتلقين، وهو مبرر تعدد التفاسير لأن القرآن نزل ليعتد به الناس في كل زمان ومكان. وما دامت ظروف الناس ليست بالضرورة واحدة، بل الواقع يؤكد تمايزها واختلافها في أشياء، وكذلك اتفاقها في أشياء أخرى، فإن هذا يجعلنا نتحدث عن الثابت والمتطور في التفسير، ويجعلنا كذلك نتحدث عن تطور التفسير، بمعنى رصد اختلاف المعاني المستفادة من النص / الخطاب القرآني الكريم مع تعاقب الأزمنة. وهو الذي يجعلنا كذلك نصر في الآونة الأخيرة على ضرورة مراعاة واقع المفسر، حتى نتمكن من إدراك خصوصيات الزمان والمكان، وما اكبهما من فهوم مختلفة عما سبقها، ولكنها مناسبة لزمانها ومكانها.

وقدمكننا الربط بين تفسير القرآن الكريم والواقع الذي أنتج فيه هذا التفسير من التوصل إلى حقيقة مهمة، وهي أن التفسير ليس ترفاً فكرياً بقدر ما هو مشروع حضاري، يتوخى تنزيل النص القرآني الكريم على الواقع، بغية تثبيته وتركيته إذا كان موافقاً للشرع، أو العمل على تعديله وتقويمه لينسجم مع مقتضيات الشرع الحكيم إذا كان مخالفاً له، ومن ثم تعبيد الحياة كل الحياة لله رب العالمين.

مما سبق يتبين لنا أن قراءة القرآن الكريم تأخذ أبعاداً ثلاثة وكلها عبادة بنص القرآن الكريم:

١- التلاوة: أي قراءة القرآن الكريم من المصحف، أو عن ظهر قلب، أو الاستماع إليه يقول سبحانه: ﴿فَأَقْرءُوا مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾^(١).

٢- التدبر: أي إعمال الفكر والنظر في أي الذكر الحكيم بغية استنباط مراد الله تعالى، يقول سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٢)، وقوله ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٣).

٣- الاتباع: أي تنزيل النص القرآني على الواقع، وفق ما وعاه الإنسان المؤمن العالم عن ربه، يقول ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾^(٤) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾^(٥) ﴿فَإِذَا قُرْآنُهُ فَانْتَعِلْهُ﴾^(٦) ﴿ثُمَّ إِنِّي عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾^(٧).

إن وظيفة الرسول ﷺ التلقي والبلاغ، والله تعالى تكفل بالبيان^(٨). ومن ثم فإن صلاح الإنسان في الدنيا والآخرة يقتضي اتباع الرسول ﷺ

١- سورة المزمل، الآية ٢.

٢- سورة النساء، الآية ٢٨.

٣- سورة محمد، الآية ٤٢.

٤- سورة القيامة، الآيات ١٦/١٩.

٥- في ظلال القرآن: سيد قطب، ج ٦، ص ٣٧٦٧.

والنزل عند أمر الله عز وجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١)، ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^(٢).

- أسس التلقي السليم:

يتبين لنا مما سبق أن تعدد قراءة القرآن الكريم أمر وارد إن لم يكن مطلوباً، ومن ثم قرر المفسرون قاعدة تفسيرية مفادها أن القطع على الله تعالى بالمراد بدعة، وذلك لأن الفهم الذي ينتهي إليه الإنسان مهما كان عالماً وتقياً ومخلصاً فإنه محدود في الزمان والمكان، ورهين بمستواه العلمي، وبيئته الثقافية. ومن ثم فإنه لا يلزم من يفوقه علماً. كما أن تغير الأزمنة والأمكنة هو الآخر عامل أساس من عوامل تعدد القراءة، ومن ثم يتعين ربط التفسير بالواقع الذي أنتجه، كما أن اختلاف زاوية النظر بناء على اختلاف التخصصات العلمية والمشارب الثقافية هو كذلك عامل من العوامل الموضوعية لتعدد القراءة.

ولكي تكون قراءة القرآن الكريم محققة للمقصد، لا بد أن تتوفر فيها ما يمكن أن نطلق عليه بأسس التلقي السليم، والتي يمكن حصرها في ما يلي:

- ١- القرآن كلام الله تعالى مقدس ومعجز، ومتمتع عن الزمان والمكان.
- ٢- القرآن الكريم كتاب إلهي أنزل لهداية البشرية، وله الدور الكبير في البناء الحضاري للأمة الإسلامية: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾^(٣).
- ٣- القرآن الكريم كتاب حياة: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ

١- سورة الحشر، الآية ٧.

٢- سورة الحجر، الآية ٩٩.

٣- سورة البقرة، الآية ١٨٥.

الْكَافِرِينَ ﴿١﴾. ومنهج للاتباع: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (٢).

٤- وجوب الانتفاع بالقرآن في كل مجالات الحياة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (٣).

ومن ثم يتعين التعامل مع القرآن الكريم باعتباره تعاليم ربانية تنبض بالحياة، لا حروفا وكلمات وجملا جامدة.

٥- التزام منهج الصحابة في تلقي القرآن الكريم، حيث كانوا عندما يقرأون آية أو بضع آيات يعملون فكرهم فيها حتى يعوها ويعملوا بمقتضاها، وبذلك جعلوا القرآن حجة الشهود الحضاري، والسبيل إلى العمران والاستخلاف.

٦- وصل القرآن الكريم بالواقع المعيش، وربطه بقضايا العصر، وذلك قصد تعبيد الحياة كل الحياة لله رب العالمين، وبهدف تحكيم القرآن في الواقع، ورد كل الأمور لله تعالى.

٧- تبني المنهج الاستنباطي، وذلك باستمداد العقيدة والمبادئ والقيم والأخلاق من القرآن الكريم، وتأسيس المواقف عليها. بحيث يصبح القرآن أميرا يقتدى ويتبع على كل حال، فلا نقدم عليه عقولنا أو أذواقنا أو أهواءنا. وبذلك نتجنب المنهج الإسقاطي الذي اصطلح عليه علماءنا في مجال التفسير بلي عنق النص، أي جعل القرآن تابعا لا متبوعا.

٨- إن عملية استنباط المعنى من النص / الخطاب القرآني ليست عملية بسيطة بل هي في غاية التعقيد، لذلك وجب استحضار الأمور التالية:

١- سورة يس، الآية ٠٧.

٢- سورة الإسراء، الآية ٩.

٣- سورة الأنفال، الآية ٢٤.

أ- صاحب الخطاب.

ب- مقصد الخطاب.

ج- استراتيجية الخطاب.

ح- واقع إنتاج الخطاب

هـ- المتلقي.

و- ظروف التلقي.

ي- مقصد المتلقي.

وهكذا، فإن التلقي السليم ينتهي بنا إلى الوقوف على جلال القرآن الكريم وجماله.

المبحث الرابع لغة القرآن الكريم

من الإشكالات التي تعرض لنا ونحن بصدد مقارنة القرآن الكريم مقارنة لسانية إشكالاتان يتمثلان في: اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، والألفاظ غير العربية في القرآن الكريم.

- اللغة التي نزل بها القرآن الكريم:

صحيح أن القرآن الكريم، باعتباره نصا - المكتوب - وخطابا - المفوظ-، منجز في إطار اللغة العربية، كما بين ذلك القرآن الكريم نفسه، وأكد في نصوص قرآنية متعددة بلغت أحد عشر نصا، منها قوله وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وقوله ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٢﴾

ولكن هذا الأمر لا يحسم المسألة بشكل نهائي، بقدر ما يثيرها من جديد، إذ إننا نتساءل عن ماهية اللسان العربي؟ سنجيب بأنه اللغة العربية الفصحى، لي طرح سؤال جديد، ما هي اللغة العربية الفصحى؟

اختلفت الآراء - قديما وحديثا - حول اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، ويمكننا حصر هذه الآراء في ما يلي:

- ١- القرآن نزل بلغة قريش خاصة.
- ٢- القرآن نزل بلغات العرب كلهم.
- ٣- لغة القرآن لغة منتقاة، فهو نزل باللغة الأدبية المشتركة.
- ٤- في القرآن ما ليس عربي اللسان.

١- سورة النحل، الآية ٣٠١.

٢- سورة الشعراء، الآيات ٣٩١/٥٩١.

- الرأي الأول:

وهو قديم يرجع إلى عهد عثمان رضي الله عنه (ت ٣٥ هـ) حين شكل لجنة أوكل إليها جمع القرآن من الصحف التي كتبها أبوبكر رضي الله عنه (ت ١٣ هـ)، وقد كانت اللجنة مكونة من ثلاثة قرشيين وهم: عبد الله بن الزبير رضي الله عنه (ت ٧٣ هـ) وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي رضي الله عنه (ت ٤٣ هـ) وسعيد بن العاص رضي الله عنه (ت ٥٩ هـ) وواحد من الأنصار وهوزيد بن ثابت رضي الله عنه (ت ٤٥ هـ)^(١).

وقبل أن تشرع اللجنة في عملها زودهم عثمان رضي الله عنه بتوجيه مفاده أنهم إن اختلفوا مع زيد في شيء من القرآن كتبوه بلغة قريش، لأن القرآن نزل بلغتهم^(٢).

والواقع أنه لا يمكننا فهم مراد الإمام عثمان رضي الله عنه إلا بالرجوع إلى الرواية الكاملة لواقعة جمعه للمصحف التي أوردها الإمام البخاري (ت ٢٥٦ هـ) في صحيحه في نصين هما:

١- (حدثنا ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن ارسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن

١- مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص ٨٣، دار القلم، الكويت ٤٠٤١ هـ / ١٩٩١ م.
رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية: غانم قدوري الحمد، ص ٥١١/٢١١، مؤسسة المطبوعات العربية، بيروت، ط ١، ٢٠٤١ هـ / ٢٨٩١ م.

٢- الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ١١٧٦ هـ)، ج ١، ص ٢٢. دار الكتب العلمية بيروت، ط ١، ٨٠٤١ هـ / ٨٨٩١ م.

هشام فتسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا. حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق^(١).

٢- (أخبرني أنس بن مالك قال: فأمر عثمان زيد بن ثابت وسعد بن العاص، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها في المصاحف، وقال لهم إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن فاكتبوها بلسان قريش فإن القرآن أنزل بلسانهم ففعلوا)^(٢).

ويتضح من ترجمة البخاري للباب المقصود بقول عثمان رضي الله عنه: «فاكتبوه بلسان قريش فإن القرآن نزل بلسانهم» حيث قال: «نزل القرآن بلسان قريش والعرب، قرأنا عربيا بلسان عربي مبين»، حيث الإحالة على القرآن الكريم ومحاولة بيان أن كلام عثمان رضي الله عنه لا يتعارض مع نص القرآن الكريم، أي إن القرآن نزل بلسان عربي، وهو ما ذهب إليه بعض العلماء في تأويل كلام عثمان رضي الله عنه.

يقول القاضي ابن الطيبي (ت ٤٢٢ هـ): «معنى قول عثمان رضي الله عنه فإنه نزل بلسان قريش» يريد معظمه أو أكثره، ولم تتم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط، إذ فيه كلمات وحروف هي خلاف لغة قريش، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٣) ولم يقل قرشيا. وهذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب، وليس لأحد أن يقول: إنه أراد قريشا من العرب دون غيرها، كما أنه ليس له أن يقول: أراد

١- صحيح البخاري: الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ___ (ت ٦٥٢ هـ) كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، ج ٦، ص ٩٩، دار الفكر، بيروت، بدون طبعة ولا تاريخ.

٢- صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب، ج ٦، ص ٧٩.

٣- سورة الزخرف، الآية ٣.

لغة عدنان دون قحطان، أوريعة دون مضر، لأن اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولاً واحداً^(١).

والملاحظ من تعليق ابن الطيبي (ت ٤٢٢ هـ) أنه يستدل بالواقع اللغوي للقرآن الكريم، وبنص القرآن الكريم.

وقد بين يوسف بن عبد الله بن محمد النمري بن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ) أن القول بأن القرآن نزل بلغة قريش هو على جهة التغليب، ذلك أن القرآن الكريم وردت في قراءاته الصحيحة ما ليس من لغة قريش، وضرب مثلاً لذلك تحقيق الهمزات، في حين نجد قريشا تميل إلى تسهيل الهمز لا تحقيقها.

ويقرر أبو عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) أن القرآن نزل بلغة قريش خاصة، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(٢).

- الرأي الثاني:

ويذهب أصحابه إلى أن القرآن الكريم نزل بلغات العرب جميعاً، وإذا تتبعنا ما كتبه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ) في مقدمة تفسيره عن اللغة التي نزل بها القرآن فإننا نخلص إلى أن الله تعالى أنزل جميع القرآن بلسان العرب دون غيرها من ألسن الأمم والشعوب، وأن القرآن الكريم نزل ببعض من ألسن العرب دون الجميع^(٣).

وقد فسر القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) وعبد الحق بن غالب بن عطية (ت ٥٤٢ هـ) الأحرف السبع التي نزل بها القرآن أنها «سبع لغات في القرآن

١- الجامع لأحكام القرآن: للطبري، ج ١، ص ٢٣.

٢- سورة إبراهيم، الآية ٤.

٣- جامع البيان في تأويل القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٣ هـ) ج ١، ص ٥٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢١٤١ هـ / ٢٩٩١ م.

على لغات العرب كلها، يمتنها ونزارها، لأن الرسول ﷺ لم يجهل شيئاً منها، وكان قد أوتي جوامع الكلم. وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن، فبعضه بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن.

وقال الخطابي (ت ٢٨٨هـ) إن في القرآن ما قرئ بسبعة أوجه، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مُثَوِّبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَعَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾^(١)، وقوله ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَب وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٢) وذكر وجوها، كأنه يذهب إلى أن بعضه أنزل على سبعة أحرف لا كله.

وإلى هذا القول - بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف بمعنى سبع لغات - ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام واختاره ابن عطية^(٣).

وقد ذكر الخوئي أن من بين المنتصرين لهذا الرأي أعلام من أصحاب السنن كالبيهقي (ت ٤٥٨ هـ) ومن اللغويين صاحب القاموس الفيروز آبادي (ت ٨١٧ هـ)^(٤).

وحاول قوم حصر لغة القرآن الكريم في لغة مضر، فرد قولهم بالرجوع إلى واقع اللغة المتداولة بين مضر قبل نزول القرآن الكريم إذ فيها ما هو «شاذ لا يجوز أن يقرأ به مثل كشكشة قيس، وتمتمة تميم، فأما كشكشة قيس فإنهم يجعلون كاف المؤنث شيئا فيقولون في قوله تعالى: ﴿فَنَادَيْنَاهَا مِن حَحْنِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْنَكِ سَرِيًّا﴾^(٥) «جعل ربكِ تحتش سرية»، وأما

١- سورة المائدة، الآية ٥٦.

٢- سورة يوسف، الآية ٢١.

٣- الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، ج ١، ص ٣٣.

٤- البيان في تفسير القرآن: أبو القاسم الموسوي الخوئي، ص ٥٨١، ط ٤، دار الزهراء، بيروت، ٥٩٣١ هـ / ٥٧٩١ م.

٥- سورة مريم، الآية ٤٢.

تمتمة تميم فيقولون في الناس: «النات»، وفي: أكياس: «أكيات». قالوا: وهذه لغات يرغب عن القرآن بها، ولا يحفظ عن السلف فيها شيء»^(١).

وقد حاول اللغويون حصر اللغات التي وردت في القرآن الكريم في خمس لغات وقد قال بذلك ابن سلام، أوسع لغات مثلما فعل أبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٥ هـ) وابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ).

ويعلق الأستاذ محيسن على ذلك بأن القراءات الصحيحة مشتملة على لغات كثيرة من لغات العرب تفوق ما ذكروا^(٢)، ولتأكيد ما ذهب إليه عمد إلى إحصاء اللهجات الواردة في رسالة اللغات في القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام، فانتهى إلى أن عدد القبائل التي وردت لهجتها في القرآن تسع وعشرون قبيلة، على رأسها قريش بأعلى نسبة ورود، فهذيل فكنانة فجرهم فحمير، ثم تتالت القبائل بنسب متفاوتة^(٣).

ولعل هذا ما حدا بأبي عبيد القاسم بن سلام إلى القول: «وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظا فيها من بعض»^(٤) أي إن لغة القبائل العربية في القرآن الكريم ليست على درجة واحدة من حيث نسبة الورد، بل هي متفاوتة.

- الرأي الثالث:

يتبنَّاه مجموعة كبيرة من الباحثين المحدثين^(٥) حيث يؤكدون أن القرآن

١- الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، ج ١، ص ٤٣.

٢- في رحاب القرآن الكريم: محمد سالم محيسن، ج ١، ص ٩٨، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ٢٠٤١هـ / ٢٨٩١م.

٣- في رحاب القرآن الكريم: ج ١، ص ٤٣١.

٤- تفسير القرطبي، ج ١، ص ٣٣.

٥- ملامح من تاريخ اللغة العربية: أحمد نصيف الجنابي، ص ٥، دار الرشيد للنشر، العراق ١٨٩١. ودراسات اللهجات العربية القديمة: داود سلوم، ص ٣١، عالم الكتب، لبنان، ط ١، ٦٠٤١هـ / ٦٨٩١م. والفصحى بين نظريتين: نظرية القدماء ونظرية المحدثين: حسن عيسى أبو ياسين، مجلة جامعة الملك سعود، مج ٣، ص ٠٣، الآداب ١٠١٤١هـ / ١٩٩١م. ومستقبل اللغة المشتركة: إبراهيم أنيس، ص ٨، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة ٦٩١م.

الكريم نزل باللغة العربية المشتركة، وهي لغة الأدب والمحافل الراقية. وهي ليست لغة قريش بل هي خليط من اللهجات المختلفة التي استخدمها الشعراء والخطباء والحكماء والكهنة، ويستدلون على ذلك بأدلة منها :

يوجد في القرآن الكريم أكثر من خمسمائة جذر يعود إلى قبائل مختلفة ومتناثرة، مما يؤكد أن القرآن الكريم لم يكن بلهجة قريش خالصا، وإنما نزل بلغة أدبية رفيعة راقية ربما ساعدت قريش على احتضانها^(١).

- توجد بالقرآن الكريم ألفاظ تعود لمختلف القبائل العربية.

وهذان الدليلان يبينان أن واقع النص القرآني، باعتباره معطى لغويا، يقرر اشتماله على الفصيح من لغات القبائل مع اختلاف في نسبة الحضور، وهذا ما يؤكد البحث العلمي الذي أعده الدكتور الجندي عن اللهجات العربية استنادا إلى بعض مصادر القراءات القرآنية، فقد انتهى الباحث إلى أنه :

- وردت خمسة عشر لهجة بمختصر شواذ القراءات للحسين بن أحمد بن خالويه (ت ٣٧٠ هـ) وحققت لهجة تميم أعلى نسبة ورود.

- ووردت خمسة عشر لهجة بكتاب المحتسب في شواذ القراءات لأبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ) تصدرتها لهجة تميم ثم الحجاز فعقيل وهذيل وقيس لتتوالى بعد ذلك اللهجات الأخرى بالنسب نفسها.

- ووردت ثمانية عشر لهجة في كتاب «إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع» لعبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم أبي شامة (ت ٦٦٥ هـ)، وقد حققت لهجة الحجاز أعلى نسبة ورود، ثم تلتها تميم فهذيل فقيس فكنانة، لتتوالى بعد ذلك اللهجات الأخرى بالنسب نفسها.

والملاحظ أن لهجة تميم تتصدر قائمة اللهجات التي وردت في القراءات

١- دراسة اللهجات العربية القديمة: داود سلوم، ص ٥١.

الشاذة، وتأتي بعدها لهجة الحجاز، أما القراءات المتواترة فإننا نجد لهجة الحجاز تتبوأ الصدارة لتتلوها لهجة تميم، مما يبين أن لهجة الحجاز هي الأفضح والأكثر تداولاً في المجتمع العربي لورودها في القراءات المتواترة أكثر من اللهجات العربية الأخرى.

ولا يفوتنا أن نبين أن من لهجة الحجاز ما هوشاذ بحيث لم يحقق درجة الفصيح، مما يقوم دليلاً على أن الفصيح ليس حكراً على لهجة الحجاز، ويقوم ذلك دليلاً على أن لغة القرآن الكريم ليست هي لغة الحجاز وحدها، بل هي اللغة المشتركة بين كل العرب^(١).

وهناك من يذهب إلى تعزيز نزول القرآن الكريم باللغة العربية المشتركة بواقع تلقي الصحابة - رضوان الله عليهم - للقرآن الكريم، حيث نجدهم متفاوتين في فهم القرآن الكريم، وقد يُفسَّر هذا بتفاوت قدراتهم العقلية والفكرية، ولكن الأمر يتجاوز ذلك حيث إن بعض كبار الصحابة المشهود لهم بالنبوغ الفكري وحصافة الرأي حتى كان الناس يفزعون إليهم طلباً لتفسير القرآن الكريم، هؤلاء الصحابة الكرام كنا نجدهم في مواقف متعددة لا يعرفون معاني بعض الألفاظ القرآنية لسبب بسيط يتمثل في كونها كانت معروفة عند بعض القبائل، ولكنها لم تكن معروفة عندهم^(٢).

ويحاول الدكتور قلعجي حل هذا الإشكال عن طريق الربط بين لغة القرآن والأحرف السبعة التي رخص بها الحق سبحانه حيث بين «أن القرآن نزل أول ما نزل بلهجة قريش لأنها أفصح لهجات العرب، ولأنها خلت من كل مستبشع مستقبج، ولكن لما دخل الناس في دين الله أفواجا ابتداء من العام التاسع للهجرة تعذر على كثير من الداخلين في الإسلام قراءة القرآن

١- اللهجات العربية في التراث: أحمد علم الدين الجندي، ج ١، ص ٧١، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا ٢٨٩١م.

٢- لغة القرآن: لغة العرب المختارة: مجد رواس قلعجي، ص ٨٤، دار النفائس، بيروت، ط ١، ٨٠٤١هـ/١٩٨١م.

الكريم بلهجة قريش نظرا لانطباع أسنتهم على لهائهم، فسأل رسول الله ﷺ ربه التخفيف فنزلت الرخصة بجواز قراءة القرآن الكريم بلهجات العرب الفصيحة المتداولة»^(١).

وما ذهب إليه الدكتور قلعجي يصب في النهاية في مصب اللغة المشتركة، ويظل الفرق في القول بعربية القرآن المشتركة في المأل وواقع الحال.

ونحب أن نبين الفرق بين القول إن القرآن نزل بلغة عربية مشتركة وبين القول إنه نزل بلغات العرب جميعا. إن مقتضى القول الأول أن اللغة العربية بلغت مرحلة النضج قبل الإسلام بمدة كافية مكنت العرب من إنشاء الأدب بها شعرا ونثرا، والقدرة على التصرف وإظهار البراعة فيها. والقرآن الكريم نزل بهذه اللغة المشتركة بين القبائل العربية.

أما القول الثاني فمؤداه أن القرآن الكريم هو الذي عمل على توحيد اللغة العربية، وإيجاد الفصحى التي أضحت لغة فنية مشتركة بين كل العرب، وعاملا أساسيا من عوامل توحيد العرب وجمع كلمتهم.

والرأي الذي تسعفه الحجة، ويسنده الدليل، ويؤكداه الواقع اللغوي للعربية قبل نزول القرآن الكريم، والواقع اللغوي للقرآن نفسه، أنه لم ينزل بلغة قريش خاصة، ولا بلغة كل العرب، بل نزل باللغة العربية الفصحى وهي اللغة العربية المشتركة بين كل القبائل العربية، وهي لغة فنية خالصة فوق اللغة العادية، لغة التداول اليومي. وقد تكونت هذه اللغة العربية المشتركة في البيئة المكية لاعتبارات دينية وسياسية واقتصادية. سبق ذكرها، كما أن قريشا هي التي قامت بدور الاختيار والاصطفاء للأفصح من لغات القبائل وفق معيار التحضر ومجافة البداوة واقتصاد المجهود، وقد تم ذلك بشكل عفوي غير مقصود ولا مرتب له، أي إنه تم بشكل تلقائي واستمر لعقود من الزمن، فهو تطور لغوي تعرفه اللغات الطبيعية. وكل ذلك يقوم دليلا على

١- المرجع نفسه، ص ٢٤.

أن القرآن الكريم فوق حدود اللهجات الضيقة^(١).

ونحب أن نبين في ختام هذا المبحث أن الدراسات المسحية التي أجريت على القرآن الكريم، واستثمرت فيها الإمكانيات الهائلة التي يتيحها الحاسوب قد بينت أن ألفاظ القرآن الكريم - علماً أننا نحدد الألفاظ في الأفعال والأسماء دون الحروف - تبلغ تسعمائة وواحد وخمسين ألفاً (٥١٩٠٠)، منها واحد وستون وخمسمائة لفظ هي أسماء لبعض الملائكة والأنبياء والرسل والصالحين^(٢)، ومنها اثنان وسبعون ومائة لفظ من أصل غير ثلاثي أي إن جذور تلك الألفاظ تحتوي على أكثر من ثلاثة أحرف مثل (برزخ) و(خردل) و(سلسيل).

تشكل الألفاظ ذات الأصل الثلاثي التي يتكون جذر كل منها من ثلاثة أحرف مثل (كتب) و(قرأ) الغالبية بحيث يبلغ عددها سبعة وستين ومائة وواحد وخمسين ألف لفظ بنسبة ٩٨٪ من مجموع ألفاظ القرآن الكريم، وما يبدأ منها بحرف الهمزة يشكل الأغلبية من حيث الورد، حيث يبلغ عدد الجذور المبتدئة بالهمزة سبعين ومائة وثمانية ألف لفظ، وأقلها ما يبدأ بحرف التاء، حيث لا يتجاوز عدد الألفاظ المبتدئة بالتاء ثلاثة وخمسين ومائتي جذر. وإذا قمنا بمقارنة ما ورد في القرآن الكريم، مع ما ورد في معجم الصحاح للجوهري، فإننا سنكتشف أن الجذور المبتدئة بالهمزة في القرآن الكريم قد بلغ عددها ستة وسبعين جذراً، في حين يبلغ عددها في الصحاح سبعة وثمانين ومائة جذر، أي إن ما ورد منها في القرآن الكريم يشكل ٤٠٪ من تلك الجذور^(٣).

وإذا قمنا بإحصاء أنواع الجذور الثلاثية الواردة في القرآن الكريم

١- ملامح من تاريخ اللغة العربية: للجناي، ص ٥.

٢- مجلة العلم والإيمان: «العلاقة بين ألفاظ القرآن وألفاظ اللغة العربية» د/ علي حلمي موسى، العدد ١٧، ص ٥٨، ليبيا ١٩٩١، ومجلة عالم الفكر: «استخدام الآلات الحاسبة في دراسة ألفاظ القرآن الكريم» د/ علي حلمي موسى، المجلد ٢١، العدد ٤، ص ٣٥١، الكويت، ٢٨٩١.

٣- مجلة العلم والإيمان: العدد ١٧، ص ٦٨.

نجدها تبلغ أربعين وستمائة، بينما نجد أن ما ورد بمعجم الصحاح من الجذور الثلاثية هو أربعة عشر وثمانمئة وأربعة ألف جذر أي إن نسبة ورودها بالقرآن الكريم قد بلغت ٣٤ ٪ من مجموع الجذور الثلاثية الواردة في معجم الصحاح، وهذا يعني أن ما ورد في القرآن الكريم من جذور ثلاثية يمثل أكثر من ثلث جذور اللغة العربية الثلاثية.

وبصفة عامة فإن القرآن الكريم قد استعمل ٣٤ ٪ من معجم اللغة العربية، علماً أن القرآن الكريم ليس من المؤلفات الضخمة الحجم، وإنما هو يصنف ضمن المؤلفات المتوسطة الحجم. في الوقت الذي نجد فيه أن أي أديب مهما بلغت قدرته الأدبية واللغوية لا يمكن أن يستخدم أكثر من ٥ ٪ من معجم لغته ويظل يستعمله طوال حياته في جميع إنتاجه الأدبي، مما يقوم دليلاً آخر على أن القرآن الكريم معجز^(١)، وأنه: ﴿كَتَبَ أَحْكَمَ آيَاتِهِ، ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^(٢).

٢- الألفاظ غير العربية في القرآن الكريم:

يقرر الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ) في تحرير هذه المسألة أن علماء الأمة أجمعوا على أنه «ليس في القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب، وأن فيه أسماء أعلام لمن لسانه غير لسان العرب، كإسرائيل وجبريل، وعمران ونوح ولوط»^(٣). والخلاف الحاصل هو في الألفاظ المفردة غير أسماء الأعلام. وقد اختلفت معالجة علمائنا للمسألة قديماً وحديثاً :

- محمد بن جرير بن يزيد الطبري (ت ٣١٠هـ):

يستند الإمام الطبري في دراسة هذه المسألة إلى تفسيره للقول المأثور عن السلف «في القرآن من كل لسان»، ويبين أن معنى هذا القول أن اللفظ

١- مجلة العلم والإيمان : ص ٧٨.

٢- سورة هود، الآية ١.

٣- الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، ج ١، ص ٩٤.

المدعى بأعجميته مما تستعمله اللغة العربية واللغات الأخرى. وأنه لا يمكن إثبات أصله. كما أنه يبين معيارا من معايير الحكم بعربية اللفظ أو عجمته وهو المتمثل في الاستعمال «فلو عرف استعمال بعض الكلام في أجناس من الأمم بلفظ واحد ومعنى واحد كان ذلك منسوبا إلى كل جنس من تلك الأجناس»^(١). وينتهي الإمام الطبري إلى أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وأنه ليس فيه كلام أعجمي، لأن القول بخلافه يتعارض مع ما أخبر به الحق سبحانه من أنه جعله قرآنا عربيا، وأنه من خوارم الاعتقاد^(٢).

- محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (٦٧١ هـ)

يورد القرطبي آراء العلماء في المسألة ويبين أن الطبري قال: «ليس فيه لفظ غير عربي وأن ما نسب إلى العجمة من ألفاظه هو من قبيل توارد اللغات أي ما يمكن الاصطلاح عليه بالمشترك بين اللغات. وهناك من العلماء من يقول إن فيه ألفاظا غير عربية مستدلين بوجود ألفاظ تركية أو فارسية وذلك لا يطعن في عربية القرآن الكريم. كما يبين القرطبي أن ابن عطية (ت ٥٤٢ هـ) يقول بوجود ألفاظ غير عربية في القرآن الكريم ولكن العرب عربتها فأضحت عربية»^(٣). واستبعد القرطبي قول الطبري باتفاق اللغات في استعمال لفظ ما بدليل أن اللفظ لا بد أن يكون في لغة أصلا وتستعيره لغة أخرى. أما الحكم بالأعجمية بدعوى مخالفتها لأوزان كلام العرب فيرده القرطبي مستدلا ب:

- استقرار اللغة عمل لا يمكن لأحد أن يدعيه.

- البحث العلمي كفيلا يرد الكلمات المنسوبة للعجمة إلى أصول اشتقاقية عربية.

- إذا كان اللفظ أعجميا لا تعرفه العرب فمقتضى ذلك أن الله تعالى

١- المرجع نفسه، ج ١، ص ١٧.

٢- المرجع السابق، ج ١، ص ١٨.

٣- المرجع نفسه، ج ١، ص ٥٠.

خاطب العرب بما لا يعرفون وهو أمر يتعارض مع عربية القرآن ومع مخاطبة الرسول ﷺ لقومه بلسانهم^(١).

- الدكتور محمد سالم محيسن:

يبين أن العلماء انقسموا في هذه المسألة إلى ثلاث طوائف:

أ- القائلون بخلو القرآن الكريم من الألفاظ الأعجمية وهم: الإمام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) وأبو عبيدة (ت ٢١٠ هـ) والإمام الطبري (ت ٣١٠ هـ) وابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) والباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) ويستدلون على رأيهم بالقرآن الكريم نفسه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٢)، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾^(٣).

كما يستدلون بإعجاز القرآن الكريم للعرب وذلك يقتضي أن يعجزهم بما يعرفون لا بما لا يعرفونه.

وقد ذكر الدكتور محيسن ابن عطية (ت ٥٤٢ هـ) ضمن القائلين بأن القرآن الكريم ليس فيه لفظ أعجمي، واستدل على ذلك بنص منسوب إليه مفاده أنه «كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلغتهم بعض مخالطة لسائر الألسن بتجارات وبرحلتى قريش وبسفر مسافرين... فعلقت العرب بهذا كله ألفاظا أعجمية غيرت بعضها بالنقص من حروفها وجرت في تخفيف ثقل العجمة واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها، وحتى جرت مجرى العربي الفصيح ووقع فيها البيان.

١- جامع البيان للطبري ج ١، ص ١٥

٢- سورة يوسف، الآية ٢.

٣- سورة فصلت، الآية ٤٤.

وعلى هذا الحد نزل بها القرآن، فإن جهلها عربي فكجهله الصريح بما في لغة غيره.

فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية، ولكن استعملتها العرب وعربتها فهي عربية بهذا الوجه^(١).

إننا إذا أمعنا النظر في هذا النص، وأجلنا الفكر فيه مليا، وأطرناه ضمن الدراسة العامة للمشكل، فإننا نجد ابن عطية يقول برأي آخر غير الذي انتهى إليه الدكتور محيسن ألا وهو القول بالتوسط في هذه المسألة.

ب- القائلون بورود ألفاظ أعجمية في القرآن الكريم: وقد قال بذلك ابن جبير (ت ٩٥ هـ) وابن النقيب (ت ٦٩٨ هـ) والسيوطي^(٢) (ت ٩١١ هـ) وهم يعتقدون بأن ورود الألفاظ غير العربية في القرآن الكريم لا ينفي عنه عربيته بدليل أن القصيدة الفارسية لا تخرج عن اللغة الفارسية بلفظة عربية.

وقد اعتبر ابن النقيب أن ورود ألفاظ غير عربية في القرآن الكريم ميزة تميز بها القرآن الكريم عن باقي الكتب المنزلة التي نزلت بلغة قومها ولم يرد فيه شيء بلغة غيرهم.

ج- التوسط: وهو الرأي الذي يحاول التوفيق بين النفاة والمجوزين حيث يقول بوجود الأعجمي غير أنه مما عربته العرب وتداولته. فهو لفظ عربي في الحال أعجمي في الأصل^(٣)، واستعمله القرآن الكريم باعتباره لفظا عربيا^(٤).

١- في رحاب القرآن الكريم: محمد سالم محيسن، ج ١، ص ١٧١.

٢- معترك الأقران: للسيوطي، ج ١، ص ١٩٧/١٩.

الإتقان في علوم القرآن: للسيوطي، ج ٢، ص ١٠٢.

٣- المغرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم: أبو منصور موهوب بن الخضر الجوالقي (ت ٥٤٠ هـ): تحقيق أحمد شاکر، ص ٣٥، دار الكتب، القاهرة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م.

٤- في رحاب القرآن: محمد سالم محيسن، ج ١، ص ١٧٤.

- الدكتور عبد الصبور شاهين:

بين أن الكلمات الأعجمية رغم قلتها فإنها تثير داخل النص القرآني مشكلة الأصل الأعجمي^(١).

وقبل أن يشرع في دراسة المشكل، فقد نص على أن دراسة القدماء له تتسم بالخطابية، فأدلتهم منحصرة غالباً في سوق آية أو الاستناد إلى دعوى عامة بأن في القرآن من كل لسان، مرجعاً سبب ذلك إلى قلة معرفتهم باللغات الأخرى^(٢). وهذا لا يمنع من أن بعض علمائنا قد حاول مقارنة المسألة مقارنة علمية إذ نجد الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ) يبين أحد أهم مقاييس عروبة اللفظ أو عجمته والمتمثلة في نسبة شيوع اللفظ في العربية^(٣).

وأضاف الجوهري (ت ٣٩٣ هـ) مقياساً صوتياً يتمثل في أن الجيم والتاء لا تجتمعان في كلمة عربية إلا أن يكون معها أحد حروف الذلاقة التي حصرها ابن يعيش (ت ٦٤٣ هـ) في اللام والنون والراء^{(٤)(٥)}.

كما أن ابن جني (ت ٣٩٢ هـ) وضع بعض مقاييس تعريب الأعجمي والمتمثلة في:

أ- أن يعرب الأعجمي بتحريك آخره.

ب- أن تدخل عليه الألف واللام.

ج- أن يشتق منه^(٦).

١- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث: عبد الصبور شاهين، ص ٣٠٧، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٦٦م.

٢- المرجع نفسه، ص ٣٣٦.

٣- المرجع نفسه، ص ٣٤٣.

٤- شرح المفصل: موفق الدين بن يعيش النحوي (ت ٦٤٣ هـ)، ج ١٠، ص ١٢٥، عالم الكتب، بيروت بدون تاريخ.

٥- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث: عبد الصبور شاهين، ص ٣٥٣.

٦- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث: ص ٣٢٧/٣٢٨.

ثم شرع الدكتور شاهين في دراسة المسألة دراسة تفصيلية، فقسم الألفاظ المنسوبة إلى العجمة إلى ما ينتمي منها إلى :

- متصرف مثل: «الدين»^(١) و«أقلامهم»^(٢) و«طفقا»^(٣) و«كنز»^(٤) و«سيدها»^(٥) و«سرادقها»^(٦) و«الأولى»^(٧) و«الآخرة»^(٨) و«إناء»^(٩). وغيرها، وهذه الكلمات لا يمكن الحكم بعجمتها، وأقصى ما يمكن قوله حصول تبادل تاريخي في هذه الألفاظ، من العربية وإليها في عصور متقدمة يصعب معها تحديد الأصل^(١٠).

- ١- نحو قوله تعالى: ﴿تَلِكِ يَوْمَ الْيَوْمِ﴾ (الفاتحة ٤). وقد وردت لفظة «الدين» في سبعة وأربعين موضعا من القرآن الكريم.
- ٢- ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْ يَأْتِهِمْ بِكِتَابٍ مَرِّمٍ﴾ (آل عمران: ٤٤). وقد وردت لفظة «أقلامهم» مرة واحدة في القرآن الكريم.
- ٣- ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاكَ الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهَا سَوءُ ثَمْمِهَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنْدِ﴾ (الأعراف: ٢٢). وقد وردت لفظة «طفقا» مرتين في القرآن الكريم.
- ٤- ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا نُوحِيَ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ (هود: ١٢). وقد وردت لفظة «كنز» ثلاث مرات في القرآن الكريم.
- ٥- ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَقَ الْأَبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفِيَا سَيْدَهَا لَدَا الْأَبَابِ﴾ (يوسف: ٢٥). وقد وردت لفظة «ألفيا» مرة واحدة في القرآن الكريم.
- ٦- ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا مِنْ سُرَادِقِهَا﴾ (الكهف: ٢٩). وقد وردت لفظة «سرادقها» مرة واحدة في القرآن الكريم.
- ٧- ومنه قوله تعالى: ﴿كَالَ حَذَاهُ وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ (سورة طه: ٢١). وقد وردت لفظة «الأولى» في القرآن الكريم أربع عشرة مرة.
- ٨- ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ أَلِدَارُ الْأَخْزَرِ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٩٤). وقد وردت لفظة «الآخرة» في القرآن الكريم واحداً وسبعين مرة.
- ٩- ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرِ بْنِ سِنَةٍ﴾ (الأحزاب / ٥٣). وقد وردت لفظة «إني» مرة واحدة في القرآن الكريم.
- ١٠- الفراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث: عبد الصبور شاهين، ص ٨٥٣.

- وغير متصرف نحو: «جهنم»^(١) و«دينار»^(٢) و«سجيل»^(٣) و«تنور»^(٤) و«سندس»^(٥) فجمود هذه الكلمات ونظيراتها دليل عجمتها بشرط أن يكون في اللغة المنسوب إليها متصرفا، وأكثر شيوعا فيها من اللغة العربية.

ثم ينظر الدكتور شاهين في استعمال اللفظ ومدى شيوعه، لينتهي إلى أن الكلمة إذا لم تكن شائعة في العربية، ولا متصرفة فإننا نكون بالنسبة للألفاظ السامية أمام احتمالين:

- ١ - أن يكون اللفظ من المشترك السامي، وهو في العربية أقدم.
- ٢- أن له أصلا مماتا^(٦).

ومن ثم فإن القول بعجمة لفظ ما مشروط بـ:

- أن يكون وجود اللفظ في اللغة المنقول عنها أتم تصرفا، أما إذا تساوى في الجمود في العربية وفي غيرها فإن الاحتمال الراجح هو أنه عربي ممتا الأصل، أو أن اللغة الأخرى أخذته عن العربية، أو أنه من السامي المشترك^(٧).

-
- ١- ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلِئْسَ إِلِهَآذٌ﴾ (البقرة: ٢٠٦). ووردت لفظة «جهنم» في القرآن الكريم واحدا وسبعين مرة.
 - ٢- ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَيَنْهَرُ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتِينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧٥). وقد وردت لفظة «دينار» مرة واحدة في القرآن الكريم.
 - ٣- ومنه قوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَاقِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مُّنْضُوبٍ (هود: ٨٢). ووردت لفظة «سجيل» في القرآن الكريم ثلاث مرات.
 - ٤- ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَكَانَ الْنُورُ قَلِيلًا أَوَّلَ حَيْثُ مِنَّا مِنْ كُلِّ مَوْجٍ آتَيْنَاهُم مِّن سَبْقٍ عَلَيْهِ الْقَوْلَ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (هود: ٤٠). ووردت لفظة «التنور» مرتين في القرآن الكريم.
 - ٥- ومنه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَآئِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف: ٣١). ووردت لفظة «سندس» ثلاث مرات في القرآن الكريم.
 - ٦- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث: عبد الصبور شاهين، ص ٢٤٥.
 - ٧- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث: عبد الصبور شاهين، ص ٢٥٤.

لقد عرض علماؤنا لمشكلة الألفاظ الأعجمية في القرآن الكريم متجهين لتجاهات ثلاث: نفي وإثبات وتوسط بينهما، وهم بذلك يؤكدون جملة حقائق هي من صميم البحث اللساني، ويمكن إجمالها في ما يلي:

- اللغة نسق وأهم ما في النسق ليس هو المعجم وإنما التركيب الذي يمثل بنية اللغة، وهذه حقيقة لغوية، فكم من اللغات يضم معجمها ١٠٪ أو ٢٠٪ من ألفاظ اللغة العربية كالإسبانية والتركية ورغم ذلك لا يمكن الزعم بأن الإسبانية أو التركية أصبحتا لغة عربية، بل إنهما يصنفان ضمن اللغات الهند أوروبية، والأمر نفسه ينطبق على غيرهما من اللغات في علاقتها مع العربية التي تصنف ضمن اللغات السامية.

- اللغة كائن حي يتبادل التأثير والتأثر، وهذا شيء إيجابي ما دام لا ينفذ إلى النسق التركيبي، بل هوسبيل من سبل تطوير اللغة واتساعها للتعبير عن الفكر والمشاعر، وتحقيق التواصل بين أبناء المجموعة اللغوية المتجانسة.

- بيان مقاييس العجمة المتمثلة في الاستعمال، والصرف، والبناء الصوتي.

- الأحكام اللغوية أحكام نسبية لأنه لا يوجد أحد يدعي استقراء لغة العرب، فضلا عن أن عمل اللغويين يؤكد ذلك، فهم قد اقتصروا في جمعهم اللغة على بعض القبائل التي اعتبروها فصيحة، وأهملوا القبائل الأخرى، كما أنه لا يمكن لأحد الزعم بأن جمع لغات القبائل الفصيحة هوجمع تام لم يهمل شيئاً من لغة القوم، ومما يؤكد ذلك الخلاف الحاصل بين المدارس النحوية خاصة واللغوية عامة حول كثير من القضايا النحوية واللغوية والبلاغية.

- نفي التوارد بين اللغات البشرية الطبيعية، بمعنى أن اللفظ مستعمل بمعناه في لغتين أو أكثر، ويؤكد ذلك البحث اللساني الحديث، الذي يبين أن التوارد بين اللغات منحصر في الكلمات التي تتفق مبنى ومعنى في جميع اللغات لانحدارها من الأصل الذي نشأت منه اللغات الإنسانية والمتمثل في

أصوات الحيوان ومظاهر الطبيعة وأصوات التعبير عن الانفعالات والأصوات التي تحدثها الأفعال^(١).

- عالمية الرسالة الإسلامية:

إن عالمية الرسالة الإسلامية تؤكدُها اللغة، ففي القرآن الكريم من كل لسان^(٢)، كما يؤكدُها النص: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ»^(٣)، كما تؤكدُها الأحكام: «يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ»^(٤).

١- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث: عبد الصبور شاهين، ص ٣٦١.

٢- تفسير الطبري، ج ١، ص ١٤.

المحرر الوجيز: لابن عطية ج ١، ص ٣٦.

٣- سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

٤- سورة الحجرات، الآية ١٣.

المبحث الخامس

المقاربة اللغوية للقرآن الكريم

القرآن والتواصل:

بما أن القرآن نظام لغوي، فإنه قد فرض على المسلمين مقاربتة مقاربة لغوية، لتحقيق التواصل بينهم وبين الله تعالى عن طريق القرآن الكريم، باعتبارهم مأمورين بالتزام أحكامه، والانتهاء عن نواهيته.

ولا يمكن لعملية التواصل أن تنجح إلا بالوقوف على المراد الذي ضمنه الحق سبحانه وتعالى القرآن الكريم، التزاماً بأمر الله تعالى بتدبر الكتاب، وإعمال النظر فيه، مما ارتقى بالتدبر والفهم إلى مستوى الواجب الشرعي، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وقد بين الحق سبحانه ذلك في مواضع متعددة من القرآن الكريم:

يقول تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(١)، ويقول سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٢)، ويقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾^(٣).

فبدون التدبر والفهم للخطاب القرآني لا يمكن الحديث عن التواصل، ومن ثم فلا مجال للحديث عن التكليف والتكاليف. والتدبر والفهم يتطلبان تصورا ومنهجاً وأدوات، وذلك التفاعل بين المسلمين وكتابهم المقدس في شقه اللغوي التواصلية، هو الذي مكنتهم من إنجاز التفسير اللغوي، بل إننا لا نكون مباغينين إذا قلنا بأن درس اللغوي العربي كله مدين للقرآن بالوجود والنشأة والتطور، ذلك أن اتصال المسلمين بالقرآن الكريم

١- سورة ص، الآية ٩٢.

٢- سورة محمد، الآية ٤٢.

٣- سورة القمر، الآية ٧١.

والتحاهم به مكنهم من الوقوف على مستويات التحليل اللغوي^(١)، والتي يمكن أن نؤطرها بشكل أوبأخر في إطار درس اللساني الحديث، ومناهج تحليل الخطاب الحديثة.

- مستويات التحليل اللغوي:

أ- المستوى الصوتي : la phonétique

وهو فرع من علم اللغة «يدرس الصوت الإنساني الذي يصدر عن أعضاء النطق، كما يدرس علم الأصوات الحدث الكلامي الذي يظهر في صورة سلسلة من الأصوات، ويهتم بتحليل هذه السلسلة إلى العناصر التي تكون الكلام، ويهتم أيضا بوصف الطريقة التي يتكون بها كل عنصر من العناصر وتصنيفها، بعيدا عن دلالتها أو معانيها»^(٢)، ومن ثم فإنه يعنى بدراسة الظواهر الصوتية اللغوية «المرتبطة بالنظام الصوتي للغة الذي تواضعت عليه الجماعة، وتتمثل في تحليل سلسلة الكلام إلى أجزاء، بتحديد الأعضاء المشاركة في نطق الأصوات، وتحديد نوعية الحركات النطقية التي تتولد عنها الأصوات المتباينة، وتحديد الدور الوظيفي لهذه الأصوات في النظام الصوتي، هذا بالإضافة إلى السمات الجزئية للنظام الصوتي مثل: النبر،

١- يختلف اللسانيون العرب في أقسام مستويات التحليل اللغوي فمنهم من يقسمها إلى أربعة مستويات، كما نجد عند كريم زكي حسام الدين في كتابه «أصول تراثية»: المستوى الصوتي والمستوى الصرفي والمستوى النحوي والمستوى الدلالي.

ومنهم من يجعلها في ثلاثة مستويات، وهو صنيع محمود السمران في كتابه «علم اللغة»:

١- المستوى الصوتي.

٢- المستوى الدلالي.

٣- المستوى التركيبي، وهو يشمل الصرف والنحو.

ومنهم من يجعلها خمسة مستويات، كما فعل كمال بشر في كتابه «دراسات في علم اللغة (القسم الثاني)» وهي:

المستوى الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي والمعجمي.

٢- أصول تراثية: كريم زكي حسام الدين، ص ١٢٨/١٢٩، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثالثة،

القاهرة ١٩٩٢.

والتغيم، والسكتات الكلامية»^(١).

وهو لا يعنى إلا باللغة المنطوقة وحدها، ومن ثم «فهو لا يهتم إلا بالتعبير اللغوي، دون المضمون، الذي يقوم تحليله على القواعد والمعجم، أي الجانب النحوي، والدلالي للغة»^(٢).

ولعلم الأصوات جانبان:

الجانب الصوتي الفيزيائي: aspect acoustique الذي يعنى بدراسة الخصائص المادية أو الفيزيائية لأحوال الكلام أثناء انتقالها من المتكلم إلى السامع^(٣).

الجانب المخرجي أو العضوي (الفزيولوجي): la physiologie الذي يهتم بجهازنا المصوت، وبالطريقة التي تنتج بها الأصوات^(٤).

والملاحظ أن الباحثين في هذين الجانبين من الدراسة للصوت الإنساني يهتمون بدراسة ظواهر غير لغوية مرتبطة بالمتكلم، هي درجة الصوت وقوته ونوعيته وسرعة الكلام، وتتحدد هذه الظواهر بسياق الموقف الذي يتمثل في الظروف التي تحيط بالمتكلم مثل علاقته بمن يتكلم، والمكان، أو المسافة، كما تتحدد وتتميز بالتكوين العضوي أو التشريحي للجهاز الصوتي للمتكلم^(٥). وهذا العنصر الأخير هو أحد محاور الدرس الصوتي الإنساني الحديث، مما يبين تعقد الظاهرة الصوتية، ومن ثم لا يمكن مقاربتها من جانب واحد، بل لا بد من تضافر العلوم والجهود، للنهوض بمهمة وصف الظاهرة الصوتية، كمدخل أساس لتحليلها وفهمها، وصولاً إلى التأويل الدلالي،

١- الدلالة الصوتية: دراسة لغوية لدلالة الصوت ودوره في التواصل: كريم زكي حسام الدين، هامش ص ٦٦١، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو، القاهرة ٢١٤١ هـ / ٢٩٩١ م.

٢- علم الأصوات: برتيل برميلج، ترجمة عبد الصابور شاهين، ص٦، مكتبة الشباب، القاهرة ٥٨٩١.

٣- دراسة الصوت اللغوي: أحمد مختار عمر، ص٢، الطبعة الثالثة، القاهرة ٥٠٤١ هـ / ٥٨٩١.

٤- علم الأصوات: برتيل مايرج، ص٧.

٥- الدلالة الصوتية: كريم زكي حسام الدين، هامش ص ٦٦١.

وإدراك مواطن الجمال، ومعرفة كيفية تحققه، لنرقى بدرسنا التفسيري والنقدي من مستوى الانطباع والذاتية والمعارية إلى المستوى الوصفي والتحليلي والموضوعي.

ب- المستوى الصرفي: la morphologie

الذي يعنى بدراسة بنية الكلمة، والتغيرات التي تطرأ عليها، مما يجعل الصرفي يتخذ من الصيغ الصرفية مادة للتحليل الصرفي^(١)، مثل « تحويل الكلمة من بناء إلى آخر، أو إلى أبنية مختلفة أخرى، لتؤدي أنواعا من المعاني، كالتثنية والجمع، والتصغير، والاشتقاق، وبناء الفعل للمجهول، بعد أن كان مبنيًا للمعلوم». ومن ثم، فإن الصرف «هو العلم بالأصول التي يعرف بها أحوال أبنية الكلمة المفردة، وميدانه هو الأسماء المتمكنة، والأفعال المنصرفة»^(٢).

ج- المستوى المعجمي: la lexicologie

حيث يهتم المعجمي بدراسة أشكال المعاجم (القاموس)، باعتباره لائحة لمعاني الألفاظ الأكثر تداولاً وشيوعاً في الاستعمال اللغوي، مع العناية بالمنهج والطرق المتبعة في صناعة القواميس، وأنواعها، وأهدافها، وبوصف دلالة الكلمات كما تسجل في المعاجم^(٣).

د- المستوى التركيبي: la syntaxe (النحو)

باعتباره يهتم بدراسة بنية الجملة، حيث اهتم النحاة «ببحث مستوى

١- أصول تراثية في علم اللغة: كريم زكي حسام الدين، ص ٢٢٢.

٢- علم الصرف «دراسة وصفية»: محمد أبو الفتوح شريف، ص ٧١، دار المعارف، القاهرة ٦٨٩١.

٣- La Semantique: George Mounin. p10/11. Collection (Clefs) n° 16 Paris. 1972

النحو والدلالة: محمد حماسة عبد اللطيف، ص ٢٢، الطبعة الأولى، مطبعة المدينة، مصر ٢٨٩١.

دراسات في علم المعنى «السمانتيك»: كمال بشر، ص ٢٤/١٤، القاهرة، بدون طبعة ولا تاريخ.

البحث اللغوي عند العرب: أحمد عمر مختار، ص ٦٥١/١٥١، عالم الكتب، الطبعة الرابعة، القاهرة

٢٠٤١/٢٨٩١.

التراكيب في العلاقات القائمة بين المورفيمات داخل الجمل بغية لحظها وتحديدها»^(١) أي دراسة كيفية تكوين الجمل من الكلمات المختلفة^(٢).

هـ- المستوى الدلالي: la semantique

حيث درسوا المعاني اللسانية^(٣) والقضايا المتصلة بالمعنى وإشكالاته^(٤)، وتنوعت عندهم الدراسة الدلالية، وتفرعت إلى الدلالة الصوتية، والدلالة الصرفية، والدلالة التركيبية، ومعاني الحروف، والعلاقات الدلالية كالترادف، والمشارك اللفظي، والتضاد، وعلاقة الجزء بالكل، ودلالة الالتزام، ودلالة التضمن، ومفهوم المخالفة والموافقة، والعموم والخصوص، والمطلق والمقيد، ودلالة السياق، والتطور اللغوي^(٥).

عمل اللغويين والمفسرين:

لقد تمكن اللغويون والمفسرون المسلمون - بفضل التحامهم بالقرآن الكريم نصا / خطابا، والاعتكاف على دراسته، بغية تحديد الأدوات التي تمكن المتلقي من استنباط مراد الله تعالى من الخطاب، واكتشاف مظاهر الإعجاز اللغوي وتجلياته، وفقه معانيه وإدراك جماله وجلاله - من الوقوف على حقيقة أثبتتها الدرس اللساني الحديث وهي أن اللغة نسق كلي، مستقل

١- الأسنية (علم اللغة الحديث): ميشال زكريا، ص ٢١٢، المؤسسة الجامعية، الطبعة الثانية، لبنان ٢٠٤١هـ/٢٨٩١م.

٢- مدخل إلى علم اللغة: محمود فهمي حجازي، ص ٥٦، دار الثقافة، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩١.

٣- علم الدلالة: بيار غيرو، ترجمة أنطوان أبو زيد، ص ٥،

٤- علم الدلالة: أحمد مختار عمر، ص ٦١/١١، مكتبة دار العروبة، الطبعة الأولى، الكويت ٢٠٤١هـ/٢٨٩١م.

أصول تراثية: كريم زكي، ص ٢٠٣/٤٦٢.

٥- علم الدلالة العربي: فايز الداية، ص ٩٢/٠٢، دار الفكر، الطبعة الأولى، دمشق ٥٠٤١هـ/٥٨٩١.

دراسات في علم المعنى: كمال بشر، ص ٢٨ / ١٨.

مفهوم المعنى: عزمي إسلام، ص ٨١.

علم الدلالة: أحمد مختار عمر، ص ٨٦/٨٧- ص ٧٤١/٠٩١- ص ١٩١/١٢-٤٣٢/٥١٢.

الدلالة الصوتية: كريم زكي حسام الدين، ص ١١/٥٧.

التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: عودة خليل أبو عودة، ص ٤٦/٣٤، مكتبة المنار، الطبعة

الأولى، الأردن ٥٠٤١هـ/٥٨٩١.

ومغلق، تتسجم داخله مكوناته، بهدف تحقيق التواصل باعتباره من أهم وظائف اللغة^(١).

ويقوم الخطاب التفسيري برمته شاهدا على ذلك، وإن ظل للأسف الشديد عملا تطبيقيا، لم يرق إلى مستوى التنظير، إلا في محاولات قليلة محتشمة يمكن حصرها في:

- مقدمة في أصول التفسير: تقي الدين أحمد بن تيمية (ت ٧٢٨هـ)^(٢).
- مقدمة التفسير: أبو القاسم الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)^(٣).
- التيسير في قواعد التفسير: أبو عبد الله محمد محيي الدين الكافيجي (ت ٨٧٩هـ)^(٤).
- التحبير في علوم التفسير: أبو الفضل جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)^(٥).

١- مدخل إلى الأسنوية: بول فابر، وكريستيان بابلون، ترجمة طلال وهبة، ص ١٩، المركز الثقافي العربي،

الطبعة الأولى، بيروت ٢٩٩١.

علم اللغة العربية: محمود فهمي حجازي، ص ١٠١، وكالة المطبوعات، الكويت ٣٧٩١.

مفهوم المعنى « دراسة تحليلية »: عزمي إسلام، ص ٥١، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت ٥٠٤١هـ / ٥٨٩١.

أسس علم اللغة لماريوباي، ترجمة أحمد مختار عمر، ص ٥٣، عالم الكتب، الطبعة الثانية، ٣٠٤١هـ / ٣٨٩١.

Dictionnaire de Linguistique: Jean Dubois. p276

٢- مقدمة في أصول التفسير: تقي الدين أحمد بن تيمية، المطبعة السلفية، الطبعة الرابعة، القاهرة ٩٩٣١هـ.

٣- مقدمة التفسير: أبو القاسم الراغب الأصفهاني، المطبعة الجمالية، الطبعة الأولى، القاهرة ٩٣٣١هـ.

٤- التيسير في قواعد التفسير: محيي الدين الكافيجي، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم ٧٠٧ تفسير.

٥- التحبير في علوم التفسير: أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبويكر السيوطي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ٨٠٤١هـ / ٣٨٩١م.

- مقدمة كتاب المباني^(١).
- الفوز الكبير في أصول التفسير: ولي الله الدهلاوي (ت ١١٧٦هـ)^(٢).
- رسالة في مبادئ التفسير: محمد الخضري الدمياطي (ت ١٢٨٧هـ).
- بعض مقدمات كتب التفسير^(٣).
- بعض أبواب وفصول الكتب المؤلفة في علوم القرآن قديما وحديثا^(٤).
- أصول التفسير وقواعده: خالد عبد الرحمن العك^(٥).

ولعل عملنا هذا سيكشف عن هذه الحقيقة المرة، التي تفرض علينا اليوم دراسة الخطاب التفسيري دراسة وصفية وتحليلية ومقارنة، بغية الوصول إلى تحديد مكونات هذا الخطاب، والوقوف على ترتيبها داخله، ودراسة القضايا المتارة فيه دراسة تحليلية تمكننا من فهمها، واستيعابها لتتكون لدينا القابلية للإضافة العلمية للمجال.

أما الدراسة المقارنة بين الخطابات التفسيرية فهي تروم معرفة أوجه الاتفاق والاختلاف، لنتمكن من معرفة جوانب الإبداع والسبق العلمي، وإدراك الإضافات العلمية في كل عمل تفسيري، ثم معرفة الثابت والمتطور في الخطاب التفسيري. بغية الوصول، في نهاية المطاف، إلى رسم معالم نظرية التفسير، مؤسسة على الوقائع والحقائق التفسيرية المستمدة من الخطاب التفسيري بدقة العالم، وموضوعية الباحث، بدل ما نقوم به اليوم من تأسيس على معطيات جزئية، ووقائع ناقصة، لا تمكننا من امتلاك

١- مقدمتان في علوم القرآن: آرثر جفري، صححها عبد الله إسماعيل الصاوي، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٢٣هـ/٢٧٩١م.

٢- الفوز الكبير في أصول التفسير: ولي الله الدهلاوي، عربيه من الفارسية سلمان الحسيني الندوي، دار الصحوة، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٤١هـ/٦٨٩١م.

٣- مقدمة تفسير الطبري.

مقدمة تفسير ابن عطية.

٤- البرهان في علوم القرآن.

٥- أصول التفسير وقواعده: خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٦٠هـ/٦٨٩١م.

تصور متكامل عن الخطاب التفسيري من حيث مكوناته، وترتيب المكونات، وقضاياها، وإشكالاته، ومقاصده، والواقع الثقافى الذي أنتجه. لأنه لم يعد اليوم مقبولاً النظر إلى التفسير على أنه مدونة للمعاني القرآنية، بل إن كل تفسير هو مشروع حضاري، يتوخى تنزيل النص على الواقع، بغية تعبيد الحياة كل الحياة لله رب العالمين.

إننا عندما نتبنى اللسانيات ومقاربة الخطاب/النص القرآني من خلالنا نهدف إلى تمثل تراثنا التفسيري، لنتمكن من الارتقاء به من مستواه التطبيقي الذي لازال عليه - بكل أسف - إلى مستوى التنظير والنمذجة، فالعلم هو التنظير، باعتباره بحثاً أساسياً يستند إلى واقع، أو ما نحب الاصطلاح عليه بالمنجز اللغوي البشري (الخطاب التفسيري)، المؤسس على بيان لغوي رباني (القرآن) لنملك القدرة العلمية للإجابة على أسئلة مركزية :

أ- كيف استطاع هذا الإنسان المحدود في الزمان والمكان (النسيبي) أن يدرك المراد الذي أودعه الحق سبحانه، المتعالي عن الزمان والمكان (المطلق) في القرآن الكريم؟.

ب- ما هي عوامل استخراج المعنى التي اكتشفها الإنسان المفسر من خلال تعامله مع القرآن الكريم؟.

ج- كيف يمكن للإنسان إدراك نواحي الإعجاز في القرآن الكريم؟.

د- كيف يمكننا الجمع بين إعجاز الخطاب القرآني وموافقته لسنن العرب في الكلام؟.

هـ- كيف يمكننا إثبات عالمية الخطاب القرآني، وأنه ليس كتاب شعب أو قبيلة، وإنما هو كتاب البشرية جمعاء؟.

باعتبار هذه العوامل مودعة في النص / الخطاب القرآني، وأن القراءة

العلمية والموضوعية للنصوص والخطابات تقتضي أن لا نسقط عليها الأدوات المنهجية، ولا تصوراتنا، ولا أفكارنا ومعتقداتنا، حتى لا نقرأ في النص أو الخطاب أفكارنا، وآراءنا، ومعتقداتنا، ليصبح النص أو الخطاب انعكاساً لنا. بل يتعين علينا الإنصات للنص أو الخطاب لاكتشاف مدخله أو مداخله، لنتمكن من استنباط المعنى المودع فيه، أي ما يقوله النص، أو يريد قوله. خاصة بالنسبة للمتعامل مع القرآن الكريم، حيث يفترض فيه البحث عن مراد الله المودع في القرآن الكريم، فالتفسير ليس قراءة حرة، بل هو قراءة موجهة بمقصد يتمثل في الكشف عن مراد الله تعالى من الخطاب، بغية إدراك التكاليف الربانية الآمرة والناهية، وتزليلها على الواقع، لصياغته صياغة قرآنية.

إن امتلاك المنهج والتصور لمقاربة النص / الخطاب القرآني ضرورة يفرضها تحقيق التواصل بين المتكلم المتعالي، والإنسان المتداني من جهة، ومن جهة أخرى فإنهما يمكنان هذا الأخير من اكتشاف جمال القرآن وجلاله، ليقر، بعلم ومعرفة، بأنه كلام الله تعالى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(١)، وأنه كلام معجز في لفته من الأصوات مرورا بالحروف، فالكلمات، فالجمل، وانتهاء إلى القرآن كله، مبنى ومعنى، آية وسورة، قصة ومثالا، صورة ومشهدا، حقيقة ومجازا.

ويكتشف مظاهر الإعجاز وتجلياته التي تأخذ على الإنسان لبه، وتملك عليه عقله ووجدانه، لأن القرآن الكريم يخاطب الإنسان في كينونته، مادة وروحا، إنسانا في علاقته بعالم الغيب وعالم الشهادة، فردا وجماعة.

إنه الانسجام والاتساق، والوحدة في التعدد، والكل في الجزء، والجمال في الحق، والمنطق في الوضوح، والواقعية في التشريع، والسمو في الأخلاق، والهدى والهداية، إنه تحد على مدى الزمان والمكان عن الإتيان بمثله شكلا

١- سورة فصلت، الآية ٢٤.

ومضموننا: ﴿ قُلْ لِنِ احْتَمَعَتِ الْاِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ اَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (١).

إن عالمية الإعجاز تقوم دليلاً قاطعاً على عالمية القرآن الكريم خطاباً ونصاً، وبالتالي عالمية الرسالة: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٢)، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣).

إن العلوم اللغوية العربية المؤسسة على القرآن الكريم كان لها دور كبير في تكوين العقل المسلم، وبالتالي نشأة العلوم الإسلامية في أبعادها العقديّة والشرعية، والأدبية، والفلسفية، والعلمية الصرفة. لأنها كانت تتطرق من أن الدين إنما جاء لتحقيق مصلحة الإنسان فرداً، وأسرة، وجماعة، ودولة، ودولاً، في حالة السلم والحرب، لينعم الإنسان بالسلم في نفسه وأسرته، ومجتمعه، ويهنأ بالسعادة في الدنيا والآخرة، وأن الله تعالى غني عن العباد، فلا إيمانهم وصلاتهم يزيد في ملك الله شيئاً، ولا كفرهم ومعصيتهم ينقص من ملكه شيئاً لقوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٤)، وقوله سبحانه: ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٥)، وقوله عز وجل: ﴿ وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٦)، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (٧).

١- سورة الإسراء، الآية ٨٨.

٢- سورة الأنبياء، الآية ٧٠١.

٣- سورة سبأ، الآية ٨٢.

٤- سورة فاطر، الآية ٥١.

٥- سورة لقمان، الآية ٢٦.

٦- سورة العنكبوت، الآية ٦.

٧- سورة إبراهيم، الآية ٨.

من هذه الرؤية الإسلامية، نشأت العلوم اللغوية لإسعاف الإنسان، وتمكينه من فهم القرآن الكريم. ومن ثم، فإنها قد نشأت لخدمة الإنسان، وليس كما هو شائع لخدمة القرآن الكريم، ليحقق التواصل مع المولى عز وجل، فيحيى حياة كريمة، يتخذها قطرة إلى دار الخلود.

يقول ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١).

إن هذه الرؤية الإسلامية هي التي كانت السبب في الانطلاق من القرآن لفهم القرآن. ومن ثم فهم الرسالة، وتأسيس صرح الحضارة على النص القرآني، مما يجعلنا نتعت الحضارة الإسلامية بأنها حضارة نص.

١ - سورة القصص، الآية ٧٧.

المبحث السادس

مظاهر الاتساق و الانسجام في القرآن الكريم

نظراً لكثرة الأمثلة التي يزخر بها كتاب الله ، والتي تحتاج إلى مجال أوسع يتجاوز حدود هذا الكتاب فإننا سنقتصر على ذكر بعض الأمثلة لمظاهر الاتساق و الانسجام في القرآن الكريم .

أولاً- الجانِب الصوتي :

يؤدي المكون الصوتي دوراً أساسياً في تماسك النص/الخطاب القرآني الكريم شكلياً فيحقق اتساقه، ومعنوياً فيحقق انسجامه، وقد استعمل القرآن الكريم آليات متعددة ومتنوعة لتحقيق توازناته الصوتية منها :

١- الإدغام :

أ- تعريف الإدغام:

الإدغام لغة هو الإدخال والمزج، يقول الفيروزآبادي (ت ٨١٧ هـ): «أدغم الفرس للجام أدخله في فيه، والحرف في الحرف أدخله»^(١).

ويقول ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ): «الدال والغين والميم أصلان: أحدهما من باب الألوان، والآخر دخول شيء في مدخل ما... ومنه الإدغام في الحروف»^(٢).

وفي اصطلاح علماء التجويد: التقاء حرف ساكن بحرف متحرك بحيث يصيران حرفاً واحداً مشدداً من جنس الثاني. فيرتفع اللسان عند النطق به ارتفاعاً واحدة، ويلزم موضعاً واحداً^(٣).

١- القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧ هـ)، مادة (دغم)، باب الميم، فصل الدال، ج ٤، ص ٢. دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.

٢- المقاييس، مادة (دغم)، باب الدال والغين وما يتلثهما، ج ٢، ص ٢٨٤.

٣- الإدغام الكبير في القرآن: أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤ هـ)، تحقيق زهير غازي زاهد، ص ٤٠، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣ م.

جمال القراء وكمال الإقراء: علم الدين السخاوي علي بن محمد (ت ٦٤٣ هـ)، تحقيق علي حسين البواب، ج ٢، ص ٤٥٨، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٧ م.

نظرات في علم التجويد، ص ٧١.

ومن تعريفات الإدغام أنه « تقريب الصوت من الصوت بحيث تشتغل إلى أحدهما صفة من الآخر»^(١).

وهذا التقارب، بتعبير الدكتور عبد الصبور شاهين، والتأثر، بتعبير الدكتور إبراهيم أنيس، نوعان:

- رجعي وفيه يتأثر الصوت الأول بالصوت الثاني.

- تقدمي وفيه يتأثر الصوت الثاني بالأول^(٢).

والإدغام، بهذا المفهوم، ينطبق على المماثلة لدى المحدثين^(٣).

ويشترط في الإدغام التقاء الحرف المدغم والمدغم فيه خطأ ولفظاً، أو خطأ لالفظاً، كقوله تعالى: ﴿هُوَ إِنَّهُ﴾^{(٤)(٥)}. وقد ورد تسع عشرة مرة في

القرآن الكريم في المواضع التالية:

سورة البقرة، الآية ٣٧	سورة البقرة، الآية ٥٤	سورة الأنفال، الآية ٦١
سورة يوسف، الآية ٩٨	سورة يوسف، الآية ٣٤	سورة يوسف، الآية ١٠٠
سورة الإسراء، الآية ١	سورة الشعراء، الآية ٢٢٠	سورة القصص، الآية ٦
سورة العنكبوت، الآية ٢٦	سورة الزمر، الآية ٥٣	سورة غافر، الآية ٥٦
سورة فصلت، الآية ٣٦	سورة الدخان، الآية ٦	سورة الذاريات، الآية ٣٠
سورة الطور، الآية ٢٨	سورة البروج، الآية ١٣	

١- أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي (أبو عمرو بن العلاء): عبد الصبور شاهين، ص ١٢٤، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م.

٢- نحو القراء الكوفيين: خديجة أحمد مفتي، ص ٢٨١، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م.

٣- أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي: ص ١٢٧.

دراسة الصوت اللغوي: أحمد مختار عمر، ص ٣٢٢، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.

٤- ﴿إِنَّهُ هُوَ يُدْعَى وَيُعَدُّ﴾ سورة البروج، الآية ١٣.

٥- النشر في القراءات العشر: لابن الجزري، ج ١، ص ٢٧٨.

الغني في توجيه القراءات العشر، ج ١، ٩٧.

القراءات وأثرها في علوم العربية: محمد سالم محيسن، ج ١، ص ٩١، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م.

ب- الوظائف اللغوية للإدغام في القرآن الكريم :
بتتبعنا لمواضع الإدغام و مذاهب القراء فيه ، و الوقوف عند مواعنه تبين
لنا أن للإدغام وظائف لغوية يمكن إجمالها في ما يلي :

- ١ . اقتصاد المجهود .
- ٢ . الوظيفة الصرفية .
- ٣ . الوظيفة التركيبية .
- ٤ . الوظيفة الدلالية .
- ٥ . الإدغام و الرسم .
- ٦ . وظيفة التناسب .

و نظرا لضيق المجال، فإننا سنقتصر حديثنا على هذه الوظيفة ، حيث
يعمل الإدغام على إحداث التوازن و الانسجام بين الأصوات المكوّنة للكلمة
أو الكلم.

وقد تتبه ابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ) إلى هذه الوظيفة التي يقوم بها الإدغام
داخل النظام الصوتي العربي، وأدار عليها مبحث الإدغام، وانتهى إلى تقرير
قاعدة مفادها « أن ما تكافأ في المنزلة من الحروف المتقاربة فإدغامه جائز،
وما زاد صوته فإدغامه ممتنع للإخلال الذي يلحقه، وإدغام الأنقص صوتا في
الأزيد جائز مختار لخروجه من حال الضعف إلى حال القوة... إذا علم ذلك
فليعلم أن من الحروف الألف والهمزة لا يدغمان ولا يدغم فيهما .

ومنها خمسة أحرف لم تلق مثلها ولا جنسها ولا مقاربها فيدغم فيها وهي:
الحاء، والزاي، والصاد، والطاء، والظاء؛ ومنها ستة أحرف لقيت مثلها ولم تلق
جنسها ولا مقاربها وهي: العين، والغين، والفاء، والهاء، والواو، والياء؛ ومنها
خمسة لقيت مجانسها أو مقاربها ولم تلق مثلها وهي: الجيم، والشين، والذال،
والذال، والصاد، وبقي من الحروف أحد عشر حرفا لقيت مثلها أو مقاربها،
أومجانسها وهي: الباء، والتاء، والثاء، والحاء، والراء، والسين، والقاف،

والكاف، واللام، والميم، والنون، فجملة اللاقى مثله متحركا سبعة عشر، وجملة اللاقى مجانساه أو مقاربه ستة عشر حرفاً^(١).

ويبين ابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ) أن الإدغام يعمل على تحقيق التوازن والانسجام بين الأصوات المكونة للمقطع، ومن ثم فهو ليس إلغاءً لأحدها بل هو تحقيق للمدغم والمدغم فيه بما يحقق التوازن والانسجام بين الأصوات المكونة للمقطع انسجاماً مع المبدأ اللغوي الأول ألا وهو اقتصاد المجهود.

كما قام ابن الجزري بإحصاء الحروف التي تدغم في بعضها محققة الانسجام الصوتي للقرآن، وقد كان عمله قائماً على دراسة وصفية تعتمد الواقع اللغوي، وتعمل على وصفه بدقة متناهية معتمدة الإحصاء والاستقصاء. وقد انتهى به عمله إلى الاستنتاجات التالية:

- عدد الحروف المتقاربة المدغمة من كلمة أو من كلمتين: ستة و أربعون وخمسمائة (٥٤٦) حرف.
- عدد الحروف المتماثلة المدغمة: ستة وأربعون وستمائة (٦٤٦) حرف.
- مجمل الحروف التي وقع الاختلاف فيها بين أهل الأداء: إثنان و ثلاثون (٣٢) حرفاً^(٢).

ومن ثم يمكننا أن نصوغ قاعدة تنظم النظام الصوتي العربي والمتمثلة في أن نسيج الكلمة العربية يرفض «توالي صوتين من مخرج واحد، أو قريب جداً في المخرج والصفة»^(٣). ففصاحة الكلمة «تتوقف على عدم قرب المخارج في حروفها قريباً يجعل اللسان يتعثّر في نطقها. فإذا سلمت من هذا التنافر تطلب حسنها وقبولها انسجام الأصوات الصادرة عنها، وذلك هو السبب في زيادة كلمة في الحسن على غيرها، كما أنه الأساس الذي يعود إليه استحسان اللفظ

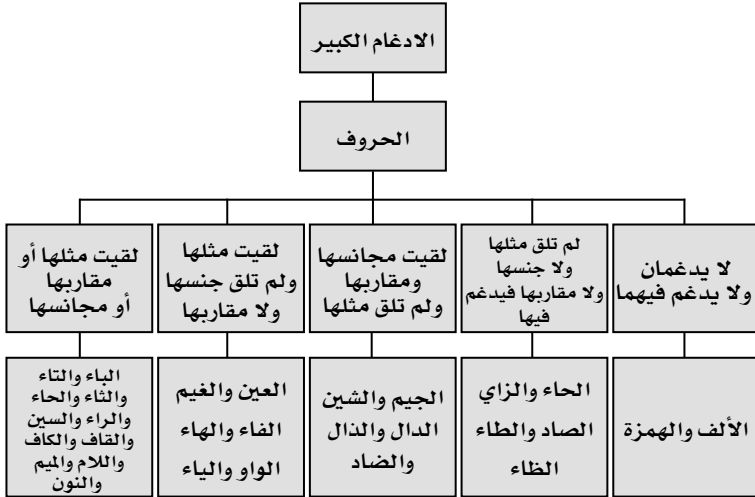
١- النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، ج ١، ص ٢٧٩ / ٢٨٠.

٢- النشر في القراءات العشر لابن الجزري، ج ١، ص ٢٩٥.

٣- الصوت اللغوي لأحمد مختار عمر، ص ٢٨٩.

دون آخر وقبولهم لاسم ورفضهم لآخر»^(١).

ونمثل برسم بياني للإدغام الكبير كما درسها ابن الجزري في كتاب النشر في القراءات العشر^(٢):



ويفصح العمل الوصفي الإحصائي التحليلي المقارن الذي قام به ابن الجزري (٨٣٣هـ) عن الإمكانات العلمية والقدرة على الفهم والتحليل للنظام الصوتي العربي بصفة عامة، والقرائني بصفة خاصة، وعن مواصفات الرجل العالم، حيث التحلي بالصبر والأناة، وعدم التسرع في إصدار الأحكام، والدقة في البحث، وامتلاك رؤية ومنهج، مما يجعل الباحث يشيد بهذا العمل المتميز، الذي لم أجد له نظيراً في غيره من الكتب التي اطّلع عليها، سواء ما كان منها منتمياً لدائرة القراءات أم التجويد، اللهم ما كان ترديدا لما انتهى إليه، أما التطوير والإضافة العلمية، والنظرة المتميزة، والتذوق الفني، والحس المرهف، والرؤية

١- الفصاحة مفهومها وبم تتحقق قيمها الجمالية: علي توفيق الفيل، ص ١٩، حوليات كلية الآداب، رقم ٦، جامعة الكويت، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.

٢- النشر في القراءات العشر لابن الجزري، ج ١، ص ٢٨٠.

الجمالية فقد تفرّد بها ابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ) في دراسته للإدغام على وجه الخصوص.

وقد قام الداني (ت ٤٤٤ هـ) كذلك بعمل إحصائي متميز حيث تتبع الحروف المدغمة في القرآن الكريم، وتوزيعها فيه بحسب السور وفق ترتيب المصحف^(١)، وقد قمنا بجمعها في الجدول التالي:

السورة	الحروف المدغمة	السورة	الحروف المدغمة	السورة	الحروف المدغمة	السورة	الحروف المدغمة
١- الفاتحة	١	٢٥- الفرقان	١٨	٤٩- الحجرات	٥	٧٤- المائدة	٧
٢- البقرة	٨٤	٢٦- الشعراء	٣١	٥٠- ق	٨	٧٥- القيامة	٣
٣- آل عمران	٥١	٢٧- النمل	٢٦	٥١- الذاريات	١٠	٧٦- الإنسان	٣
٤- النساء	٤٥	٢٨- القصص	٣٠	٥٢- الطور	٢	٧٧- المرسلات	٤
٥- المائدة	٥٢	٢٩- العنكبوت	٢٥	٥٣- النجم	١٠	٧٨- النبأ	٣
٦- الأنعام	٥٠	٣٠- الروم	١٣	٥٤- القمر	٣	٧٩- النازعات	٣
٧- الأعراف	٥٥	٣١- لقمان	٨	٥٥- الرحمن	٢	٨١- التكويد	٥
٨- الأنفال	١١	٣٢- السجدة	٧	٥٧- الحديد	٤	٨٢- الانفطار	١
٩- التوبة	١٧	٣٣- الأحزاب	٨	٥٨- المجادلة	٦	٨٣- اللطيفين	٥
١٠- يونس	٢٦	٣٤- سبأ	١١	٥٩- الحشر	٥	٨٤- الانشقاق	٤
١١- هود	٢٧	٣٥- فاطر	١٠	٦٠- الممتحنة	٦	٨٥- البروج	٣
١٢- يوسف	٣٧	٣٦- يس	١٠	٦١- الصف	٣	٨٩- الفجر	٥
١٣- الرعد	١٣	٣٧- الصافات	١٠	٦٢- الجمعة	٣	٩٠- البلد	١
١٤- إبراهيم	١٦	٣٨- ص	١٢	٦٣- المنافقون	٢	٩١- الشمس	١

١ - الإدغام الكبير في القرآن للداني، ص ١٠٧/٩٣.

١	٩٢-الليل	٤	٦٤-التغابن	٢٨	٣٩-الزمر	١٠	١٥-الحجر
١	٩٦-العلق	٢	٦٥-الطلاق	٣٠	٤٠-غافر	٥٤	١٦-النحل
١	٩٧-القدر	٣	٦٦- التحریم	١٦	٤١-فصلت	٣٤	١٧-الإسراء
١	٩٨-البينة	٦	٦٧-الملك	١١	٤٢-الشورى	٣١	١٨-الكهف
٣	١٠٠- العاديات	٥	٦٨-القلم	١٢	٤٣-الزخرف	٣٣	١٩-مريم
١	١٠١- القارعة	٤	٦٩-الحاقة	٤	٤٤-الدخان	٢٨	٢٠-طه
١	١٠٤-الهمزة	٣	٧٠-المعارج	٧	٤٥-الجاثية	٧	٢١-الأنبياء
٢	١٠٥-الفيل	٦	٧١-نوح	٨	٤٦-الأحقاف	٣٢	٢٢-الحج
١	١٠٦-قريش	٦	٧٢-الجن	١٠	٤٧-محمد	١٢	٢٣-المؤمنون
١	١٠٧-الماعون	٢	٧٣-المزمل	١٣	٤٨-الفتح	٣١	٢٤-النور

- السور التي لم يرد فيها إدغام: الرقم الترتيبي ٥٦: الواقعة، ٨٠: عبس، ٨٦: الطارق، ٨٧: الأعلى، ٨٨: الغاشية، ٩٣: الضحى، ٩٤: الشرح، ٩٥: التين، ٩٩: الزلزلة، ١٠٢: التكاثر، ١٠٣: العصر، ١٠٨: الكوثر، ١٠٩: الكافرون، ١١٠: النصر، ١١١: المسد، ١١٢: الإخلاص، ١١٣: الفلق، ١١٤: الناس.

وبيين الجعبري (ت ٧٣٢ هـ) أن من أسباب الإدغام الرئيسية تحقيق الانسجام الصوتي، ذلك أن الإدغام تماثل وتشارك وتلاصق وتقارب وتجانس وتكافؤ^(١). ولم يقتصر هذا الأمر على علماء القراءات والتجويد، بل تعداهم إلى المفسرين الذين اهتموا إلى هذه الوظيفة من وظائف الإدغام في النظام الصوتي القرآني، ونذكر منهم:

يقول الفراء (ت ٢٠٧ هـ) في تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ﴾

١- كنز المعاني: للجعبري، ج ٢، ص ٢٢٥.

ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴿١﴾ : «معناه (تثاقلتم)، فإذا وصلتها العرب بكلام أدغموا التاء في التاء لأنها مناسبة لها، ويحدثون ألفا لم يكن ليبينوا الحرف على الإدغام في الابتداء والوصل. وكأن إحداثهم الألف ليقع بها الابتداء. ولو حذفت لأظهروا التاء لأنها مبتدأة، والمبتدأ لا يكون إلا متحركا. وكذلك قوله ﴿حَقَّ إِذَا أَدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾^(٢)، وقوله ﴿وَأَرَيْتَ﴾^(٣)، والمعنى تزينت، و﴿قَالُوا أَطَرْنَا﴾^(٤) معناه تطيرنا. والعرب تقول: حتى إذا ادركوا تجمع بين ساكنين: بين التاء من تداركوا، وبين الألف من إذا، وبذلك كان يأخذ أبو عمرو بن العلاء»^(٥).

- ويقول الفراء (ت٢٠٧هـ) في موضع آخر مركزا على تناسب مخارج الحروف وأثر ذلك في الإدغام: «أدغمت الذال أيضا عند التاء، وذلك لأنها متناسبتان في قرب المخرج، والتاء والذال مخرجهما ثقيل فأنزل الإدغام بهما لثقلهما. ألا ترى أن مخرجهما من طرف اللسان»^(٦).

- يقول القرطبي (ت ٦٧١ هـ) في تفسير قوله تعالى: ﴿كَمْثَلِ حَبَّةِ أُنْبُتٍ سَعِ سَنَابِلٍ﴾^(٧): «قرأ أبو عمرو (ت١٥٤هـ) وحزمة (ت١٥٦هـ) والكسائي (ت١٨٩هـ): (أنبتت سبع سنابل) بإدغام التاء في السين لأنهما مهموستان، ألا ترى أنهما يتعاقبان... وقرأ الباقون بالإظهار على الأصل لأنهما كلمتان»^(٨).

١- سورة التوبة، الآية ٢٨.

٢- سورة الأعراف، الآية ٢٨.

٣- سورة يونس، جزء من الآية ٢٤.

٤- سورة النمل، جزء من الآية ٤٧.

٥- معاني القرآن للفراء، ج ١، ص ٤٢٧ / ٤٢٨. وج ١، ص ٤١١.

٦- معاني القرآن للفراء، ج ١، ص ١٧٢.

٧- سورة البقرة، الآية ٢٦١.

٨- الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، ج ٢، ص ١٩٨.

الدر المصون في علوم الكتاب المكتون: للسمين الحلبي (ت٧٥٨هـ)، ج ١، ص ٦٢٢.

- يقارن أبو جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ) بين الإدغام في (نَجِينَاكُمْ) و(يَذَّبِحُونَ) في قوله ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾^(١) والإظهار في (أَنْجِينَاكُمْ) في قوله ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾^(٢) معللا سبب الإدغام بأن: «الوارد في سورة البقرة مقصود به تعداد وجوه الإنعام على بني إسرائيل وتوالي الامتنان ليين شنيع مرتكبهم في مقابلة ذلك الإنعام بالكفر... فلما كان موضع تعداد نعم وآلاء ذكروا بها ليزدجروا عن المخالفة والعناد ناسبه التضعيف لإتيانه بالكثرة. ولو قيل هنا: وإذ أنجيناكم لما أنبأ بذلك ولا ناسب المقصود مما ذكر، وأيضا فإن التضعيف في نجيناكم يناسب التضعيف الوارد بعده في قوله يذبحون ولم يكن لفظ أنجيناكم غير مضاعف ليناسب يذبحون. فروعى مناسبة اللفظ بما بعد ومناسبة المعنى. ولم يكن غير هذا ليناسب»^(٣).

ففي إثارة صيغة الإدغام سمو للتعبير القرآني «ودقة فائقة تكاد تؤمن بها بأن هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذي وفته به هذه»^(٤).

يقول سيد قطب (ت ١٣٨٧هـ) في تفسيره لقوله ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لُيْبِطَنَّ﴾^(٥): «ولفظة ﴿لُيْبِطَنَّ﴾ مختارة هنا بكل ما فيها من ثقل وتعثر، وإن اللسان ليتعثر في حروفها وجرسها حتى يأتي على آخرها وهو يشدها شدا، وإنها لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويرا كاملا بهذا التعثر والتثاقل في جرسها. وذلك من بدائع التصوير الفني في القرآن الذي يرسم

١- سورة البقرة، الآية ٤٩.

٢- سورة الأعراف، الآية ١٤١.

٣- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه التشابه اللفظ من أي التنزيل: أبو جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ)، تحقيق محمود كامل أحمد، ج ١، ص ٥٣/٥٥، دار النهضة، بيروت، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.

٤- من بلاغة القرآن: لأحمد بدوي، ص ٥٧ دار نهضة مصر، القاهرة، ١٣٧٠ هـ / ١٩٥٠ م.

٥- سورة النساء، الآية ٧٢.

حالة كاملة بلفظة واحدة»^(١).

وقد وردت في الآية السالفة الذكر قراءتان «فقرأ مجاهد (لِيُبَطِّنَنَّ) بالتخفيف، وقرأ الجمهور (لِيُبَطِّنَنَّ) بالتشديد. والقراءتان يحتمل أن يكون الفعل فيهما لازماً لأنهم يقولون: أبطأً وبطأً في معنى بَطُؤُ، ويحتمل أن يكون كذلك متعدياً بالهمزة أو التضعيف من بَطُؤُ. فعلى اللزوم المعنى: أنه يتناقل ويثبط عن الخروج للجهاد، وعلى التعدي يكون قد ثبط غيره وأشار له بالقعود. وعلى التعدي أكثر المفسرين»^(٢).

والقراءة الثانية هي التي تتسجم مع ما ذهب إليه سيد قطب -رحمه الله- مما يبين أن الإدغام قد أدى وظيفة التناسب، حيث ناسب لفظ (لِيُبَطِّنَنَّ) الموقف والمقام إذ صور حالة المتباطئين عن المساهمة في الجهاد الذي كان يقوده الرسول ﷺ نصرة للدين، وتحريراً للبشرية من عبودية غير الله. كما أنه ناسب المقال حيث قصد إلى إحداث تأثير نفسي في المتلقي، وهو الاشمئزاز من صنيع هؤلاء ورفضه.

ويقول في تفسير قوله ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾^(٣): «يتصور الخيال ذلك الجسم المثقل يرفعه الرافعون في جهد فيسقط من أيديهم في ثقل. إن في هذه الكلمة طناً على الأقل من الأثقال!. ولو أنك قلت تتأقلمتم لخف الجرس ولضاع الأثر المنشود ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ واستقل برسمها»^(٤).

١- في ظلال القرآن: لسيد قطب، ج ٢، ص ٧٠٥.

٢- البحر المحيط: لأبي حيان، ج ٢، ص ٣٠٢ / ٣٠٣. يتبين من تفسير أبي حيان علاقة الإدغام بالمكون التركيبي، كما أن له صلة وثيقة بالانسجام الصوتي كما بينا. وكل ذلك يقوم دليلاً على وحدة النظام اللغوي وتكامله.

فتح القدير للشوكاني، ج ١، ص ٧٢٨.

٣- سورة التوبة، الآية ٢٨.

٤- التصوير الفني في القرآن: سيد قطب، ص ٧٦، دار الشروق، القاهرة، ط ٥، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م.

يتضح من كلام سيد قطب - رحمه الله - أنه لو فك إدغام ﴿أَنَّا قَلْتُمْ﴾ لصاع الأثر المنشود من الكلمة ولاختل التعبير ولم يف بالمقصود، بسبب خفة الجرس وما يترتب عليها من ضياع انطباع الثقل الذي يوحي به الإدغام. وإذا نظرنا إلى اللفظة في سياقها اللغوي الذي وردت فيه ألفيناها تتقابل «مع كلمة في السياق سابقة هي ﴿أَنفِرُوا﴾. إن هذا الأمر بالنفير لا تقابله حتى كلمة تتأقلمت، وإنما تقابله كلمة ﴿أَنَّا قَلْتُمْ﴾ لما فيه من تشديد وبطء وانجذاب إلى الأرض بدل الحركة والانطلاق»^(١).

إن الإدغام يؤدي وظائف متعددة، ولكن ما يهمنا منه هنا هو إدماج الحرفين المتقاربين التاء والتاء حتى لا يتحرك اللسان في منطقة واحدة، ولكن ليس بقصد إحداث الخفة ودفع الاستثقال كما هو شأن الإدغام حيث يكون عاملاً أساساً من عوامل اقتصاد المجهود، وإنما لإضافة ثقل إن لم نقل أثقلاً أخرى ليناسب المقام بوصف الواقعة وصفاً دقيقاً، ويحقق التأثير المنشود في المتلقي.

- ويقول الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجًا مِنْهَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾^(٢). «(وادكر) بالبدال المهمله أصله اذتكر وهو افتعال من الذكر قلبت تاء الافتعال دالا لثقلها ولتقارب مخرجهما، ثم قلبت الذال ليتأتى إدغامها في الدال لأن الدال أخف من الذال»^(٣).

والملاحظ أن الإدغام له صلة بالإعلال والإبدال، وهو مبحث من مباحث الصرف^(٤)، ووسيلة من الوسائل التي يتيحها النظام الصوتي العربي لإحداث

١- سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن: عودة الله منيع القيسي، ص ٢٧، دار البشير، الأردن، ط ١، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م.

٢- سورة يوسف، الآية ٤٥.

٣- التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، ج ١٢، ٢٨٣.

٤- علم الصرف «دراسة وصفية»: محمد أبو الفتوح شريف، ص ٢٢٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦ م.

التناسب بين حرفين متجاورين في التفخيم أو الجهر، وما نلاحظه في هذا المثال أن الدال أنسب وأقرب من التاء للذال^(١).

وبين هذا الأمر تدخل المباحث اللغوية وتكاملها، مما يؤكد أن اللغة نسق، وأن تقسيمها إلى مباحث وقضايا لا يعبر عن حقيقة اللغة، بل أمر عارض تفرضه دواعي علمية وتعليمية، تتوخى فهم اللغة عن طريق إدراك مكوناتها والعلاقات التي تقوم بين هذه المكونات، بغية الوصول إلى التوصيف العلمي للغة، الذي يمكننا من بناء النموذج اللغوي.

إن هذا الأمر يفرض علينا أخذه بعين الاعتبار عندما نريد مقارنة الخطاب / النص القرآني، فلا يمكن لمقاربتنا أن تدعي العلمية والموضوعية ما لم تتعامل معه على المستويات اللغوية السالفة الذكر، مع الأخذ بعين الاعتبار بخصوصياته، ومكوناته وبنائه، وعناصره التواصلية، وأنواع التلقي وأهدافه.

وقد تأتي الكلمة المدغمة مقابلة لكلمة من نفس السياق مما يجعلنا أمام مظهر آخر من مظاهر التناسب الصوتي، ذلك هو ما نجده عند الطاهر بن عاشور في تفسيره لقوله عز وجل: ﴿ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾^(٢): «والتعمير: جعل الإنسان عامراً، أي باقياً في الحياة، فإن العمر هو مدة الحياة. يقال: عَمَرَ فلان... إذا بقي زماناً، فمعنى عَمَّرَهُ بالتضعيف: جعله باقياً مدة زائدة على المدة المتعارفة في أعمار الأجيال، ولذلك قوبل بالنقص من العمر، ولذلك لا يوصف بالتعمير صاحبه إلا بالمبني للمجهول فيقال: عَمَّرَ فلان فهو معمَّر»^(٣).

ومما نلاحظه أن القرآن الكريم يسلك طرقاً تعبيرية متعددة ومتنوعة، ومن ثم فهو لا يسير على نسق تعبيرى واحد، بل يختار من الأساليب

١- المرجع نفسه، ص ٢٢٥.

٢- سورة فاطر، جزء من الآية ١١.

٣- التحرير والتشوير: للطاهر بن عاشور، ج ٢٢، ص ٢٧٦.

ما يناسب المقال و المقام و يحقق المقصد، و من ثم نجده في بعض الأحيان يعدل عن الإدغام إلى الإظهار كما ورد في قوله: ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾^(١). حيث تشير هذه الكلمة في نفس المتلقي «الرغبة الملحة التي تملك على المتقين نفوسهم فيتألمون إذا مست جنوبهم مضاجعهم ولا يجدون فيها الراحة والطمأنينة كأنما هذه المضاجع قد فرشت بالشوك فلا تكاد جنوبهم تستقر عليها حتى تجفوها وتبوعها»^(٢).

كما أن للإدغام صلة وثيقة بفواصل القرآن الكريم، وذلك لما يحدثه من توازنات صوتية تنتج إيقاعا داخليا يأخذ بالنفوس لجلاله وجماله، فضلا عن مناسبته للمقام و المقال و تحقيق المقاصد المتوخاة، و نمثل لذلك بما ورد في قوله تعالى من سورة مريم: ﴿ وَنُذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾^(٣). حيث توالى الفواصل متفقة في الحرف الأخير المضعف: عَزَا - ضِدًّا - أَزَا - عَدَّا - إِذَا - هُدَّا - عَدَّا - وَدَّا - لُدَّا.

ومما يبين صلة الإدغام بالتناسب اتفاق جمهور القراء على تسهيل الهمز مع الإدغام، و تحقيقه مع الإظهار، ليصبح النظام الصوتي القرآني متمتعا بالانسجام الداخلي الذي تحدثه التوافقات الصوتية، بعيدا عن النشاز الذي يمكن أن يحدثه اختلاف القيم الصوتية: فإذا كانت قيمة الإظهار (+) فإنه يناسبها تحقيق الهمز لأنه يتمتع بنفس القيمة الإيجابية، في حين إذا كنا أمام الإدغام الذي يمتاز بقيمة صوتية سالبة (-) فإن ما يناسبه هو تسهيل الهمز باعتبارها حاملا للقيمة الصوتية نفسها، ولذلك نجد ابن الجزري حرص على تتبع هذه الظاهرة الصوتية، لدرجة يحس معها الباحث أنها أصبحت قاعدة صوتية مقررة يتعين احترامها

١- سورة السجدة، الآية ١٦.

٢- من بلاغة القرآن: أحمد بدوي، ص ٦٦.

٣- سورة مريم، الآية ٧٩/٩٧.

محافظة على التناسب الصوتي، والإيقاع الداخلي. يقول ابن الجزري: «كل من ذكر الإدغام ورواه لا بد أن يذكر بعده إبدال الهمز الساكن»^(١). ويقول في موضع لاحق: «ولم يقرئنا أحد من شيوخنا بالإدغام مع الهمز»^(٢). ويقول في المبحث نفسه: «ما رأيت أحدا يأخذ عن أبي عمرو بالهمز ويادغام المتحركات ولا أعرف لذلك راويا»^(٣).

ويختتم هذا المبحث بما يشبه القاعدة المقررة: «الصواب الرجوع إلى ما عليه الأئمة وجمهور الأمة، ونصوص أصحابه وهو الصحيح. فقد روى الحافظ أبو عمرو الداني أن أبا عمرو كان إذا أدرج القراءة وأدغم لم يهمز كل همزة ساكنة»^(٤).

وهي الخلاصة نفسها التي انتهى إليها عبد الصبور شاهين، مع الجنوح إلى تأويلها وفق ما يقتضيه الدرس اللساني الحديث: «ومع اختلاف رواة الإدغام، ومع اختلاف مصادر هؤلاء الرواة عن أبي عمرو فإنهم جميعا قد ذكروا مع الإدغام تخفيف الهمزة. وهذا النهج من التلازم بين الإدغام وتخفيف الهمز تلازم طبيعي لأنه يتفق وطريقة أبي عمرو في تعمد التخفيف، والتماس أسبابه»^(٥).

ويمكننا أن نمثل لذلك بقوله ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾^(٦). عندما يدغم التنوين في الألف يتم تسهيل الهمز لتصبح على الشاكلة التالية: (عَادَ لِلُولَى)، وقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ﴾^(٧). فمن أظهر النون في (من) حقق همزة (أيام)، ومن نزع إلى

١- النشر في القراءات العشر: لابن الجزري، ج ١، ص ١٧٦.

٢- المرجع نفسه، ج ١، ص ٢٧٧.

٣- المرجع السابق، ج ١، ص ٢٧٨.

٤- كنز المعاني: للجعبري، ج ١، ص ٢٣٠/٢٣١.

٥- أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي: لعبد الصبور شاهين، ص ٩٢.

٦- سورة النجم، الآية ٥٠.

٧- سورة البقرة، جزء من الآية ١٨٤.

إدغام نون (من) سهل همزة (أيام)، لتصبح على الشكل التالي: (منياًم).
كما بين القراء قاعدة أخرى تخص الإدغام و المتمثلة في امتناع الإدغام
بسبب المد^(١).

نجد في مجال اللغة مجموعة من الظواهر اللغوية، سواء تعلق الأمر
بالمكون الصوتي أم التركيبي أم الدلالي، من ذلك ما نصلح عليه بالبنيات
التقابلية وما يهمننا منها هنا بنية التقابل المتمثلة في الإظهار والإدغام،
والمنطوق والمفهوم، والظاهر والمؤول، والأصل والفرع. وقد يظن المرء أن
المسألة أثيرت في الدرس اللساني العربي وهي من قبيل المحكمات المنطقية
التي لا صلة لها بواقع اللغة. وها نحن نكتشف أن المسألة مرتبطة ارتباطاً
وثيقاً بالواقع اللغوي. والواقع كما يقول المناطقة لا يرتفع، ومن ثم لا بد لنا
من مقاربه قصد فهمه، لأن تجاهله معناه تمكين منطق الجهل به، فضلاً
عن أننا نفوت على أنفسنا إدراك حلقة من حلقات فهم البناء اللغوي.

بالنسبة لموضوع الإظهار والإدغام، نعتقد أن الأمر لا صلة له بإثبات
الأصلية والفرعية، بقدر ما هو مرتبط بفهم الطريقة التي تشتغل بها اللغة.
إن الإظهار هو الأصل الذي يتألف منه النظام الصوتي للغة العربية،
وكذلك الشأن بالنسبة للبناء الصوتي للقرآن الكريم بطبيعة الحال. ومن
ثم فإن الانسجام الصوتي يفرض تحقيق توازنات صوتية في مواقف تعبيرية
معينة، مع تحقيق مبدأ لغوي هام ألا وهو اقتصاد المجهود، بتسهيل النطق،
وإحداث التأثير في المتلقي ببراعة وروعة الجرس الموسيقي، وجمالية
الإيقاع الذي تحدثه التوازنات الصوتية المحققة بالأصل وما يطرأ عليه من
عوارض، تمشياً مع المقام والموقف والمقال: رهبة ورغبة، بياناً وهداية. ومن
ثم يتم الجمع في تناسق عجيب، وانسجام بديع بين النغمية والجمالية.

١- النشر في القراءات العشر: لابن الجزري، ج ١، ص ٢٨٣.

الإدغام الكبير: للداني، ص ٥٠.

٢- الانسجام الصوتي في القرآن الكريم

نحاول في هذا المبحث أن نركز على التوازنات الصوتية للقرآن الكريم من الناحية الكمية العددية، أما يمكن الاصطلاح عليه بالإيقاع الخارجي أو الشكلي، ومن حيث التوازنات الصوتية الداخلية أي الإيقاع الداخلي، وصلة كل ذلك بالتعبير عن المعنى المراد، وتناسقه بالسياق والمقام.

أ- عناية البيان القرآني بالتوازنات الصوتية:

اعتنى القرآن الكريم عناية خاصة بالمستوى الصوتي، وذلك حتى تتجلى العملية التواصلية في بلوغ الأهداف المتوخاة، ومن ثم نجده «يتخير حروف الكلمة، وينتقي أصواتها صافية الذوق في مخارجها، لذيدة السماع، طيبة المجرى على اللسان معتدلة في تأليفها، خفيفة في الفم، نازلة على أحسن هيئة في الإيقاع، قوية الإيحاء، شديدة البعث لما تتضمنه من المعاني المرادة والأهداف المقصودة من الآيات الكريمة، لذلك نجد تناسقا عجيبا في تركيب حروف القرآن بين الرخو منها والشديد، والمجهور والمهموس، والممدود والمقطوع، والإمالة والروم والإشمام، ونجد أن اجتماعها مع بعضها يؤلف نغما مطربا يظهر أثره في صوت القارئ»^(١).

والمستوى الصوتي يحف بالقرآن الكريم من كل جانب، فالقرآن الكريم نزل أول ما نزل نزولا صوتيا، وتلقاه الرسول ﷺ عن جبريل تلقيا صوتيا، كما بلغه الرسول ﷺ إلى الأمة بلاغا صوتيا، وتناقلته الأمة جيلا بعد جيلا نقلا صوتيا، ولا عبرة إلى يومنا هذا بحفظ الحفاظ، وقراءة القراء ما لم يتلقوا ذلك تلقيا شفويا، رجلا عن رجل إلى رسول الله ﷺ.

إن رسالة القرآن الكريم المتمثلة في العقيدة والشريعة والأخلاق والسلوك، والهادفة إلى هداية البشر، تم تبليغها باللغة العربية، أي إن أداة التبليغ

١- ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن: عبد الفتاح لاشين، ص ٢٨، دار الرائد العربي، بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

مما يعرفه العرب ويحسنون استعماله. وقد جعل الله تعالى قرآنه ذا البنية اللغوية العربية وسيلة إثبات صحة الوحي فتحدى المنكرين أول الأمر أن يأتوا بمثله، ثم نزل التحدي إلى الإتيان بعشر آيات من مثله، لينتهي مطاف التحدي بالإتيان بسورة من مثله. وقد كان يكفيهم الإتيان بسورة واحدة من مثل القرآن الكريم حتى تبطل دعوة الإسلام من الأساس، وليس ضروريا أن تكون هذه السورة مثل سورة البقرة التي يبلغ عدد آياتها خمسا وثمانين ومائتي آية، وعدد كلماتها أربعاً وأربعين ومائة وستة آلاف كلمة، بل كان يكفيهم الإتيان بمثل سورة الكوثر المكونة من ثلاث آيات، ومن عشر كلمات، أي ما يمكن أن يشكل جملة واحدة، تتم كتابتها في أقل من سطر واحد ليكسبوا الرهان، ويكسروا التحدي. ولكنهم عجزوا عن ذلك، فقامت الحجة أنه كلام الله المعجز، ليس بالشعر ولا بالسجع. يقول ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ): «وأما القرآن - وإن كان من المنثور - فليس يسمى مرسلا مطلقا، ولا مسجعا، بل تفصيل آيات، ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها، ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها، ويثني من غير التزام حرف يكون سجعا ولا قافية»^(١).

وتؤكد الدراسات الأكاديمية التي أجريت في السنوات الأخيرة على القرآن الكريم من الناحية اللغوية عامة والصوتية خاصة، أنه نسيج وحده، فانسجامه واتساقه الصوتي مخالف لمجهود إيقاع الشعر والسجع^(٢)، هذا من الناحية الشكلية. أما من حيث المضمون فالقرآن ليس تخييلا، ولا قلبا للحقائق، ولا تزيينا للباطل، ولا ركوبا لعاطفة جامحة، ولا مسائرا للأهواء،

١ - مقدمة كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: عبد الرحمن بن خلدون، ص ٤٧٠، دار الكتب العلمية، بيروت بدون طبعة ولا تاريخ.

2- le Coran aux sources de la parole oraculaire. structures rythmiques des Sourates Mecquoises. P. Crapon de Caprona. Geneve 1981 Publication Orientaliste de France.

خصائص الإيقاع في القرآن: جزء عم: كمال عمران، كلية الآداب، جامعة تونس.

عن كتاب الإيقاع في السجع العربي محاولة تحليل وتحديد: محمود المسعدي، هامش ص ٢٢، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ١٩٩٦م.

ولا مشيراً لغوائل الشهوة، ولا مغالياً في المدح والذم، ولا مخادعاً للعقول. بعيد عن التعسف والتكلف، والطلاسم والمعميات. لا يقول إلا حقا، ولا يصف إلا واقعا، ولا يجال في الحقيقة، ولا يتنكر للغرائز والشهوات، وإنما يعمل على تنظيمها باعتبارها طاقة أو حافزا. بين الأهداف، واضح المقاصد، مهذب للنفس، ومقوم للسلوك. فالقضية إذن ليست مرتبطة بالانسجام الصوتي وحده، وليست منحصرة في الوزن العروضي، كما أنه لا يمكننا حصرها في التوازنات الصوتية، ذلك أن البناء اللغوي للقرآن الكريم «بناءً أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، في اختيار للوحدات اللغوية، والدقة في الهندسة بين أجزائها... كل عنصر في مكانه، وطرق تعليق دقيقة محكمة تتبع عن كل دلالة تظللها خلفية ثقافية، يؤدي فيها النغم الموسيقي دوره فتجاوب أصداؤه راحة في خفايا النفس وجنبااتها... إن البناء القرآني يفوق كل بديل من حيث تحقيقه ما يهدف إليه، يتضح ذلك في عناصر البناء اللغوي المختلفة من أدق عنصر داخل البناء، مع اتساقه مع بقية عناصر البناء المختلفة التي بنيت عليها وانبثقت عنها الدلالة، وتتجلى عظمة البناء القرآني في مواءمته لحال المخاطبين، كما تتجلى في طرح البدائل»^(١).

يمتاز المستوى الصوتي للقرآن الكريم بموافقته للنموذج الصوتي العربي. ومن ثم نجد فيه ما يمكن الاصطلاح عليه بالإيقاع العددي حيث التوازنات الصوتية الكمية، وفيه الفواصل حيث وحدة الحروف التي تختتم بها الآيات، وفيه الإيقاع الجرسى حيث يكون للكلمات جرس موافق للموقف والسياق، فتحدث تأثيرا عجيبا في النفس، وتوقظ الإحساس، وتبته العقل بما فتحة من آفاق الممكن الذي يتجاوز الواقع المادي بظلاله الروحانية، ونسماته الإيمانية. وفيه من التوافق والتقابل، ومن التقطيع والتقسيم التابع للتركيب والمعنى، والموافق للسياق والمقام، وفيه موازنات صرفية ناجمة عن التنوع

١- ظواهر قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية بين القدماء والمحدثين: البدرابي زهران، ص ١٣٣، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٣م.

الصيغي، ليصبح بناء الكلمة القرآنية من حيث هي أصوات مواقف تعبيرية.

وهذا يجعل القرآن الكريم حافلاً بأنواع التوازنات الصوتية الخارجية، بل يتجاوزها في كثير من الأحيان بابتكار أساليب جديدة تحدث توازنات صوتية داخلية لا تعتمد آليات الإيقاع الشكلية الكمية، بل تتجاوزها ليصبح الصوت معبراً عن موقف بما ينشئه في ذهن المتلقي من صور ولقطات ومشاهد، وما يحدثه فيه من تقمص للحدث.

ويعمل القرآن الكريم في كثير من الأحيان على انتقاء الحروف من حيث مخارجها وصفاتها، ووصف بعضها إلى بعض رصفاً عجيباً يحدث عند تجميعه معنى تكون له تأثيراته المقصودة على عقل المتلقي ونفسيته بما يهيئه من أجواء موافقة للموقف والسياق: رغبة ورهبة، خوفاً ورجاء، حزنًا وفرحاً، إقبالاً وإحجاماً، «وحسبك بهذا اعتباراً في إعجاز النظم الموسيقي في القرآن... لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية، في الهمس والجهر، والشدّة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والتفشي والتكرير... وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي. وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنوع الصوت بما يخرج فيه مداً أو غنة، أو لينا أو شدة، وبما يهيء له من الحركات المختلفة في اضطرابه، وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها. ثم هو يجعل الصوت إلى الإيجاز والاجتماع، أو الإطناب والبسط بمقدار ما يكسبه من الحدة والارتفاع، والاهتزاز وبعد المدى ونحوها، مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى»^(١).

وبذلك يكون القرآن سائراً على نهجه في موافقة النموذج العربي وخرقه، مما يجعل منه ذلك الممكن المستحيل، إن القرآن الكريم عندما تلي على

١- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، مراجعة درويش الجويدي، ص ١٧٦

١٧٧، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٤ م.

العرب أول مرة «رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جملة، ألحانا لغوية رائعة، كأنها لا تتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها فلم يفهم هذا المعنى، وأنه أمر لا قبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم، حتى إن من عارضه منهم كمسيلمة، جنح في خرافاته إلى ما حسبه نظما موسيقيا أو بابا منه، وطوى عما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية، إنما هي في أوزان الكلمات وأجرام الحروف دون ما عداها، وليس يتفق ذلك في شيء من كلام العرب إلا أن يكون وزنا من الشعر أو السجع»^(١). فالقرآن الكريم من جنس لغة العرب، ولكن العرب عجزوا عن الإتيان بمثله.

ب- موافقة النموذج الصوتي العربي:

حرص القرآن الكريم على المحافظة على هذا النموذج وذلك تأكيداً لعروبته من جهة، وتعجيذا للعرب عن أن يأتوا بمثله وهو من جنس ما يعرفونه ويجيدونه. ومن ثم نجد القرآن الكريم يتخير - في كثير من المواضع والمواقف - استعمال الأصوات العربية الأصيلة المميزة للغة العربية عن غيرها من اللغات الأخرى بما فيها اللغات السامية التي تنتمي لها اللغة العربية.

افتتح القرآن الكريم بعض سوره بالحروف المقطعة^(٢) التي تمثل كل الظواهر الصوتية العربية، حيث نجد فيها الحروف المهموسة والمجهورة، والشديدة والرخوة، والمطبقة والمنفتحة، والحلقية والشفوية، وأحرف القلقة. وهي تشكل في مجموعها نصف مجموع حروف الأبجدية العربية التسعة والعشرين، وفي ذلك يقول الزمخشري (ت ٥٣٨): «واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف

١- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، ص ١٧٦.

٢- معاني القرآن: للفراء، ج ١، ص ١٠/٩ - ٣٦٨.

أسامي حروف المعجم، أربعة عشر سواء. وهي: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون، في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم». وإذا نظرنا في هذه الأربعة عشر وجدناها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف:

من المهموسة نصفها: الصاد والكاف والهاء والسين والحاء.
ومن المجهورة نصفها: الألف واللام، والميم والراء، والعين والطاء، والقاف والياء والنون.
ومن الشديدة نصفها: الألف والكاف والطاء والقاف.
ومن الرخوة نصفها: اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون.
ومن المطبقة نصفها: الصاد والطاء.
ومن المنفتحة نصفها: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون.
ومن المستعلية نصفها: القاف والصاد والطاء.
ومن المنخفضة نصفها: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون.
ومن حروف القلقة نصفها: القاف والطاء»^(١).

ونحب أن نبين أن الزمخشري مسبق في هذه الملاحظات القيمة . التي تبين عن حس نقدي، ودراية بعلم الأصوات وبصفات الحروف، وامتلاك أدوات الباحث المقتدر . بالباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) في كتابه «إعجاز القرآن»

١- الكشف للزمخشري، ج ١، ص ١٠٣/١٠٠.

البرهان في علوم القرآن للزركشي، ج ١، ص ١٦٦.

حيث تحدث عن النسق الصوتي العربي بتفصيل، مبيناً أن الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم جاءت ممثلة لهذا النسق، ومبينة أن القرآن الكريم من جنسها^(١).

ومجموع السور المفتحة بالحروف المقطعة تسع وعشرون سورة، منها ست وعشرون مكية وهي: الأعراف، ويونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والحجر، ومريم، وطه، والشعراء والنمل، والقصاص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة، ويس، و ص، وغافر، وفصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، و ق، والقلم. أما السور المدنية فهي ثلاث: البقرة، وآل عمران، والرعد. وقد وظف القرآن الكريم الحروف المقطعة على الشكل التالي:

- حرف واحد: ص / ق / ن.
- حرفان: طه / يس / حم.
- ثلاثة أحرف: ألم / الر / طسم.
- أربعة أحرف: ألمص / المر.
- خمسة أحرف: كهيعص / حم عسق^(٢).

وفي كثير من الأحيان يجمع القرآن الكريم بين حرفين من الحروف العربية التي يتميز بها النسق الصوتي العربي، كحرفي الضاد والطاء في قوله تعالى:

﴿وَلَيْنِ أَدَقْنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنِ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلْيُنَبِّئِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَىٰ الْإِنسَانِ

١- إعجاز القرآن: أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت٤٠٣هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر، ص ٤٤ / ٤٥، دار المعارف، القاهرة، ط ٥، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.

٢- فواتح سور القرآن: حسين نصار، ص ١٨٢/١٨٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٤، ١٤٠٤ هـ / ٢٠٠٢ م.

أَعْرَضَ وَتَنَاءَ بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿١﴾. والملاحظ في الآيتين الكريميتين جمع القرآن الكريم في صعيد واحد الحروف المميزة للغة العربية: الحاء (رحمة) و(الحسنى)، والضاد (ضراء) و(أعرض) و(عريض)، والطاء (أظن) و(غليظ)، والقاف (أذقناه) و(ليقولن) و(قائمة) و(لنذيقنهم)، والعين (الساعة) و(رجعت) و(عنده) و(عملوا) و(عذاب) و(أنعمنا) وغيرها، والغين (غليظ)، والهاء (هذا) و(هم) و(مسه).

ج- البنية الإيقاعية العددية:

القرآن الكريم ليس شعرا شكلا ومضمونا - كما سبق أن بينا - وليس معنى ذلك أنه ليس فيه توازنات صوتية عديدة، أو ما يمكن الاصطلاح عليه بالبنية الإيقاعية العددية التي تشكل إيقاعه الخارجي. حيث إننا نجد الاتفاق في عدد المقاطع الطويلة والقصيرة وترتيبها ترتيبا منتظما، مما يجعلها تدرج ضمن الدوائر الخليلية، تشكل التفاعيل - المبنية على الترتيب الزمني للحركات والسكنات - الوحدة الإيقاعية للنص / الخطاب القرآني الكريم، حيث تجمع التفعيلة الواحدة بين عدة أجزاء من الكلمات القرآنية، وقد تقع الكلمة القرآنية بين نهاية تفعيلة وبداية أخرى أو وسطها، مما يجعل من هذه التفعيلات أدوات ربط بين الكلمات والحروف، مشكلة بذلك وحدة صوتية. وهنا تكمن أهمية الإيقاع الوزني حيث يقوم بوظيفتين: وظيفة الاتساق المتمثل في الربط بين مكونات النص / الخطاب القرآني الكريم، ووظيفة الانسجام بما يشيعه من توازن صوتي - تام وغير تام - يسهم في تشكيل الإيقاع القرآني.

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم سنجد التوازن في الوزن الإيقاعي قائما بين مجموعة من المفردات المكونة لآية أو آيتين. حيث تتوافق سلسلة من المقاطع

١- سورة فصلت، الآيتان ٥١/٥٠.

الطويلة والقصيرة، وينتظم ترتيبها بغض النظر عن حدود الكلمات القرآنية وعددها، مما يفرضي إلى تساوي تلك الآيات عددياً من حيث المقاطع.

إن صاحب الأذن الموسيقية يستطيع بكل سهولة اكتشاف الآيات التي تتساوى عددياً من حيث الوزن العروضي، مما يجعلها متفقة مع وزن من أوزان بحور الشعر العربي. ويمكننا أن نمثل لذلك بآيات قرآنية، مع التذكير بأن هذه الالتفاتة لاتعني خضوع القرآن لأوزان الشعر العربي، أو موافقته لها:

فما جاء قريباً من بحر الطويل: قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾^(١).

/٠/٠//٠/٠//٠/٠//٠/٠//

فعلون مفاعيلن فعولن مفاعيل

ومما جاء شبيهاً ببحر الكامل قوله تعالى: ﴿وَيُتْرَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ
وَيَهْدِيكَ﴾^(٢).

//٠//٠//٠//٠//٠//

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

ومما جاء مقارباً لبحر البسيط قوله عز وجل ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْطَّرْفِ
أَنْرَابٌ﴾^(٣).

٠/٠//٠/٠//٠/٠//٠/٠//

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن^(٤).

١- سورة الأنعام، جزء من الآية ١٥١.

٢- سورة الفتح، جزء من الآية ٢.

٣- سورة ص، الآية ٥٢.

٤- الإتيان في علوم القرآن: للسيوطي، ج ٣، ص ٢٥٩/٢٦٠.

موسيقى الشعر: إبراهيم أنيس، ص ٣٢٩/٣٣٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٤، ١٩٧٢م.

التناسب البياني في القرآن: أحمد أبو زيد، ص ٣١٧/٣١٩.

د- الإيقاع القرآني في علاقته بالدلالة والسياق والمقام:

يتخذ الإيقاع القرآني أشكالاً متعددة ومتنوعة مما يبين غنى الإيقاع القرآني وحركيته من حيث السرعة والبطء، والقوة والضعف بحسب السياق والمقام، والمعنى المراد تبليغه، والأثر الذي يريد أن يخلفه في المتلقي.

ولاتساق الإيقاع القرآني من حيث علاقته بالمعنى أشكال متعددة، يمكن رصدها من خلال اختيار القرآن الكريم للكلمات وصيغها، مما يشيع الانسجام بين الصوت والمعنى مروراً بصيغة الكلمة، أو طبيعة الأصوات التي تتشكل منها^(١).

ويمكننا إجمال أنواع الإيقاع من حيث علاقته بالدلالة والسياق والمقام في ما يلي:

- توحيد الإيقاع مع اختلاف المعنى.
- تنوع الإيقاع مع تنوع المعنى.
- اتساق الإيقاع مع الجو العام وتعددته بتعددته.

١- الإتيان في علوم القرآن: للسيوطي، ج ٣، ص ٢٦٢.
الخصائص: لابن جني، ج ١، ص ٦٥، ج ٢، ص ١٥٨، ج ٣، ص ٢٦٥.
تفسير البيهقي، ج ٢، ص ٤٢٢.
الصورة الفنية في المثل القرآني: محمد حسين علي الصغير، ص ٢٥٩/٢٥٥، دار الهادي، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
التصوير الفني: لسيد قطب، ص ٧٦/٧٧.
مشاهد القيامة في القرآن، ص ١٨٠.
بلاغة تصريف القول: للنقراط، ج ١، ص ٢٤١/٢٣٥.
الفصاحة: لعلي الفيل، ص ١٧.
من بلاغة القرآن: لأحمد بدوي، ص ٦٩.
لغة القرآن لغة العرب المختارة: محمد رواس قلعجي، ص ٦٨/٦٩، دار النفاثس، بيروت، ط ١، ١٤٠٨م.
هـ/ ١٩٨٨م.
سر الإعجاز: لعودة الله منيع القيسي، ص ٢٩ / ٣٢.

- انسجام الإيقاع مع المقام^(١).

ويمكننا أن نمثل لمقام الاستغفار بقوله سبحانه وتعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(٢). حيث عمل البيان القرآني على تحقيق التناسب بين مخارج الحروف وصفاتها وحركاتها وبين المعنى والسياق والمقام، وتكرار الحرف على أبعاد محسوبة بدقة متناهية، مما يكسب النظم القرآني إيقاعية خاصة تحقق جماليته، وتنتهي إلى بلوغ الأهداف المتوخاة بإحداث الأثر المطلوب في المتلقي، بما يأسر قلبه، وينير وجدانه.

ففي هذه الآية نلاحظ تكرار بعض الحروف المناسبة لمقام الاستغفار، كحرف السين المهموس والرخو، والذي يتميز بالضعف، والاستفال، الذي تردد أربع مرات وذلك في (أنفسهم) - (فاستغفروا) - (واستغفر) - (الرسول).

ومثل حرف اللام الذي يتميز بالخفة، وهو حرف مذلق، ينساب على اللسان، وهو من حروف الرخاوة والاستفال كذلك، مما يؤكد انسجامه مع مقام الاستغفار، الذي يفرغ إليه الإنسان عند ظلمه لنفسه لاجئاً إلى الله عز وجل ليمسح عن نفسه أدران المعصية، ويحقق وجودها بالطهر، والعودة إلى الأصل. وقد تكرر هذا الفونيم سبع مرات: (لو) - (ظلموا) - (الله) ورددت مرتين - (لهم) - (الرسول) - (لوجدوا). ومما يزيد اللام انسجاماً مع

١- قواعد تشكل النغم في موسيقى القرآن: نعيم اليافي، مجلة التراث العربي- مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق العددان: ١٥ و١٦، السنة الرابعة، رجب وشوال ١٤٠٤ - أبريل/ يوليو ١٩٨٤م.

نحو تأويل تكاملي للنص القرآني: فهد عكام، ص ٥٨ / ٧٠، مجلة التراث العربي- مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ٧٠، السنة ١٨، رمضان ١٤١٨ هـ / يناير ١٩٩٨م.

تحرير التعبير: لابن أبي الإصبع، ص ٣٧٥.

الإيقاع في علوم القرآن: للسيوطي، ج ٣، ص ٢٠٦/١٩٩.

٢- سورة النساء، جزء من الآية ٦٤.

المقام غلبة حركة الفتح عليها في جميع الكلمات السالفة الذكر. والفتح كما هو معروف دال على الخفة والاعتدال ما بين العلو (الضمة)، والانخفاض (الكسرة)، وقد وردت مفتوحة باستثناء موضع واحد: (الرسول) حيث جاءت مضمومة.

ومثل حرف الواو الممدودة التي استعملت بكثرة في هذه الآية حيث تكررت خمس مرات: (ظلموا) - (جاؤوك) - (استغفروا) - (الرسول) - (وجدوا). وحروف المد واللين عموما المثلة في: الألف و الواو و الياء حروف ضعيفة لا ترقى في قوتها إلى الأصوات الأخرى.

أما فونيم الفاء المهموس الذي من صفاته كذلك الرخاوة والذلاقة والاستفال حيث اجتمعت فيه جميع صفات الضعف، خاصة أنه حرف شفوي، خفيف على اللسان، لا يبذل المرء مجهودا للنطق به، وقد تكرر كذلك ثلاث مرات في الآية نفسها: (أنفسهم) - (فاستغفروا) - (استغفر). وقد جاء حرف الفاء مفتوحا في الكلمتين الأخيرتين وهذا يزيده ضعفا إلى ضعفه، لأن حركة الفتح أخف الحركات.

وإذا كان حرف الهاء أضعف حرف على الإطلاق داخل الأبجدية العربية، فإن الآية قد وظفته خمس مرات: (أنهم) - (أنفسهم) - (الله) وقد ورد مرتين - (لهم)، نظرا لمناسبته للمقام المتحدث عنه، خاصة أنه حرف مستقل، يتميز بالهمس والرخاوة، وكلها خصائص تجتمع لتجعله صوتا ضعيفا.

أما مقام الدعاء فتمثل له بقوله سبحانه: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مِنْ تَدَخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (١٣) رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعنا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَنِ أَنْ أَمْمُوا بِرَبِّكُمْ فَامنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿ (١)

١ - سورة آل عمران، الآيتان ١٩٢/١٩٣.

وسورة آل عمران من بدايتها إلى نهايتها يغلب عليها إيقاع متشابه، الفاصلة واحدة وهي على صيغة (فعليل) نحو: حكيم، وأليم، وقدير، ومصير، ورحيم، وغيرها باستثناء مقامين للدعاء، وهما في الآيات الأولى للسورة: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٨) ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (١)، وفي نهايتها وهما الآيتان سالفتا الذكر، حيث تتحول الفاصلة إلى مد ألفي بعده حرف مذلق: الألباب، والنار، والقرار. وقد ناسب هذا المد مقام الدعاء في السورة الكريمة ذلك أن هذا المشهد «يناسبه دعاء خاشع مرتل، طويل النغم، عميق النبرات، فيطول بذلك عرض المشهد وإيحاءاته، ومؤثراته على الأعصاب والأسماع والخيال، فيؤثر في الوجدان بما فيه من خشوع وتغيم، وقد طال هنا المشهد بعباراته، وكذلك بنغماته» (٢). وإذا تتبعنا الحروف التي تتردد بكثرة في هذا المقام فسنجد حرف النون الذي تكرر سبعة عشر مرة، والنون من الأصوات المذلقة الخفيفة على اللسان، والضعيفة. ومما زاد من ضعفها في هذا المقام أنها جاءت ممدودة مع الألف ثلاثة عشر مرة، والألف بدوره حرف ضعيف لين، ومن هنا نجد القرآن الكريم قد اختار هذا الحرف الخفيف والضعيف المتميز بالانخفاض للتعبير عن مقام الدعاء، الذي هو مقام ضعف وانكسار ورجاء.

أما الحرف الذي تكرر كذلك في هاتين الآيتين فهو حرف الميم، الذي يشترك مع النون في خاصية الإذلاق والخفة، فضلا عن مخرجه الشفوي، حيث لا يبذل الجهاز النطقي جهدا في إخراجها، بل ينساب برفق كبير بين الشفتين، دون أدنى مجهود. وقد جاء هذا الحرف بجميع صفاته ليناسب المقام، حيث إن استعمال هذه الحروف الخفيفة والضعيفة يوازي ضعف هذا الإنسان المبتهل إلى الله تعالى بالدعاء.

١- سورة آل عمران، الآيتان ٨/٩.

٢- في ظلال القرآن: لسيد قطب، ج ١، ص ٥٤٨.

هـ - الفاصلة^(١) :

استعمل البيان القرآني هذه الآلية بكثافة ملحوظة ، وبأشكال مختلفة :

١- الفاصلة المبنية على حرف الروي :

ونقصد به الحرف الأخير من الفاصلة، وقد اشتركت مجموعة من السور في انتهاء فواصلها بحرف روي واحد من أول السورة إلى آخرها وهي:

- سور القمر، والقدر، والعصر، والكوثر، تماثلت فواصلها في حرف الراء.

- سورتا الأعلى والليل، ويشتركان في حرف الألف المقصورة.

وقد انفردت بعض السور بروي خاص بها انتظم السورة من أولها إلى آخرها نحو:

- سورة الشمس: الألف الممدودة بعدها حرف الهاء الممدود.

- سورة المنافقون: النون.

- سورة الفيل: اللام.

- سورة الإخلاص: الدال.

- سورة الناس: السين.

وهناك حالة نادرة في القرآن الكريم وهي الفاصلة المنفردة ، حيث تنتهي السورة بفاصلة ذات روي مخالف لكل ما سبق، نحو ما نجد في سورة الضحى ذات الفاصلة الممدودة بألف مقصورة واستمرت على ذلك النهج

١- يراجع في تعريفها : البرهان في علوم القرآن : للزركشي، ج ١، ص ٩٤/٦٨ ، والإنتان في علوم القرآن : للسيوطي، ج ٣، ص ٢٩٠.

والفواصل: حسين نصار، ص ١٣٢ / ١٦٤، مكتبة مصر، القاهرة، ط ١، ١٩٩٩م.

الفاصلة في القرآن الكريم: محمد الحسنأوي، ص ٣٠٧/٢٩٦، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م.

من أول السورة إلى الآية الثامنة: ﴿وَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾^(١)، حيث يصبح روي الفاصلة هو حرف الراء ويشمل ذلك آيتين: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾^(٢) و﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾^(٣)، تمهيدان للروي الفريد الذي ستتوج به فاصلة الآية الأخيرة من السورة وهو حرف الثاء: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^(٤).

٢- الفاصلة والتناسب الصوتي والمعنوي:

من ذلك قوله تعالى: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾^(٥) حتى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿١﴾ تقول عائشة عبد الرحمن: «وقد تجد الصنعة البلاغية في استعمال المقابر هنا مجرد ملاءمة صوتية للتكاثر، وقد يحس أهل البلاغة ونحس معهم فيها نسق الإيقاع بهذه الفاصلة، فهل تكون المقابر في آية التكاثر لرعاية الفواصل فحسب؟... واستعمالها هنا يقتضيه معنويا أنه اللفظ الملائم للتكاثر الدال على مصير ما يتكالب عليه المتكاثرون من متاع دنيوي فان . هناك حيث مجتمع القبور، ومحتشد الرمم، ومساكن الموتى على اختلاف أعمارهم، وطبقاتهم ودرجاتهم، وأزمنتهم. وهذه الدلالة من السعة و العموم والشمول لا يمكن أن يقوم بها لفظ القبور... وهنا يتجلى إثثار البيان القرآني المقابر على القبور»^(٥).

٣- الفاصلة المتساوية الوزن:

ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَيُّنَّهُمَا أَلْكِبَبَ الْمُسْتَيِّنِ﴾^(٦) و﴿وَهَدَيْتَهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٦).

١- سورة الضحى، الآية ٨.

٢- سورة الضحى، الآيتان ٩/١٠.

٣- سورة الضحى، الآية ١١.

٤- سورة التكاثر، الآيتان ١/٢.

٥- التفسير البياني للقرآن الكريم: عائشة عبد الرحمن، ج ١، ص ٢٠١، القاهرة، ط ٥، ١٣٩٧ هـ

١٩٧٧ م.

٦- سورة الصافات، الآيتان ١١٧/١١٨.

٤- الفاصلة والمعجم :

حيث يعتمد البيان القرآني إلى اختيار ألفاظ تناسب الفاصلة من ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾^(١). ونلاحظ أن اختيار القرآن الكريم للفظ «بعيد» له أسباب متعددة منها مناسبة الفاصلة، والتعبير عن واقع معين تصريحاً وتلميحاً، وشكلاً ومضموناً، ونغماً وإيقاعاً.

٥- الفاصلة والتركيب:

حيث يعتمد القرآن الكريم إلى إحداث تحويلات في التركيب مناسبة للفاصلة ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ حَنْزُ الْمَلْقَيْنِ﴾^(٢) وقوله ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى﴾^(٣) حيث انتقلت الآية الأولى من المتوالية التركيبية:

أداة تخيير + ناسخ حريفي (أن) + فعل مضارع (وإما أن نلقي).

إلى:

أداة تخيير + ناسخ حريفي (أن) + ناسخ فعلي (كان) + اسمها (ضمير مستتر) + خبرها (الملقين).

ونزوع البيان القرآني إلى هذا التغيير التركيبي مرده إلى المحافظة على الفاصلة المذيلة بروي نوني وذلك حتى تلائم الفاصلة التي سارت عليها سورة الأعراف المختومة بروي نوني (يعلمون - خالدون - يحزنون - كافرين...)، ذلك أن السورة التي تضم ستاً ومائتي آية لم تحد عن هذه الفاصلة ذات روي نوني رنان، مسبوق بمد واوي أو يائي إلا في ستة مواضع. فضلاً عن أنها عندما تغير الروي فإنها تختار حروفاً متقاربة مع روي النون

١- سورة البقرة، جزء من الآية ١٧٦.

٢- سورة الأعراف، جزء من الآية ١١٥.

٣- سورة طه، جزء من الآية ٦٥.

في المخرج كالميم في (مستقيم - عليم) واللام في (إسرائيل).

أما بالنسبة للآية الثانية، فقد عدل القرآن الكريم عن البنية التركيبية السابقة الذكر إلى بنية تركيبية أخرى:

ناسخ فعلي (كان) + اسمها (ضميرمستتر) + خبرها (أول).

وذلك مراعاة للفاصلة المذيلة بالألف المقصورة.

٦- الحذف مراعاة للفاصلة:

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾^(١) حيث حذف الضمير العائد على ما - إذ الأصل : (ما تسرونه) و(ما تعلنونه) - وذلك مراعاة للفواصل النونية^(٢). ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾^(٣). حيث حذف ضمير الخطاب (الكاف) وهو مفعول (قل) مراعاة للفاصلة التي سارت منذ بدايتها على الألف المقصورة، فتقديرها (وما قلاك).

٧- التقديم والتأخير مراعاة للفاصلة:

ونمثل له بقوله سبحانه وتعالى ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرِّئَاءِ تَعْبُرُونَ﴾^(٤)، حيث قدم المعمول (الرؤيا) على العامل (تعبرون) مراعاة للفاصلة^(٥).

٨- الفاصلة والعدول:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾^(٦)، حيث عدل البيان القرآني عن المصدر الأصلي (تبتلا) إلى المصدر (تبتيلا)، مع أن

١- سورة النحل، الآية ١٩.

٢- فتح البيان: للفتوحى، ج ٧، ٢٢٥.

٣- سورة الضحى، الآية ٣.

٤- سورة يوسف، جزء من الآية ٤٣.

٥- التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، ج ١٢، ص ٢٨١.

٦- سورة المزمل، الآية ٨.

هذا الأخير مصوغ من فعل (بتل) وليس (تبتل)، فكان الأمر خلاف ما ينتظره المتلقي مما يسهم في تغذية الإيقاع القرآني في الآية الكريمة بنفس المباشرة من جهة مطابقة الفعل (تبتل)، ومستجيباً لأفق انتظار المتلقين من جهة الإيقاع، حيث إن العدول هنا ناسب فواصل الآيات السابقة التي تسير على نمط اللام الممدودة المسبوقة بياء: (جميلاً - جحيماً - أليماً - مهياً...)، ومن ثم يتبين لنا أن القرآن الكريم استخدم آلية العدول مراعاة للفاصلة والسياق «والسر في هذا العدول... هو تضمين المصدر تبتيلاً معنى التبتل أيضاً... فالفعل تبتل على صيغة (تفعل)، و(تفعل) تأتي لمعان منها التكلفة كتصبر وتحلم: تكلف الصبر والحلم. ومن ثم نرى أنه قد أتى بالتبتل وهو على وزن التفعل الدال على التكلفة والمحاولة... ليدل على أن المراد هو الإكثار من هذا التبتل والانتقطاع»^(١).

أما في قوله ﴿فَلَا يُحْرَجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾^(٢)، عدل القرآن الكريم عن التثنية (فتشقى) إلى الإفراد (فتشقى) مراعاة للفواصل، وبياناً لمقصد شرعي يتمثل في تحمل الرجل تبعات المسؤولية باعتبارها مناط القوامة. إن الآية الكريمة تشير إلى أن الإخراج وقع عليهما، أما الشقاء فإما أن يكون واقعا عليه، والمرأة تبع له، يصيبها ما يصيبه. أو أن يكون الشقاء واقعا عليه وحده لما له من القوامة عليها والحماية لها. وكلا المعنيين مقصود - في نظرنا-، ذلك أن الحياة الزوجية شراكة بين الزوجين بإيجابياتها وسلبياتها، كما أنها معايشة ومؤازرة، ودعم ومساندة، وبذل وعطاء، وتضحية وفداء.

أما المعنى الثاني فهو مقصود كذلك ليبين أن القوامة ليست أفضلية الجنس، بل أفضلية الواجب والمسؤولية، فلا قوامة بدون تحمل المسؤولية.

١- الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم: عبد الحميد هنداوي، ص ١٦٥/١٦٦، المكتبة العصرية،

بيروت، ط ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م.

٢- سورة طه، جزء من الآية ١١٧.

٩- الفاصلة ودور المتلقي في إكمال المعنى والإيقاع :

يفسح القرآن الكريم مجالاً كبيراً للمتلقي حيث يشركه في إتمام المعنى والإيقاع، مما يبين أنه متلقٍ فعال، كما يؤكد تشبع هذا المتلقي بالثقافة الإسلامية، حيث ينطلق بتلقائية لإتمام المعنى والإيقاع، ويحصل هذا الأمر بالنسبة للفواصل المفتوحة كقوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدْرِ عَلِيٍّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾^(١). وقوله ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾^(٢). والاستفهام هنا استفهام تقريرى، الغرض منه ثبوت الشيء المستفهم عنه المعلوم عند المتلقي، وكذلك تقرير هذا الشيء في نفس المتلقي بمعنى طلب اعترافه بوقوعه، وحصول مدلوله^(٣).

إن كل جملة استفهامية لا بد لها من جواب، فيكون السؤال بمثابة المبتدأ بالنسبة للجملة، والجواب هو خبره، لأن المعنى لا يتم إلا به. ومن ثم سن للمتلقي أن يقول عقب تلاوته أو سماعه لهاتين الآيتين: بلى. جواباً على الاستفهام، وبذلك يتم المعنى، وينسجم الإيقاع.

١٠- الفاصلة والتناسب :

حيث تناسب الفاصلة معنى الآية ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(٤).

ختمت الآية الكريمة ب (يتفكرون) لأن إعمال الفكر والنظر في إنبات النباتات المتنوع والمختلف بماء واحد «يحتاج إلى مزيد تأمل، واستعمال فكر... ومن تفكر في ذلك علم أن من هذه أفعاله وآثاره لا يمكن أن يشبهه

١- سورة الملك، الآية ٤٠.

٢- سورة التين، الآية ٨.

٣- النحو الوافي: عباس حسن، ج ٤، ص ٢٥٧، دار المعارف، القاهرة، ط ٦، ١٩٨٣م.

٤- سورة النحل، الآية ١١.

شيء في شيء من صفات الكمال، فضلا عن أن يشاركه أخس الأشياء في
أخص صفاته التي هي الألوهية واستحقاق العبادة»^(١).

ثانيا- الجانب الصريفي :

١- الاستعمال الفريد لبعض الأفعال في القرآن الكريم :

وردت جملة أفعال ماضية على وزن فَعَلَ مرة واحدة في القرآن الكريم.
ومن خلال دراستنا لهذه الآيات، لاحظنا أن هذه الظاهرة اللغوية القرآنية
لها صلة بالسنن الكونية والسنن الاجتماعية والتاريخية. ومن ثم فإن مكون
الصرف يستخدم مرة أخرى في القرآن الكريم كعامل أساس من عوامل
انسجامه واتساقه.

ويتضح جليا من خلال الأمثلة القرآنية أن الصيغة الفريدة تدل على
الموقف الفريد الذي لا يتكرر، أو السنة التي لا تتخلف. ويمكننا أن نصنف
هذه الأفعال الماضية ذات الصيغة الفريدة إلى قسمين اثنين :

أ- السنن الكونية:

- يقول عز وجل: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾^(٢).
- يقول سبحانه تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾^(٣).
- يقول تعالى: ﴿فَمَحُونًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾^(٤).
- يقول عز وجل: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾^(٥).
- يقول: عز وجل: ﴿وَوَقَّهْمَ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾^(٦).

١- فتح البيان : للقنوجي، ج ٧، ص ٢١٦.

٢- سورة الانشقاق، الآية ١٧.

٣- سورة الرحمن، الآية ١٩.

٤- سورة الإسراء، الآية ١٢.

٥- سورة البقرة، الآية ١٦٤.

٦- سورة الدخان، الآية ٥٦.

- يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾^(١).

ب- السنن الاجتماعية والتاريخية:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَكُمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾^(٢).

وردت في الآية الكريمة قراءة أخرى غير قراءة الجمهور التي أثبتناها، وهي تفيد معاني أو بالأحرى ظلالات للمعاني. وهاتان القراءتان هما: قراءة ابن عامر (ت ١١٨ هـ): (هو الذي يَنْشُرُكُمْ) بالنون والشين من النَّشْرِ^(٣). «وهو مصدر نَشَرْتُ الثوبَ أَنْشُرُهُ نَشْرًا. قال الجوهري (ت ٣٩٨ هـ): نشر المتاع وغيره: بسطه. ومنه ريح نُشُور ورياح نُشْرُ أي: طيبة»^(٤).

وردت الآية الكريمة في معرض وصف الله تعالى «لطبيعة البشر في تلقيهم للنشر والخير. وضاعتهم إلى الله عند مس الأذى، ونسيانهم له عند كشف الضر. ولجأهم فيما كانوا من قبل فيه، دون اعتبار بالقرون الخالية التي سارت في الطريق ذاتها، ولقيت مصارعها في ذلك الطريق!

... (مع الإشارة إلى) طبيعة البشر في تلقي الرحمة والضر، وعرض نموذج حي من هذه الطبيعة، في مشهد من المشاهد النابضة المتحركة المؤثرة، في ركوب البحر عندما تسير الفلك في أول الأمر رخاء، ثم تعصف بها الريح ويأتيها الموج من كل مكان»^(٥).

والملاحظ في فعل (جرين) أنه ورد بصيغة فريدة في القرآن الكريم، كما أن فيه عدولا عن المضارع إلى الماضي، وجاء ذلك للتعبير بشكل غير مباشر عن سنة من سنن الله تعالى الكونية المتمثلة في جريان الفلك في

١- سورة الفلق، الآية ٣.

٢- سورة يونس، الآية ٢٢.

٣- السبعة في القراءات لابن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ)، ص ٣٢٥.

٤- لسان العرب لابن منظور (ت ٧١١ هـ)، باب النون، مادة (نشر)، ج ٦، ص ٤٤٢٣.

٥- في ظلال القرآن لسيد قطب (ت ١٢٨٧ هـ)، ج ٢، ص ١٧٥٨ / ١٧٥٩.

البحر، وفي ذلك إشارة إلى معجزة من معجزات الخلق، وهو خاصية طفو السفن فوق الماء، إذ لو لم يجعل الله تعالى في الماء تلك الخاصية ما أمكن الإنسان الإبحار فوق السفن الشامخات، وكل ذلك بقدر. والسنة الثانية سنة من سنن الله تعالى في التاريخ والاجتماع والمتمثلة في مواجهة نعم الله تعالى بالكفر والجحود، ليؤكد على أنها خاصية من خواص بني البشر، وقد عبر عن ذلك القرآن الكريم في مواضع متعددة منها قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾^(١)، وقوله ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٢). ليطمئن قلب رسوله وأوليائه بأن المعول عليه هو الله تعالى، والاستمرار في الدعوة، والسير إلى الله تعالى. وأن العبرة ليست بكثرة من يستجيب لدعوة الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، بقدر ما أن الذين يستجيبون لداعي الله تعالى هم الذين خصهم الله تعالى برحمته، وأنهم يشكلون النخبة المختارة.

لذلك فإن التعبير بصيغة الماضي في (جرين) الواردة في الآية السالفة الذكر هو قمة من قمم التعبير عن المواقف والطبائع البشرية، والسنن الكونية الثابتة، وذلك في إيجاز بليغ مع استيفاء المعنى والموقف من كل جوانبهما، وإتاحة إمكانية أعمال الفكر والنظر، لاستخلاص المعنى المضمّر، والعبرة البليغة، وذلك نهج القرآن الكريم في ترشيد مسيرة البشرية.

- يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾^(٣).

وردت هذه الآية الكريمة في معرض الحديث عن هلاك فرعون وجنوده غرقاً، بعد أن شق الله تعالى البحر لموسى ومن معه من المؤمنين، فبين الله عز وجل وقيعتهم المأساوية حيث أوقعهم كفرهم وطفيانهم وتجبرهم في الأرض بغير حق، وتمادبهم في الإفساد، في شر أعمالهم. فهاهم الآن

١- سورة سبأ، الآية ١٣.

٢- سورة يوسف، الآية ١٠٣.

٣- سورة الدخان، الآية ٢٩.

أصبحوا خبرا بعد عين، حيث أغرقوا جميعا لتركوا وراءهم قصورهم ومنتدياتهم، وحقولهم وحدائقهم، وثوراتهم وكنوزهم، وما كانوا يتنعمون به من الملذات والشهوات، مبينا سبحانه أن من أسباب وقيعتهم المشؤومة الترف. يقول برهان الدين البقاعي (ت ١١٨٥ هـ) في تفسيره لهذه الآية: «ولما كان ذلك قد يكون بتعب صاحبه فيه، دل على أنه كان بكد غيرهم وهم في غاية الترف، وهذا هو الذي حملهم على اتباع من كان يكفيهم ذلك حتى أداهم إلى الغرق قال: (ونعمة) هي بفتح النون اسم للتعلم بمعنى الترفه والعيش اللين الرغد، وأما التي بالكسر فهي الإنعام (كانوا فيها) أي دائماً (فاكهيين) أي فعلهم في عيشهم فعل المترفه لا فعل من يضطر إلى إقامة نفسه»^(١).

كما يبين سبحانه أن ما حل بهم لم يكونوا يتصورونه، بل فوجئوا به لأن الله تعالى يمهل ولا يهمل، فتركوا ديارهم وما حوته من أسباب القوة والمتعة، وما تزخر به من أسباب الرفاهية والسعادة، ليرثها من كانوا يستضعفونهم. وتلك سنة الله تعالى في الخلق، فالأمر دول، والجزاء من جنس العمل. وإذا تحققت الأسباب نتجت عنها النتائج حتما ولزاما، «فلا يغترن أحد بما ابتليناه به من النعم لئلا يصنع به من الإهلاك ما صنعنا بهم»^(٢).

كما بين الحق سبحانه أن هؤلاء الطغاة، كانوا يعتقدون في أنفسهم أمرا عظيما، فاستخفاها بهم بين الله تعالى أنه بعد أن أنزل بهم عقابه، وحقق فيهم سنته، فإن أحدا من العالمين لم يعبأ بمصيرهم. يقول الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ): «ما كان مهلكهم إلا كمهلك غيرهم، ولم يكن حدثا عظيما كما كانوا يحسبون، ويحسب قومهم. وكان من كلام العرب إذا هلك عظيم أن يهولوا أمر موته، بنحو: بكت عليه السماء، وبكته الريح، وتزلزلت الجبال... والكلام مسوق مساق التحقير لهم... والمعنى فما كان هلاكهم إلا

١- نظم الدرر للبقاعي، ج ١٨، ص ٢٨.

٢- نظم الدرر للبقاعي، ج ١٨، ص ٢٨.

كهلاك غيرهم، ولا أَنْظَرُوا بتأخير هلاكهم، بل عجل لهم الاستئصال»^(١).
ويتبين لنا من الآية الكريمة، أن فعل (بكى) ورد في صيغة الماضي المسند إلى ضمير الغائبة، وهي صيغة فريدة في القرآن الكريم، وردت كذلك للدلالة على أن سنة الله تعالى في الخلق لا تتبدل ولا تتخلف، لا فرق في ذلك بين السنة الكونية والسنة الاجتماعية والتاريخية.

إن التاريخ ليس أحداثا تتعاقب تعاقبا زمنيا، بقدر ما هو أسباب تترتب عنها نتائج، ومن ثم فإن التاريخ تحكمه سنن، ولا يفقه التاريخ من لم يفقه السنن التاريخية. فترشيد المسيرة البشرية، والتقدم خطوة إلى الأمام كما وكيفا، لا يمكن أن يتحقق إلا بالاستفادة من تجارب الأمم، وتعلم الدروس، وأخذ العبر. فالعاقل من اتعظ بغيره، والشقي من اتعظ الناس به، وذلك هو الركن المتين الذي تقوم عليه فلسفة التاريخ، وعلى أساسه يتم تفسير التاريخ.

- يقول تعالى: ﴿فَوَسَّطَنَاهُ جَمْعًا﴾^(٢).

قرأ علي بن أبي طالب (ت ٤٠ هـ) وابن أبي ليلى (ت ٨٣ هـ) وقتادة (ت ١١٧ هـ): «(فَوَسَّطَنَاهُ) أي ميزنا به جمعا، أي جعلناه شطرين وشقين ومعنى وَسَّطَنَاهُ: صرن في وسطه. وإن كان المعنيان متلاقين فإن الطريقتين مختلفان. ومعنى وسطن خفيفة كمعنى توسط. ووسطنه - مشددة - أقوى معنى من وسطنه - مخففا - لما مع التشديد من معنى التكثر والتكرير»^(٣).

وقد ورد فعل (وسط) بصيغة (وسطن) وهي الصيغة الوحيدة التي ورد بها هذا الفعل في القرآن الكريم، وإذا ربطنا ذلك بالسباق القرآني حيث أقسم الله عز وجل بـ «أقسام ثلاثة على أمور ثلاثة تعظيما للمقسم به

١- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ج ٢٥، ص ٣٠٣ / ٣٠٤.

٢- سورة العاديات، الآية ٥.

٣- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنه لابن جنى، ج ٢، ص ٢٧٠.

وهو خيل المجاهدين في سبيل الله التي تسرع على أعداء الله، وتقدح النار بجوافرها، وتغير على الأعداء وقت الصباح فتشير الغبار وتتوسط العدو فتصيبه بالرعب والفرع»^(١)، يتبين لنا أن سنة مدافعة الباطل بالحق سنة ثابتة، وأن النصر للحق وأصحابه في آخر المطاف. ومن ثم يتعين الإصرار على مواجهة الباطل والصمود في وجه الطغاة مهما كانت الأحوال والظروف، وعدم الاستسلام أو التفريط في الحق، والعمل على صيانة الكرامة التي ارتضاها الله تعالى لأوليائه في الدنيا والآخرة.

- يقول سبحانه: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾^(٢).

ورد فعل (مرد) في اللغة العربية بالمعاني التالية:

المردود على الشيء: المرون عليه. ومرد على الكلام أي مرن عليه لا يعبأ به.

المَرْدُ نَقَاءُ الخدين من الشعر، ونَقَاءُ الغصن من الورق.

ورملة مرداء: متسطحة لا تثبت.

ومَرَدْتُ الشيء: لينته وصقلته.

ويقال لكل شيء دُلك حتى استرخى مَرِيد^(٣).

والمعنى السياقي لـ(مردوا) الواردة في الآية الكريمة السالفة الذكر يفيد

«مردوا على النفاق، يقال: تمرد فلان على ربه: أي عتا. أي لجوا فيه وأبوا

غيره، قال ابن زيد^(٤): أقاموا عليه ولم يتوبوا»^(٥).

١- صفوة التفاسير للصابوني، ج ٢، ص ٥٩٢، دار الفكر، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٢- سورة التوبة، الآية ١٠١.

٣- لسان العرب لابن منظور، باب الميم، مادة (مرد)، ج ٦، ص ٤١٧٢/٤١٧٣.

٤- أحمد بن محمد بن زيد شهاب الدين أبو العباس فاضل دمشقي، من علماء الحنابلة، له كتب منها: محاسن المساعي في مناقب أبي عمرو الأوزاعي، وتحفة الساري إلى زيارة تميم الداري. واختصار سيرة ابن هشام، وغيرها.

٥- معالم التنزيل: محمد بن مسعود الفراء البغوي (ت ٥١٦ هـ)، تحقيق خالد عبد الرحمن العك

ومروان سوار، ج ٢، ص ٢٢٣، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م.

ورد فعل (مرد) في القرآن الكريم بهذه الصيغة (مردوا) مرة واحدة في القرآن الكريم، للدلالة على أنها خاصة متأصلة في هذا الصنف من البشر الذي يبدي خلاف ما يبطنه، ومن ثم فإنه تحذير للمؤمنين بعدم الثقة في المنافقين وعدم موالاتهم، وذلك ترشيد للجماعة المؤمنة، وتحصين لها من مكائدهم.

- يقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾^(١).
- يقول عز وجل ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾^(٢).
- يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ عَسَّ وَسَرَ ﴾^(٣).
- يقول عز وجل: ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾^(٤).
- يقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٥).

ونلاحظ أن هذا البناء (فَعَلَ) مستعمل بكثرة في القرآن الكريم، مما جعلنا نحرص على الإتيان بنماذج فقط، تشكل جزءاً قليلاً مما ورد في القرآن الكريم. مما يدل على أن القرآن الكريم اختار أخف الصيغ على اللسان، وهي فَعَلَ وأوردها بكثرة، حتى يكون القرآن سلساً في قراءته، خفيفاً في تلاوته، دون الإخلال بمناسبة السياق والمقام، مما يبين عنصراً آخر من عناصر الإعجاز البياني ألا وهو الإعجاز الصريفي، حيث وظف مكون الصرف في القرآن الكريم لتبليغ المعنى، وتحقيق التأثير المراد في المتلقي، فضلاً عن كونه عاملاً أساسياً من عوامل تماسك القرآن الكريم كنص، وانسجامه كخطاب.

١- سورة يوسف، الآية ٨٠.

٢- سورة القصص، الآية ١٥.

٣- سورة المدثر، الآية ٢٢.

٤- سورة الشعراء، الآية ١٣٦.

٥- سورة الأعراف، الآية ١١٨.

ثالثاً- الجانب التركيبي

١- الصلة و الاتساق التركيبي للخطاب القرآني

سنقتصر في هذه الدراسة على المركب الموصولي، محاولين من خلاله بيان الطريقة التي سلكها البيان القرآني لتحقيق اتساقه وانسجامه. دون أن ننسى العوامل التركيبية الأخرى، المتعددة التي أسهمت بشكل فعال في اتساق الخطاب القرآني، ونعني بها العوامل الشكلية : كالإضافة والضمائر والعطف والإشارة والظرف والتقديم والتأخير والزيادة والحذف والمطابقة.

مما يبين أن المستويات اللسانية متعاقبة مع بعضها البعض، ومن ثم فإن تخصيصنا لكل منها بدراسة مستقلة لا يعكس واقعها اللغوي، بقدر ما هي إكراهات علمية تتغى إدراك الطريقة التي يشتغل بها كل مستوى داخل الخطاب القرآني، وفهم الطريقة التي يسهم بها في تحقيق اتساقه وانسجامه. مع محاولات حثيثة لضبط استراتيجية الخطاب القرآني في بلوغ أهدافه التواصلية.

تقوم جملة الصلة بالربط بين مكونات النص القرآني، باعتبارها عنصرا أساسا من عناصر المكون التركيبي في اللغة العربية. كما أنها تساهم في انسجام الخطاب القرآني باستحضار العلاقات المتشابكة التي تدخل فيها مع مكونات دلالية وتداولية وأسلوبية.ومن ثم فهي عامل مهم من عوامل اتساق الخطاب / النص القرآني الكريم وانسجامه. ويمكننا رصد ذلك عن طريق تتبع جملة الصلة في القرآن الكريم. وإن كنا لا ندعي استقراء تاما بقدر ما هو تتبع لهذه الظاهرة التركيبية ورصد لها، يهدف إلى بيان وظائفها التركيبية داخل الخطاب/النص القرآني، والطريقة التي تعمل بها على تحقيق الاتساق بين مكوناته، لتجعل منه نصا متماسكا .

والصلة هي الجملة التي تذكر بعد الاسم الموصول فتتمم معناه، وتكمل إسميته.

ويسمى الموصول موصولاً لأنه مربوط بالصلة، غير مستقل بنفسه، في الوقت الذي تستقل فيه الصلة بنفسها فتكون جملة.

وتشتمل الصلة - اسمية أو فعلية - على ضمير رابط يخصصها لوظيفة الموصولية، والاسم الموصول مرتبط بالصلة لاحتياجه إليها حيث بها يعرف. والصلة مرتبطة به لتبعيتها له وتقيداً به. وتتلخص وظيفة الاسم الموصول في التفسير والشرح. وإذا انفصلت الصلة عن الموصول أصبحت جملة مستقلة^(١)، ذلك أن الضمير هو الذي يربطها بالموصول ويقيداً به، ومن ثم يجعل منها جملة الصلة.

وتنقسم الموصولات إلى:

- موصولات خاصة: وهي التي تفرد وتثنى وتجمع، وتذكر وتؤنث، حسب السياق وهي: الذي، والذان، والذين، والتي، والتان، واللاتي، أو اللواتي أو اللاتي، والألى للجمع بنوعيه.
- موصولات مشتركة: وهي التي تكون بلفظ واحد، ويشترك فيها المفرد والمثنى والجمع المذكر والمؤنث، وهي: من، وما، وأي، وذا، وذو^(٢).
- وهناك موصولات حرفية وهي خمسة: أن، وأن، وما المصدرية، وكَيّ، و لو. والفرق بين هذه الموصولات والموصولات الاسمية أنها لا محل لها من الإعراب. كما أنها لا تشتمل على عائِد مطلقاً، فضلاً على أنها تكون مع الصلة مصدراً مؤولاً أو مسبوكة لذلك يطلق عليها كذلك حروف السبك، لأنها تفرد به دون الموصولات الاسمية^(٣).

١- الضمير «بنيته ودوره في الجملة»: الشاذلي الهيشري، ص ٤٨١، منشورات كلية الآداب، سلسلة اللسانيات، مجلد ١٧، جامعة منوبة، تونس ٢٠٠٣ م.

٢- جامع الدروس العربية: للغلابي، ج ١، ص ١٣٠.

٣- النحو الوالفي: لعباس حسن، ج ١، ص ٤٠٧.

٢- المواقع الإعرابية للصلة :

تأخذ الصلة باعتبارها عاملاً من عوامل تماسك القرآن و اتساقه مظاهر متعددة يمكننا إجمالها في ما يلي :

أ- الصلة جملة فعلية :

وردت الصلة جملة فعلية في القرآن الكريم، ويمكننا أن نمثل لجملة الصلة المصدرية بفعل ماض بالأيات البيئات التالية:

يقول عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾^(١).

ب- الصلة جملة إسمية:

تأتي الصلة في القرآن الكريم جملة إسمية، ويمكننا أن نمثل لذلك بالأيات البيئات التالية:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾^(٢).

ت- الصلة شبه جملة:

من مظاهر الصلة في القرآن الكريم أنها تأتي شبه جملة، ويمكننا أن نمثل لذلك بالأيات البيئات التالية:

ث- الصلة شبه جملة من الجار والمجرور:

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾^(٣).

١- سورة القصص، الآية ٨٥.

٢- سورة المؤمنون، الآيات ١/٥.

٣- سورة غافر، الآية ٤٩.

ج- الصلة شبه جملة من الظرف:

ويقول عز وجل: ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾^(١).

٢- العائد على الموصول:

تشتمل الصلة في القرآن الكريم على ضمير رابط يربطها بالموصول. فالصلة هي التي تقوم بدور التعريف للموصول، وهذا الأخير بدونها لا يعد من المعارف. والضمير هو الذي يحقق وحدة الجملة، فبدونه تصبح مفككة الأوصال. ويطابق الضمير العائد الموصول في النوع والعدد والشخص. ونمثل لذلك بالآيات التالية:

- يقول عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَزَقْنِي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِأَهْدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾^(٢).

وقد يحذف الضمير العائد على الموصول مع بقاء الجملة متماسكة، ودون أن يكون هناك أي لبس، اعتماداً على دلالة السياق. ويسلك البيان القرآني هذا المسلك توخياً للاختصار ومحافظة على الانسجام الصوتي، وإعمالاً للفكر والنظر، وتنوعاً في أساليبه التعبيرية، وصولاً إلى تحقيق أغراضه التواصلية. ونمثل لذلك بالآية التالية:

- يقول تعالى: ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾^(٣).

يتبين لنا من خلال الآية الكريمة أن حذف الضمير العائد على الموصول ممكن إذا أمن اللبس، فالضمير (الهاء) في (منه) عائد على الموصول المجرور (ما)، وحذف من الثاني لدلالة السياق عليه.

١- سورة النحل، الآية ٩٦.

٢- سورة القصص، الآية ٨٥.

٣- سورة المؤمنون، الآية ٢٣.

٤- المواقع الإعرابية لاسم الموصول:

تقوم بين مكونات جملة الصلة علاقات تركيبية تتمثل في التعالق الإعرابي بين مكوناتها، كالفاعلية والمفعولية.

وتعتبر العلامات الإعرابية مظهرا مهما من مظاهر تعالق المكونات التركيبية للصلة، والتي تبين مدى اتساق الخطاب القرآني، عبر هذه العلامات الشكلية ذات الأبعاد الدلالية والتداولية، من حيث تأويلها الإعرابي. فحالة الرفع تمثل العائد المرفوع من الناحية الشكلية، أي إنها معطى من معطيات البنية السطحية التي تتوي خلفها البنية العميقة مع ما صاحبها من تحويلات. ومن ثم فإننا ننتقل من المستوى الوصفي إلى المستوى التأويلي بغية فهم الخطاب القرآني، ووضع اليد على آليات تماسك الخطاب القرآني من الناحية التركيبية.

تعتبر الصلة من هذه الناحية نموذجا مهما لإبراز هذه القضية. ومن ثم فإننا ركزنا على هذه العلاقات التركيبية، لبيان تماسك الخطاب القرآني تركيبيا من جهة، وانسجامه من جهة أخرى. ذلك أن هذه العلاقات التركيبية هي نفسها وليدة اختيارات أسلوبية وتواصلية للبيان القرآني، مما يجعلها تدخل في علاقات مع مستويات أدنى كالمستوى الصوتي والتركيبية، ومستويات أعلى كالدلالة والتداول والأسلوبية. مما يؤكد الحقيقة التي سبق أن ألمحنا إليها، وهي أننا ندرس هذه المستويات اللغوية واحدة تلو الأخرى، لا بمعنى استقلالها التام عن المكونات الأخرى، وإنما نقوم بذلك لأسباب علمية. وذلك حتى نتمكن من إدراك الطريقة التي يتماسك بها الخطاب القرآني شكلا ومضمونا، مع الوقوف على اختياراته الأسلوبية والتواصلية لبلوغ هدفه الأسمى ألا وهو هداية البشر.

ورد اسم الموصول في القرآن الكريم محتلا المواقع التركيبية المختلفة التي يقتضيها السياق، ويمكننا أن نمثل لذلك بما يلي:

أ- اسم الموصول فاعلاً: يقول عز وجل: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ (١).

ب- اسم الموصول مبتدأ: يقول سبحانه وتعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ ﴾ (٢).

ت- اسم الموصول خبراً: يقول تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٣).

ث- اسم الموصول اسماً لأصبح: يقول عز وجل: ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ (٤).

ج- اسم الموصول اسماً لإن: استعمل البيان القرآني اسم الموصول (الذي) مفرداً اسماً لـ (إن) مرتين: يقول تعالى ﴿ يَقُولُ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٥).

ح- اسم الموصول مجروراً بالحرف: - يقول عز وجل: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (٦).

خ- اسم الموصول مجروراً بالإضافة: - يقول تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ (٧).

١- سورة غافر، الآية ٣٠.

٢- سورة محمد، الآية ١.

٣- سورة الصف، الآية ٩.

٤- سورة القصص، الآية ٨٢.

٥- سورة فصلت، الآية ٢٩.

٦- سورة البقرة، الآية ٩٦.

٧- سورة البقرة، الآية ١٧٢.

- يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾^(١).
- يقول عز وجل: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾^(٢).
- د- اسم الموصول نعتاً:
- يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾^(٣).
- يقول سبحانه: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّقُوا بِهِ﴾^(٤).
- يقول عز وجل: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾^(٥) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا^(٥).
- يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(٦).
- يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهِمُّمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٧).

ذ- وصل اسم الموصول بالقسم وجوابه:

- يقول عز وجل: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾^(٨).
- ر- اسم الموصول معطوفاً:
- يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾^(٩).

١- سورة الأعراف الآية ٧٢.

٢- سورة الحج، الآية ٦٠.

٣- سورة البقرة، الآية ٢١.

٤- سورة المائدة، الآية ٧.

٥- سورة الملك، الآيات ٢/٣.

٦- سورة الشورى، الآية ٢٣.

٧- سورة هود، الآية ١٠١.

٨- سورة النساء، الآية ٧٢.

٩- سورة البقرة، الآية ٦٢.

سورة المائدة، الآية ٦٩.

٥- توالد الجمل الموصولة:

- هناك ظاهرة ملحوظة في القرآن الكريم تتمثل في توالي الجمل الموصولة بشكل مستمر قد يشمل عددا كبيرا من الآيات المتعاقبة. مما يبين أهمية المركب الموصولي في تحقيق تماسك الخطاب القرآني تركيبيا. ويمكننا أن نمثل لذلك بالنموذج الآتي من سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١﴾ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَجِحَتْ رَبِّهَا بِهِمْ وَمَا كَانُوا فِي مُهْتَدِينَ ۝١٦﴾ مِثْلَهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧﴾ صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهَمْ لَّا يَرْجِعُونَ ﴿^(١)

- هذا المقطع القرآني المكون من إحدى عشر آية خصص لوصف المنافقين، وإبراز خصالهم، فبعد أن « افتتح عز وجل بذكر الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم أسنتهم ثم شئ بالكافرين قلوبا وألسنة ثم ثلث بالمنافقين الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وهم أخبت الكفرة لأنهم خلطوا بالكفر استهزاء وخداعا، ولذا نزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾^(٢)، وقال مجاهد (ت ١٠٤هـ): أربع آيات من أول السورة في نعت المؤمنين، وأيتان في ذكر الكافرين، وثلاث عشرة آية في

١- سورة البقرة، الآيات ٨/١٨.

٢- سورة النساء، جزء من الآية ١٤٥.

المنافقين نعى عليهم فيها نكرهم وخبثهم وسفهمم واستجهمم، واستهزأ بهم، وتهكم بفعلهم، وسجل بطغيانهم، وعمهم ودعاهم صما بكما عميا، وضرب لهم الأمثال الشنيعة، وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا كما تعطف الجملة على الجملة»^(١).

- فالمقطع القرآني موضوع الدراسة يشكل وحدة موضوعية، كما يشكل وحدة تركيبية يؤدي المركب الموصولي دورا بارزا في تماسكه، حيث تتوالى الموصولات، وتتوالد الجمل بعضها من بعض.

- تبدأ الآية الثامنة باسم موصول هو (من)، ومرجع الضمير فيها هو (هم) الذي يعني المنافقين. ف«(من) موصولة، والضمير الراجع إليها... يجوز أن يذكر ويفرد على لفظها، وأن يؤنث ويثنى، ويجمع حملا على معناها»^(٢).

- بالنسبة للآية التاسعة نجد أن مرجع الضمير في (أنفسهم) هو اسم الموصول (من) في الآية الثامنة.

- وفي الآية العاشرة نجد مرجع الضمائر في (قلوبهم) و(فزادهم) و(لهم) هو اسم الموصول (من) في الآية الثامنة.

- وفي الآية الحادية عشر مرجع الضمير في (لهم) هو اسم الموصول (من) في الآية الثامنة.

- وفي الآية الثانية عشر يرجع الضمير إلى اسم الموصول (من) في الآية الثامنة.

- وفي الآية الثالثة عشر يجد الضمير في (إنهم) و(هم) مرجعه في الاسم الموصول (من) في الآية الثامنة.

- وفي الآية الرابعة عشر مرجع الضمير في (شياطينهم) هو الاسم الموصول (من) في الآية الثامنة.

١- تفسير النسفي: لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (ت٧١٠هـ)، ج ١، ص ١٧، دار الكتاب العربي، لبنان، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.

٢- الفريد في إعراب القرآن المجيد: للهمذاني، ج ١، ص ٢١٧/٢١٨.

- وفي الآية الخامسة عشر مرجع الضمير في (بهم) و(يمدهم) و(طفيانهم) هو اسم الموصول (من) في الآية الثامنة.

- وفي الآية السادسة عشر مرجع الضمير في (تجارتهم) هو الاسم الموصول (من) في الآية الثامنة.

- وفي الآية السابعة عشر مرجع الضمير في (مثلهم) هو اسم الموصول (من) في الآية الثامنة.

- وأما في الآية الثامنة عشر فإننا نجد مرجع الضمير في (مثلهم) هو الاسم الموصول (من) في الآية الثامنة^(١).

- وهكذا يتبين لنا كيف توالى الجمل وامتدت بشكل منظم، والرابط بينها هو المركب الموصولي، وكأنها جملة كبيرة تتضمن جملاً صغيرة.

- والأمر نفسه نجده في سور متعددة، حيث تتوالى الجمل المكونة من المركبات الموصولية، كسورة الأنعام في الآيات الأولى والثانية، والثالثة والثلاثين، والستين، والثانية والسبعين والثالثة والسبعين، والأربعة عشر والمائة، والثامنة والعشرين والمائة، والإحدى والأربعين والمائة، والرابعة والخمسين والمائة، والخامسة والستين والمائة.

- وفي سورة الشعراء من الآية التاسعة والسبعين إلى الآية الثانية والثمانين.

ولو أردنا استقصاء ذلك لطال بنا الأمر، ولكن اقتصرنا على ما يؤكد الظاهرة.

يتبين لنا مما سبق أن الصلة تؤدي وظيفة في التركيب، ذلك أن الموصول لا يؤدي وحده المعنى، بل يحتاج في ذلك إلى الصلة. ومن ثم فإن بينهما علاقة تركيبية تفرضها الضرورات الدلالية. مما يجعل الخطاب القرآني

١- مرجع الضمير في القرآن الكريم : محمد حسنين صبرة ، ص ٧٦/٧٤، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠١ م.

من حيث الصلة متماسكا تركيبيا ودلاليا، وهذا يؤكد ما سبق أن ألمحنا إليه من ضرورة معالجة الخطاب القرآني معالجة شمولية، تمكننا من فهم تركيبه المعجز، وأدائه التواصلي المبهر، مع ما يورثه ذلك في نفس المتلقي من الجمال والجلال.

الخاتمة

- يمكننا إجمال النتائج التي خلصت إليها هذه الدراسة في ما يلي :
- ١- القرآن الكريم منهج رباني متكامل عقيدة وشريعة، وأخلاقا وسلوكا، ومنهجا وتصورا، وعلما ومعرفة، ودينا ودنيا. فهو كلام الله تعالى الذي أحاط بكل شيء علما، وهو نسيج وحده. فكل ما يصدر عن الله تعالى مخالف لما يصدر عن مخلوقاته، ومن ثم فهو ليس نظرية من النظريات، ولا علما من العلوم، إنه الحياة والنور والهدى الذي يوجه البشر في علاقتهم بالله تعالى والكون من حولهم وفيما بينهم بما يحقق صلاحهم في الحال و الفلاح في المآل.
 - ٢- يرتبط التشريع في المنظومة الإسلامية بتوحيد الحاكمية، فالله تعالى هو الذي شرع الشرائع المحققة للصلاح في الحال والفلاح في المآل.
 - ٣- تعتبر الأخلاق المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني على كافة مستويات الحياة، وقد حددها الوحي بهدف تنظيم حياة الإنسان، وتحديد علاقته بغيره على أساس العدل و المساواة، والتآزر والتعاون والإخاء.
 - ٤- اكتسب المسلمون منهجيتهم في البحث العلمي من القرآن الكريم، فهو الذي أرشدهم إلى إعمال العقل والنظر في الكون من حولهم والبحث في أسرار الخلق، لاكتشاف سنن الله تعالى في الطبيعة والإنسان، وإرساء قواعد المنهج العلمي.
 - ٥- يتأسس النظام المعرفي الإسلامي على عقيدة التوحيد التي تؤطر جميع مجالات الحياة على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع والدولة والدول في حالة السلم والحرب. وتمتاز بكونها تامة ومتكاملة، ومنطقية وواقعية. فالله تعالى هو الذي تكفل بوضعها، وأرفقها بالأدلة التي تثبتتها، وطالب بالإيمان بها إيمانا مبنيا على العلم والمعرفة، بما يؤدي إلى القيام

بأعباء الاستخلاف المتمثلة في عمارة الأرض والسعي فيها إصلاحا
لا إفسادا.

٦- إن العلوم اللغوية في الثقافة العربية الإسلامية لا يمكن فصلها عن
الرؤية العقديّة الإسلاميّة، ومن ثم فإن هذه العلوم نشأت لخدمة
الإنسان شأنها شأن كل العلوم، بل شأن الدين نفسه. فالله تعالى غني
عن العباد، وما شرع الدين إلا لتحقيق مصلحة الإنسان في الدنيا
والآخرة. ومن ثم فلا يجوز لنا أن نقول إن العلوم اللغوية إنما نشأت
لخدمة القرآن الكريم . فالقرآن الكريم بما أنه كلام الله تعالى فإنه
غني عن هذه الخدمة، وإنما الذي يحتاجها هو الإنسان، باعتبارها
الأداة التي تمكنه من فهم مراد الله تعالى من الخطاب القرآني. ومن
ثم فهي وسيلة فعالة للفهم عن الله تعالى، وبالتالي تحقيق التواصل بين
الإنسان وربّه.

٧- إن مصطلحي الخطاب والنص مصطلحان متداولان في الثقافة العربية
الإسلامية، ومتصلان بحقول معرفية متعددة كعلوم القرآن والتفسير،
والحديث وأصول الدين، والفقه وأصوله، واللغة وعلومها.

٨- تكتسب العلاقات الإسنادية أهمية خاصة في تشكيل الخطاب، فهي
تعمل على تحقيق اتساق مكونات الجمل بما يجعل منها متواليات
جمالية تفيد معنى تاما قد يقصده صاحب الخطاب وقد لا يقصده.
ويعمل المتلقي على اكتشافه، وبذلك تتم عملية التواصل، دون أن نسقط
من حساباتنا ما يصطلح عليه بمعاني النحو، أي العلاقات التركيبية
التي تقوم بين مكونات الجملة و الجمل، والتي تتعاقب مع المستوى
الدلالي بما تمنحه للخطاب من أبعاد دلالية تسهم بشكل فعال في
انسجام الخطاب واتساقه.

٩- لا يكون النص نصا ولا الخطاب خطابا ما لم يكن متسقا ومنسجما،
بحيث يشكل منظومة متكاملة مكونة من بنيات وعناصر تربط بينها

آليات الربط الشكلية والدلالية، وتتجلى هذه الآليات في : الإحالة والتعويض والوصل والاتساق المعجمي والتعالق النحوي .

١٠- يمتاز القرآن الكريم بكونه نصا وخطابا إلهيا مطلقا غير قابل للمحاكاة، وله ترتيبان ترتيب التلاوة وترتيب النزول، وموافق للنظام العام الذي يحكم اللغة العربية. كما أنه يعدل عن معهود العرب في الكلام . ومن ثم فهو بناء فكري ولغوي محكم ومتفرد.

١١- إن القرآن الكريم خطاب ملفوظ ونص مكتوب تتحقق فيه مكونات العملية التواصلية وشروطها: المرسل والمتلقي والخطاب ذاته والحضور أي: حضور صاحب النص قراءة وكتابة . فحيثما قرئ القرآن أو تلى فثم وجه الله . مما يجعل القرآن الكريم يستبطن كل المقامات الممكنة. كما أن القرآن الكريم يمتاز عن معهود النصوص والخطابات البشرية بكون مقاله سابقا لمقامه، فالله تعالى أنشأه ابتداء.

١٢- إن المعرفة بالعالم من شأنها أن تمكننا من فهم الطريقة التي أنزل بها الخطاب القرآني، وفقه الكيفية التي صيغت بها القضايا العقديّة والتشريعية . مما يمكننا من القدرة على تأويله، ذلك أن المنجز اللغوي يعكس بالضرورة البنية الفكرية الثابّة خلفه.

١٣- إن القرآن الكريم ليس مشرعا أمام مطلق القراءات، لذلك فهو لا يحتمل من القراءات إلا ما كان محققا لمقصد الوقوف على مضمون الرسالة وعلى مراد الله تعالى من الخطاب القرآني. ومن ثم فإن القراءة الموافقة للخطاب القرآني، والموصلة إلى مراد الله تعالى هي القراءة المقاصدية، التي تتوفر فيها أسس التلقي الإيجابي المراعية لخصوصيات القرآن الكريم، والتي تظل نسبة محدودة في الزمان والمكان باعتبارها مجهودا بشريا. فالقطع على الله تعالى بالمراد بدعة. فلا يمكن لأي قراءة، مهما توفرت لها من إمكانيات علمية ومنهجية ومن الرجال العلماء الأفاضل المخلصين، أن تدعي أنها القراءة الوحيدة

المتضمنة لمراد الله تعالى دون غيرها من القراءات الأخرى، الممتدة في الزمان والمكان. وليس معنى ذلك أن الحق يتعدد ولكن الطرق الموصلة إليه متعددة. والعمدة في اعتماد قراءة دون أخرى هو البرهان العلمي الذي تستند إليه.

١٤- اعتمد القراء وعلماء التجويد في دراستهم لأصوات القرآن الكريم المنهج الوصفي، المؤسس على الملاحظة الدقيقة والإحصاء والتجربة، والتوصيف العلمي المبني على الوقائع اللغوية. فاستنبطوا القواعد الصوتية، وعملوا على تعميمها مع الحرص على التأكيد على أن القراءات القرآنية سنة متبعة فيها الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، فهي ماقرأ به أو قرئ بحضرته فأقره.

١٥- يوظف البيان القرآني المكون الصريح لتحقيق الاتساق والانسجام بين مكوناته، ليجعل من القرآن الكريم منظومة متكاملة، لا يمكن فهم إحدى جزئياته إلا في إطاره الكلي.

١٦- إن المدخل لتدبر القرآن الكريم هو البنية التركيبية، فالقرآن الكريم يحتتمل من المعاني بقدر ما يحتتمل من المباني، ولذلك اتجهت عناية المفسرين إلى تحديد الإعرابات الممكنة للآيات القرآنية، لأنهم بصنيعهم ذلك يقيدون المعاني المطلقة للقرآن الكريم بطريقة علمية وموضوعية. وذلك هو ما يفسر سبب ظهور التفاسير اللغوية قبل غيرها من اتجاهات التفسير الأخرى.

١٧- يشكل المستوى التركيبي عاملاً مهماً من عوامل تماسك الخطاب القرآني، فالعلاقات التركيبية هي وشائج شكلية ناظمة لكل مكونات الخطاب القرآني من جهة، ومحددة لمعانيه من جهة أخرى، باعتبار أن المعنى الأساس يكمن في البنية التركيبية العميقة، التي يمكن الوصول إليها عن طريق دراسة البنية السطحية وما طرأ عليها من تحويلات، حيث الانتقال من المستوى الوصفي إلى المستوى التأويلي، بغية فهم

- الخطاب القرآني، واكتشاف آليات اتساقه وانسجامه.
- ١٨- وقد استعمل المفسرون هذه التقنية منذ التفاسير الأولى لتحديد مراد الله تعالى من الخطاب القرآني من جهة، ولإدراك مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم من جهة أخرى.
- ١٩- إن الظاهرة القرآنية ظاهرة مركبة لا تجد تأويلها في التعليقات الأحادية الجانب، مما يتطلب اللجوء إلى نظرة شمولية تستحضر كل العوامل الفاعلة في اتساق الخطاب القرآني وانسجامه، بحيث يشكل منظومة متكاملة، حيث تتماسك الآيات والسور القرآنية بروابط لغوية، وموضوعية ودلالية.

المصادر والمراجع

العربية :

- ١- أبحاث ندوة علم النفس: بحث الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود «نحو دستور عمل لعلماء النفس المسلمين»، الطبعة الأولى، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م.
- ٢- الأبعاد السياسية لمفهوم الحاكمية «رؤية معرفية»: هشام أحمد عوض جعفر، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، الولايات المتحدة الأمريكية ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م.
- ٣- الإلتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ط٣، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.
- ٤- الأحكام في أصول الأحكام: أبو محمد علي بن سعيد بن حزم (ت ٤٥٦ هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٨٣.
- ٥- إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول: محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ)، تحقيق محمد سعيد البدري، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٩٩٢ م.
- ٦- أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية: عبد الحميد الصيد الزناتي، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس ١٩٨٤ م.
- ٧- أسس علم اللغة لماريوباي، ترجمة أحمد مختار عمر، عالم الكتب، الطبعة ١٤٠٣، ٢٠٢٠ هـ / ١٩٨٣.
- ٨- أسس المنهج القرآني: منتصر محمود مجاهد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م.

٩- الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة النعمان: زين العابدين بن إبراهيم بن نجيم، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م.

١٠- الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، بدون تاريخ.

١١- أصول البحث: عبد الهادي الفضلي، دار المؤرخ العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

١٢- أصول تراثية: كريم زكي حسام الدين، مكتبة الأنجلوالمصرية، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٩٣.

١٣- أصول التفسير وقواعده: خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس، بيروت، الطبعة ٢، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

١٤- الألسنية (علم اللغة الحديث): ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية، لبنان، الطبعة ٢٠٣٢هـ / ١٩٨٣م.

١٥- ألفاظ القرآن الكريم: د/ علي حلمي موسى، الكويت، ١٩٨٢.

١٦- البحث العلمي مناهجه وتقنياته: محمد ريان عمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م.

١٧- البحث اللغوي عند العرب: أحمد عمر مختار، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة ٤، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢.

١٨- البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط ١، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.

- ١٩- البلاغة والأسلوبية: محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.
- ٢٠- البيان في تفسير القرآن: أبوالقاسم الموسوي الخوئي، دار الزهراء، بيروت، ط ٤، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥م.
- ٢١- التبصرة في أصول الفقه: أبوإسحاق بن يوسف الشيرازي (ت ٤٧٦ هـ)، تحقيق محمد حسن هيتو، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٩٨٠م.
- ٢٢- التحرير في علوم التفسير: أبوالفضل جلال الدين عبد الرحمن أبوبكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة ١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٣م.
- ٢٣- تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: أبوالإصبع المصري (ت ٦٥٤ هـ)، تحقيق جفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.
- ٢٤- التربية الأخلاقية: مقداد يالجن، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة ١، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧م.
- ٢٥- التشريع الجنائي الإسلامي مقارنة بالقانون الوضعي : عبد القادر عودة: دار التراث، القاهرة ١٩٧٧.
- ٢٦- التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن: عودة خليل أبوعودة، مكتبة المنار، الطبعة الأولى، الأردن ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥.
- ٢٧- التعريفات: أبوالحسن بن علي الجرجاني (ت ٨١٦ هـ)، دار الشؤون الثقافية، العراق، ١٩٨٦م.
- ٢٨- تفسير القرآن العظيم : أبوالفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م

- ٢٩- التمهيد : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري (ت ٤٦٣هـ) ، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة الأوقاف، المغرب، ١٣٨٧هـ.
- ٣٠- التيسير في قواعد التفسير: محيي الدين الكافيجي، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم ٧٠٧تفسير.
- ٣١- جامع البيان في تأويل القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- ٣٢- جماليات الأسلوب: فايز الداية، ط ٢، دار الفكر، دمشق ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- ٣٣- الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٠٢هـ) ، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب، لبنان، ط ٣، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- ٣٤- خصائص الإسلام: يوسف للقرضاوي، بدون طبعة، دار المعرفة، الدار البيضاء ١٩٩٠م.
- ٣٥- دراسة الصوت اللغوي: أحمد مختار عمر، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥.
- ٣٦- دراسات في علم المعنى «السمانتيك»: كمال بشر، القاهرة، بدون طبعة ولا تاريخ.
- ٣٧- دراسات في النفس الإنسانية: محمد قطب، الطبعة السادسة، دار الشروق، بيروت، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- ٣٨- دراسات اللهجات العربية القديمة: داود سلوم، عالم الكتب، لبنان، ط ١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٣٩- الدلالة الصوتية «دراسة لغوية لدلالة الصوت ودوره في التواصل»:
كريم زكي حسام الدين، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م.

٤٠- رسالة المسترشدين: الحارث المحاسبي (ت ٢٤٣ هـ)، تحقيق عبد
الفتاح أبوغدة، دار السلام، حلب، سوريا، الطبعة الثانية، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م.

٤١- رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية : غانم قدوري الحمد، مؤسسة
المطبوعات العربية، بيروت، ط١، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م.

٤٢- رفع الحرج في الشريعة الإسلامية ضوابطه وتطبيقاته: صالح بن
عبد الله بن حميد، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى،
مكة المكرمة ١٤٠٣ هـ.

٤٣- روح الدين الإسلامي : عفيف عبد الفتاح طيارة، دار العلم للملايين،
بيروت، ط ١٥، بدون تاريخ.

٤٤- شرح المفصل: موفق الدين بن يعيش النحوي (ت ٦٤٣ هـ)، عالم
الكتب، بيروت بدون تاريخ.

٤٥- صحيح البخاري : محمد بن إسماعيل أبوعبد الله البخاري (ت ٢٥٦ هـ)،
تحقيق مصطفى البغا : كتاب الإيمان، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة
الثالثة، ١٤٠٧ هـ.

٤٦- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ)،
تحقيق عبد الله أحمد أبي زينة، دار الشعب، القاهرة، ١٣٩٠ هـ.

٤٧- علم الأصوات: برتيل برمبلج، ترجمة عبد الصابور شاهين، مكتبة
الشباب، القاهرة ١٩٨٥.

- ٤٨- علم الدلالة : أحمد مختار عمر، ص ١١/١٦، مكتبة دار العروبة، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- ٤٩- علم الدلالة العربي: فايز الداية، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥.
- ٥٠- علم الصرف «دراسة وصفية»: محمد أبو الفتوح شريف، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٦.
- ٥١- علم اللغة العربية : محمود فهمي حجازي، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٣.
- ٥٢- علم اللغة والدراسات الأدبية «دراسة الأسلوب، البلاغة» علم اللغة النصي: برند شبلنر، ترجمة محمود جاد الرب، الدار الفنية، القاهرة، ط ١، ١٩٩١م.
- ٥٣- علوم الدين الإسلامي: عبد الله شحاته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ٢، ١٩٨١م.
- ٥٤- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)، تحقيق محمد التونجي، عالم الكتب، بيروت ط ١، ١٩٩٣م.
- ٥٥- فلسفة العلوم ومناهجها: علي عبد المعطي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٧٥م.
- ٥٦- الفوز الكبير في أصول التفسير: ولي الله الدهلاوي، عربيه من الفارسية سلمان الحسيني الندوي، دار الصحوة، الطبعة الثانية، القاهرة ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
- ٥٧- في رحاب القرآن الكريم: محمد سالم محيسن، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

٥٨- القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث: عبد الصبور شاهين، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٦٦م.

٥٩- الكتاب: أويشر عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه (ت ١٨٠ هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٧م.

٦٠- كتاب الصناعتين «الكتابة والشعر»: أبو هلال العسكري (ت ٤٠٠ هـ)، دار الكتب العلمية، تحقيق مفيد قميحة، بيروت ١٩٨١م.

٦١- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس: إسماعيل بن محمد العجلوني (ت ١١٦٢ هـ) تحقيق محمد القلاش.

٦٢- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم جار الله الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، دار الفكر بيروت، ط ١، ١٩٧٧م.

٦٣- الكليات «معجم في المصطلحات والفروق اللغوية»: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت ١٠٩٤ هـ)، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط ٢، ١٩٨٢م.

٦٤- لسان العرب: جمال الدين بن حبة بن منظور (ت ٧١١ هـ)، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة، بدون طبعة ولا تاريخ.

٦٥- لسانيات النص «مدخل إلى انسجام الخطاب»: محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩١م.

٦٦- لغة القرآن: لغة العرب المختارة: محد رواس قلعجي، ص ٤٨، دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م.

٦٧- اللهجات العربية في التراث: أحمد علم الدين الجندي، ج ١، ص ١٧٠، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا ١٩٨٣م.

- ٦٨- مجاز القرآن: أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي (ت ٢١٠ هـ)، تحقيق فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ م.
- ٦٩- مجمع البيان في تفسير القرآن: أبو علي بن الحسن الطبرسي (ت ٥٥٢ هـ)، تحقيق هاشم الرسولي المحلاتي، وفضل الله اليزدي الطباطبائي، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٦.
- ٧٠- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ): جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، بدون تاريخ.
- ٧١- محاضرات في مناهج البحث العلمي: سهام النويهي، مطبعة رزيق، القاهرة، بدون طبعة ولا تاريخ.
- ٧٢- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت ٤٨١ هـ) تحقيق المجلس العلمي بتارودانت، وزارة الأوقاف، الرباط ١٤٠٩ هـ.
- ٧٣- المحكم في نطق المصاحف للداني: أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤ هـ)، تحقيق عزة حسن، دار الفكر، دمشق، ط ٢، ١٩٨٦ م.
- ٧٤- مدخل إلى الأسنوية: بول فابر، وكريستيان بايلون، ترجمة طلال وهبة، المركز الثقافي العربي، بيروت الطبعة ١، ١٩٩٢.
- ٧٥- مدخل إلى علم اللغة: محمود فهمي حجازي، دار الثقافة، القاهرة، الطبعة ٢، ١٩٨٦.
- ٧٦- مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م.
- ٧٧- مستقبل اللغة المشتركة: إبراهيم أنيس، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة ١٩٦٠ م.

٧٨- مسند الشهاب: محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي (ت ٤٥٤هـ) تحقيق محمد عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون طبعة، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦ م.

٧٩- المعجم الفلسفي: جميل صليبا، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧١ م.

٨٠- المغرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم: أبو منصور موهوب بن الخضر الجوالقي (ت ٥٤٠هـ): تحقيق أحمد شاكر، دار الكتب، القاهرة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م.

٨١- مغني اللبيب عن كتب الأعراب: جمال الدين بن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ) تحقيق مازن المبارك وآخرون، دار الفكر، بيروت، ط ٥، ١٧٧٩ م.

٨٢- مفهوم المعنى «دراسة تحليلية»: عزمي إسلام، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥.

٨٣- مفهوم النص في الفكر اللغوي المعاصر: عبد الناصر لقاح، ندوة اللسانيات واللغة العربية بين النظرية والتطبيق، جامعة مولاي إسماعيل، كلية الآداب، مكناس ١٩٩٢.

٨٤- مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكرياء (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٩ م.

٨٥- مقدمتان في علوم القرآن: آرثر جفري، صححها عبد الله إسماعيل الصاوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة ٢، ١٣٢٩هـ / ١٩٧٢ م.

٨٦- مقدمة التفسير: أبو القاسم الراغب الأصفهاني، المطبعة الجمالية، القاهرة، الطبعة ١٣٢٩، ١هـ.

٨٧- مقدمة في أصول التفسير: تقي الدين أحمد بن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، المطبعة السلفية، القاهرة، ط ١، ١٣٩٩هـ.

- ٨٨- ملامح من تاريخ اللغة العربية: أحمد نصيف الجنابي، دار الرشيد للنشر، العراق ١٩٨١.
- ٨٩- من أخلاقيات الإسلام: ياسين رشدي، الطبعة ١، نهضة مصر، القاهرة ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م.
- ٩٠- منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات: محمد الأمين الشنقيطي (ت ١٣٩٣ هـ)، مكتبة المعارف، الرباط، المغرب، دت.
- ٩١- نحو تأسيس نظرية تلقي قرآنية، مؤيد عزيز، آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد.
- ٩٢- النحو والدلالة: محمد حماسة عبد اللطيف، الطبعة ١، مطبعة المدينة، مصر ١٩٨٣.
- ٩٣- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام: علي سامي النشار، دار المعارف، القاهرة، الطبعة ٧، ١٩٧٧.
- ٩٤- النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق: عدنان بن ذريل، دمشق ٢٠٠٠.
- ٩٥- نظام الإسلام: وهبة الزحيلي، منشورات جامعة قاريونس، الطبعة ٢، ليبيا ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م.
- ٩٦- نظرات في الاستدلال القرآني: عبد الستار فتح الله سعيد، كلية أصل الدين، جامعة الأزهر، القاهرة، الطبعة ١، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م.
- ٩٧- النظرية الاجتماعية في الفكر الإسلامي: زينب رضوان، دار المعارف، القاهرة، الطبعة ١، ١٩٨٢ م.
- ٩٨- نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة: راجح عبد الحميد الكردي، مكتبة المؤيد، الرياض، الطبعة ١، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م.

٩٩- واقعية المنهج القرآني: توفيق محمد سبع، الهيئة العامة، القاهرة، ١٩٧٣ م.

١٠٠- الوجيز في أصول الفقه: عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٦، ١٩٨٧ م.

الأجنبية :

1- Debeaugrande and Dressler. Introduction to text linguistics. P 7. longman. London and Newyork 1981

2-Dictionnaire de linguistique. Jean Dubois.P 486.Edition Larousse.Paris 1989.

3-encycopedique des sciences du language.P 375/376. Edition du Seuil.1972.

4-Halliday and Ruquaiya hassan. Cohesion in English.P3. longman. London 1979. and Newyork / 1981

5-La grammaire du texte en pays de langue allemande -J-F Bourdin-P 133

La Semantique: George Mounin. p10/11. Collection 6-(Clefs) n° 16 Paris. 1972.

7-Les dimensions de l' Univers. par: Pierre Kohler; Science et vie. Dec 1981.

8-Linguistique generale:John Lyons P 133 Traduction F Dubois - charlier - Larousse- Paris - 1970.

9-O.Ducrot et T. Todorov.Dictionnaire encyclopedique des sciences du langage.P443/453. Edition du Seuil.1972.

10-Vandijk. Some aspects of text grammars.P 3. TheHague Monton.1972

المجلات والدوريات :

١- إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي بأمريكا، السنة ٣، العدد ١٠، خريف ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م.

٢- سلسلة: ندوات ومناظرات، منشورات كلية الآداب، الرباط، رقم ٢٤، ١٩٧٠ م

٣- دعوة الحق، الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي، السنة الثالثة، الأعداد: ٣٥، ٣٠، ٢٢ مكة المكرمة، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م.

٤- عالم الفكر: الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا ١٩٨٣ م.

٥- عالم المعرفة، عدد ١٦٤، الكويت، غشت ١٩٩٢ م.

٦- عالم المعرفة، المجلد ٣٢، العدد ٢، الكويت ٢٠٠٣ م.

٧- العلم والإيمان: العدد ٧١، ليبيا ١٩٨١ م.

٨- كتاب الأمة، عدد ٦٥، الطبعة الأولى، منشورات الفرقان، الدار البيضاء ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م.

٩- مجلة جامعة الملك سعود، مج ٣، كلية الآداب، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م.

١٠- المسلم المعاصر، السنة العاشرة، العدد ٣٩، رجب ١٤٠٤ هـ.





- ١- الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة.
د. عبد العزيز برغوث. _____
- ٢- عينان مطفأتان وقلب بصير (رواية).
د. عبد الله الطنطاوي. _____
- ٣- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية.
د. محمد إقبال عروي. _____
- ٤- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية.
د. الطيب برغوث. _____
- ٥- ظلال وارفة (مجموعة قصصية).
د. سعاد الناصر (أم سلمى). _____
- ٦- قراءات معرفية في الفكر الأصولي.
د. مصطفى قطب سانو. _____
- ٧- من قضايا الإسلام والإعلام بالغرب.
د. عبد الكريم بوفرة. _____
- ٨- الخط العربي وحدود المصطلح الفني.
د. إدهام محمد حنش. _____
- ٩- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي.
د. محمود النجيري. _____

- ١٠- ملامح تطبيقية في منهج الإسلام الحضاري. _____
د. محمد كمال حسن.
- ١١- العمران والبنيان في منظور الإسلام. _____
د. يحيى وزيري.
- ١٢- تأمل واعتبار: قراءة في حكايات أندلسية. _____
د. عبد الرحمن الحجري.
- ١٣- ومنها تتفجر الأنهار (ديوان شعر). _____
الشاعرة أمينة المريني.
- ١٤- الطريق... من هنا. _____
الشيخ محمد الغزالي
- ١٥- خطاب الحداثة: قراءة نقدية. _____
د. حميد سمير
- ١٦- العودة إلى الصفصاف (مجموعة قصصية لليافعين). _____
فريد محمد معوض
- ١٧- ارتسامات في بناء الذات. _____
د. محمد بن إبراهيم الحمد
- ١٨- هو وهي: قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم. _____
د. عودة خليل أبو عودة

١٩- التصرفات المالية للمرأة في الفقه الإسلامي.

_____ د. ثرية أقصري

٢٠- إشكالية تأصيل الرؤية الإسلامية في النقد والإبداع.

_____ د. عمر أحمد بوقرورة

٢١- ملامح الرؤية الوسطية في المنهج الفقهي.

_____ د. أبو أمامة نوار بن الشلي

٢٢- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة.

_____ د. حلمي محمد القاعود

٢٣- جسور التواصل الحضاري بين العالم الإسلامي واليابان.

_____ أ. د. سمير عبد الحميد نوح

٢٤- الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية.

_____ د. أحمد الريسوني

٢٥- المرتكزات البيانية في فهم النصوص الشرعية.

_____ د. نجم الدين قادر كريم الزنكي

٢٦- معالم منهجية في تأصيل مفهوم الأدب الإسلامي.

_____ د. حسن الأمراني

_____ د. محمد إقبال عروي

٢٧- إمام الحكمة (رواية).

_____ الروائي/ عبد الباقي يوسف

٢٨- بناء اقتصاديات الأسرة على قيم الاقتصاد الإسلامي.

أ.د. عبد الحميد محمود البعلي

٢٩- إنما أنت... بلسم (ديوان شعر).

الشاعر محمود مفلح

٣٠- نظرية العقد في الشريعة الإسلامية.

د. محمد الحبيب التجكاني

٣١- محمد ﷺ ملهم الشعراء

أ. طلال العامر

٣٢- نحو تربية مالية أسرية راشدة.

د. أشرف محمد دوابه

٣٣- جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم.

د. حكمت صالح

٣٤- الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية.

د. عبد الرحمن العضاوي

٣٥- السنابل... (ديوان شعر).

أ. محيي الدين عطية

٣٦- نظرات في أصول الفقه.

د. أحمد محمد كنعان

٣٧- القراءات المفسرة ودورها في توجيه معاني الآيات القرآنية.

د. عبد الهادي دحاني

٣٨- شعر أبي طالب في نصرته النبي ﷺ.

د. محمد عبد الحميد سالم

٣٩- أثر اللغة في الاستنباطات الشرعية.

د. حمدي بخيت عمران

٤٠- رؤية نقدية في أزمة الأموال غير الحقيقية.

أ.د. موسى العرياني

د. ناصر يوسف

٤١- مرافىء اليقين (ديوان شعر).

الشاعر يس الفييل

٤٢- مسائل في علوم القرآن.

د. عبد الغفور مصطفى جعفر

٤٣- التأسيس الشرعي للتعامل مع غير المسلمين.

د. مصطفى بن حمزة

٤٤- في مدارج الحكمة (ديوان شعر).

الشاعر وحيد الدهشان

٤٥- أحاديث فضائل سور القرآن: دراسة نقدية حديثة.

د. فاطمة خديد _____

٤٦- في ميزان الإسلام.

د. عبد الحلیم عویس _____

٤٧- النظر المصلي عند الأصوليين.

د. مصطفى قرطاح _____

٤٨- دراسات في الأدب الإسلامي.

د. جابر قمیحة _____

٤٩- القيم الروحية في الإسلام.

د. محمد حلمي عبد الوهاب _____

٥٠- تلاميذ النبوة (ديوان شعر).

الشاعر عبد الرحمن العشماوي _____

٥١- أسماء السور ودورها في صناعة النهضة الجامعة.

د/ فؤاد البنا _____

٥٢- الأسرة بين العدل والفضل.

د. فريد شكري _____

٥٣- هي القدس... (ديوان شعر).

الشاعرة: نبيلة الخطيب _____

٥٤- مسار العمارة وآفاق التجديد.

م. فالح بن حسن المطيري _____

٥٥- رسالة في الوعظ والإرشاد وطرقهما.

الشيخ محمد عبد العظيم الزُّرقاني _____

٥٦- مقاصد الأحكام الفقهية.

د. وصفي عاشور أبو زيد _____

٥٧- الوسطية في منهج الأدب الإسلامي.

د. وليد إبراهيم القصاب _____

٥٨- المدخل المعرفي واللغوي للقرآن الكريم.

د. خديجة إيكير. _____

هذا الكتاب

... إن القراءة العلمية الرصينة المتبينة لمناهج تحليل الخطاب، والمعتمدة على القراءة المقاصدية، القائمة على احترام خصوصيات القرآن الكريم، واعتماد قواعد التفسير وأصوله، من شأنها أن تبرز تميز القرآن الكريم وفرادته. فهو كلام الله المعجز الخارج عن معهود كتابات البشر...، ومن ثم فهويتزد بوحدة خاصة تتمثل في وحدة الأهداف والمقاصد، من حيث البناء الدلالي والمفاهيمي (الانسجام)، ومن حيث بناؤه التركيبي إذ يتماسك (الاتساق) بدمج الأدوات التركيبية مع الأساليب الفنية بطريقة ألغت ما عُرف في عالم المعرفة اللسانية، ومناهج تحليل الخطاب من تضيق بين المستويات التركيبية والأسلوبية والتداولية. إن النص / الخطاب القرآني يتماسك على غير معهود البشر، وبطريقة مضمرة لا يمكن الكشف عنها إلا بعد إعمال العقل والنظر...



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

www.islam.gov.kw/thaqafa